حصريات موقع مكتبة هنا كتبي

للمزيد من الكتب والمؤلفات

اضغط هنا





بوجدرة

رواية



الإنكار

منشورات ANEP

رشيد بوجدرة

الإنكــــــار

روايـــــة

ترجمة صالح القرمادي

ANEP


الإنكــــار

الكتاب: الإنكار (رواية)
المؤلف: رشيد بوجدرة
المترجم: صالح القرمادي
الغلاف: بديعة ميدات
الناشر: المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والاشهار (ANEP)
28 طريق أحمد واكد، دالي ابراهيم، الجزائر
الهاتف: 53/ 52 38 37 21 213
الفاكس: 53/ 20 72 36 21 213
e-mail: dcpa@anep.com.dz

الطبعة الأولى 1984
الطبعة الثانية 2002
ISBN: 9961-756-06-1
Dépôt - légal: 822-2002

منشورات ANEP
إقامة النجاح ـ 11، شارع الأخوة بوعدو
بئرمراد رائس ـ الجزائر
الهاتف: 58 95 44 21 213
الفاكس: 65 95 44 21 213

بذهاب الوهم والهلواس كان النور ينزل مثله مثل الصفيحة الصقيعية رغم ما في الوضع من تفتت وفوضى كانا يتفاقمان بعد مرور «الأعضاء السريين»، فكنا إذن قد أوقفنا غاراتنا (أأقول لها إن لفظة «Algarade» الفرنسية أصلها عربي، وهو الغارة، وإنه من المؤسف جداً أنها لا تعرف حتى ذلك؟ لعله من الأفضل ألا أوقظ فيها تلك القطة الضارية العاصفة الرابضة في أعماق نفسها..). كنا قد أوقفنا غاراتنا ولزمنا الهدوء والسكون. ترى لم كانت تلح عليَّ في السؤال؟ إنها تبتغي أن نتحادث عن يما من جديد ولما كنت أصمد وأرفض فقد كانت تعمد إلى جسمي تدعكه بنعومة بشرتها المعدية فلا تبقي على بشرتي آثار بعض العطور الرقيقة الشذا وإنما تخلف عليها برودة عليلة كانت نفسي المنكوبة في حاجة إليها، برودة عليلة تذكرني ببعض روائح العنيبة وعود القرنفل يلتهبان فيفنيان في ثبات الذاكرة. وكنت في مثل تلك اللحظات أبعث من جديد، فيعود إليَّ فجأة صفاء في الذهن غريب قريب من حالة

الوجد والذهول، ويتيه عقلي في مسيرة وهمية ملؤها الحيطة والحذر مثلي في ذلك كمثل البهلوان يسير على حبله الممدود في الفضاء وقد طهر من شجاعته تطهيراً. كنت أنقلب فأستحيل إلى شخص غير شخصي حتى إنه كان يكفيني أن أرى إحدى بنات وردان ناصبة قرني في استشعارها على شكل قاطع ومقطوع علامة على العدوان تجاه عيني العشيقة الثائرتين ذعراً، لكي أهرع لإغاثتها فأخلصها من شر تلك الدويبة الشنعاء. حتى إذا رأيت «سيلين» وقد فاضت على ملامحها علائم الاعتراف بالجميل أخذت في جس عضلاتي في غموض وإبهام رغبة مني في تحسين إخضاعها وحملها على الهيام بي وتدليلي دائماً. وعندئذ كان يحدث بيننا شبه فضاء معشوشب متراص كثيف في هشاشته ومهدد على الدوام بانهيار زلزالي كنا لا نفتأ معاً نرهب جسامته ونخشاها ونحن قابعان بصورة مخالفة للمعقول في صميم قلب تلك الحجرة أمام البحر، وقد هدأ بمفعول ارتداد أمواجه فبلغ منتهى رتابته الذاتية الشاذة. كل ذلك ونحن ننظر فنرى رشاش الماء يلطخ الميناء والرصيف في أبهة وبذخ ويغمرهما غمراً وقد أخذتهما غشية ثقيلة فتخدرا منذ مغادرة الصيادين لهما وريثما يجيء إليهما عملتهما من جديد. كل ذلك وكلانا يحملق في صاحبه كالملاكمين يتهيآن للملاكمة وإنما للتعاض تعاضاً تسيل معه دماؤهما.

إلاّ أن ذلك كان في الحقيقة أمراً معتاداً لدينا، تأصل

فينا تأصلاً بالغاً سرعان ما كنا ننسى معه أننا في حالة سلم قررناها بصورة رسمية منذ لحظات معدودات. وكنا عندئذ نخر معاً فتكون الزفرات تسري على جسمينا المحمومين البالغين من نفاد الصبر أقصى حدوده حتى كانت رغبة كلينا في الوصال تنقلب من شدة نفاد صبرنا، فإذا هي شراسة ونهم كنا لا نأبه معهما للون بشرتينا وقد سرت عليهما حبوب صغيرة ضاربة إلى البنفسجي، كانت تنبئ سلفاً بشدة الملامسات الأليمة القادمة. وكنا نخشى تجدد الالتحامات الجسدية بيننا إذ لم تكن القضية أن يتناول كل واحد منا جسم الآخر، بل كان من المفروض عوضاً عن ذلك أن ينهش كلانا صاحبه نهشاً يبلغ من الشدة والصرامة حداً ينشأ معه الكابوس... لا سيما عندما كانت الأنثى تتصدى منبثقة من نسغها الشخصي بالذات فتريك، وقد أفرجت عما بين ساقيها لحمة متورمة مخربة تمتد حتى تتصل بحدود ذلك الاحمرار الطاغي على ذلك الركام المدلهم في مسحة من وقار، ذلك الركام الذي كان يقطع النور المتدفق على الفخذين قطعاً حاداً فيدع لحمتي تعمه كالعمياء في البداية، ثم تتدارك الأمر فتأخذ في التحسس تحسساً منهجياً منظماً إلى أن تصادف ثقبة من الثقب. بيد أننا كنا نقضي في تلك العمليات وقتاً طويلاً، وكان لعاب فرجها يسيل على ساقي - خاثراً لزجاً يجري من تلك اللحمة المتورمة الفظيعة التي كنت مع ذلك أستطيب الغوص فيها والانغمار، إلاّ أن كل ذلك لم يكن ليشفي غليلنا. وفعلاً فقد كان من المفروض

أن تغيِر لحمتي المسترخية على لحمة «سيلين» المسترخية فتكسحها اكتساحاً. وإذ ذاك كانت هي تبارك عملية الذهاب والإياب السافرة فتزيد في إفراج ما بين فخذيها وقد استعدت استعداد المرأة الواثقة من نيل أعظم جزء من الكتلة لالتهام المجموعة الشاسعة بأكملها وذلك لا لكي تلتذ بها فحسب وإنما لكي تركزها كذلك على ركيزة لحمها العريض فتسندها إلى قاعدته إسناداً؛ لحمها المضياف المتفتح على جميع ضروب الأمومة والإنجاب. كانت تصيح وتتأوه التذاذاً فيا لها من وليمة جنسية ملؤها اللزاجة والتلزق، ترى أية آلة للضرب والصدم تكون قادرة على الإتيان على آخرها! لم تكن العشيقة شاعرة بألمها النرجسي المولع بذاته بل كانت نفسها متفجرة متفرقعة وسط مضيق ولهها الذاتي فتطفق فجأة تريد امتصاص كل شيء من خلال فرجها وقد ارتخى ولان من جراء اللذة والسيلان ثم عاد فتصلب بسرعة لكي يتمكن من الانضمام على اللحمة المقابلة أحسن مما فعل؛ وكانت تلك اللحمة إلى الاندهاش أقرب منها إلى التلبد وسط تلك الفجوة الضيقة ضيقاً معيباً، وذلك رغم ما كانت عليه من خصوبة لا حدَّ لها بإمكانياتها الكاملة على الدوام، غير المتوقعة على الدوام. وكانت العشيقة عند انتهاء الالتذاذ تستغل فرصة الفترة الفاصلة بين الشعور بالكمال والشعور بالمرارة فتشكرني وتعبدني وتهش في وجهي وتحتفي بي.

وكنت أشعر أحياناً وأنا أطرح عليها نفس الأسئلة من

جديد بأنني كنت أفسد بذلك كامل القضية، غير أنها كانت تعرف كيف تردني إلى الجادة فتؤنبني في رفق وصبر. لقد وهبت موهبة أساسية هي القدرة على أن تجعل مني إنساناً عاطفياً منشرح الصدر، ولذلك فقد كنت لا أصر كثيراً على موقفي لا خشية الإخلال بذلك التوازن المهلهل القائم بيننا، بل لأني كنت دوماً متخوفاً من أن أصبح في حرج ومن أن أجد نفسي مرة أخرى في بلبلة وارتباك وجهاً لوجه أمام الواقع. وكنت شاعراً شعور الحدس والتخمين أنه لو دفعني التذبذب والانذعار إلى محاولة الاطلاع على ذلك الواقع اطلاعاً كاملاً لبان لي أنه واقع مرعب مخيف مهما كانت الحال وكنت ممنوناً، أحب في صاحبتي صمودها لهجماتي المفتعلة ولذلك فقد كنت إذا سألتني استئناف سرد القصة التي وقفت فيها بالأمس وسط جملة من الجمل أستجيب لرغبتها بدون أن أدعها تلح عليَّ كثيراً في السؤال وقد سعدت نفسي أمام نفسي (وكانت تقول ما أحمق هذا الخوف من التمزق!).

كنت أمقت رأفتها تلك بي وكانت لا تحسن إخفاءها إلاَّ أنني لما كنت أرغب في تجنب عقد العزم واتخاذ القرارات كنت أترك هذه الحالة تسبح في ذلك الضباب الذي كان خاصية من خصائص علاقتنا الأساسية. لقد كنت أحلم بسجنها لا لكي أحافظ عليها فتكون لي وحدي وأحميها من رعاية أولئك الذكور المتسكعين في تلك المدينة المهجورة من النساء، يجوبون الأزقة باحثين في

تلك الحالة من الخمول ومنتهى التذبذب التي تلت ـ أو سبقت بكثير ـ عملية القبض فالحجز التي قام بها الأعضاء السريون فحبسوني في «فيلا» شهرتها بين الناس تغني عن الزيادة في وصفها. لا لم يكن ذلك هدفي ولا غايتي بالمرة، بل كنت أحلم بحبسها لكي أجعلها تلمس واقع تلك المدينة التي كانت تتوهم أنها تعيش فيها وقد تكون أغرتها ـ بل وهيجتها تلك النظرات المكفهرة المحمومة التي كان جميع الرجال يصوبونها في بطء على ربلتي ساقيها المغمدتين في جوارب النيلون (فيضيف نيلونها إلى الشهوة الخام إشهاراً جنسياً من أسمج طراز)، وتسيل على ردفيها الضخمين وعلى نهديها العجيبين في افتراقهما افتراقاً واضحاً جلياً تحت أقمصتها الخبازية اللون أو الصفراء أو السوداء التي كانت تفضل ارتداءها، وليس مرد ذلك إلى أنه كان لها أفكار ثابتة وآراء واضحة فيما يتعلق بنواميس التجميل النسائي «ببلاد البرابرة»، بل لأنها (وإن أقسمت مغلظ الإيمان إنها بريئة) كانت تريد بكل تأكيد أن تبعث الرعب والبلبلة وأن توقظ شهوة الجماهير الجنسية، تلك الجماهير الناعسة المتسكعة خلال أزقة مدينة الجزائر. وكانت تشق طريقها وسط تلك الجماهير برباطة جأش عسكرية أثرت في نفسي عندما رأيتها لأول مرة أيما تأثير.

بيد أنه كان ينبغي أن أتسلح بسلاح الشجاعة وقوة العزيمة لأتزوج بها وأفرض عليها قوانين بلادي، تلك البلاد التي كانت هي لا تزال تعتبرها ضرباً من ضروب

الجنة على الأرض يتقاسمها البحر من جهة والأطلال الرومانية المنتصبة بها كالأوتاد من الشرق إلى الغرب من جهة أخرى والمخربشة على أرضها ـ إن صح هذا التعبير ـ أشكال وبناءات خربة تكاد تكون مجردة.

إنه الغيظ الذي لا يُطاق. إذ كانت «سيلين» تصل بي إلى ذروة الغضب والإثارة عندما كانت تحاول أن تفهم لماذا كنت أجعل الآثار الرومانية قائمة دائماً على ساحل البحر. وكانت تقول وتكرر مراراً وتكراراً: «تيبازا» تنطق بتلك اللفظة كما لو نطقت باسم ثمرة من الثمار فتنخفض شفتها السفلى المتمثلة المخضلة بالرضاب انخفاضاً ملؤه الشره والنهم. شفتها المتلألئة حيوية وسط مجموع وجهها الهادئ بل القريب من الوداعة والاطمئنان. وكنت عليماً بأن رغبتي في حجزها رغبة قوية عارمة لكن لا طمع في تحقيقها ولم أكن أبتغي أن تتضارب أعمالي مع المبادئ التي صنعتها في غضون الكوابيس التي كانت النساء يلعبن دائماً فيها أدواراً هامة كذلك الحلم الشنيع الذي رأيت فيه أرنباً مسلوخاً كانوا يصبون عليه بملء حفناتهم قصاعاً من الدم وأمي بجانبه تحتضر من جراء حيض جنوني فاض عليها فما هو بمتوقف ولا هو بمنته. ولم أكن في أثناء هذا الكابوس لأربط الصلة بين الدم المصبوب على ذلك الحيوان المسلوخ وبين دم أمي، ولم أدرك أن جميع ذلك الدم كان صادراً عن أمي وقد أفرغت منه وملأ فمها الأنين والحشرجة إلاَّ عندما استفقت. كان لزاماً عليَّ أن أقي

«سيلين» لأنها كانت هي الأخرى ضحية وهي في ذلك وسائر نساء البلاد التي جاءت تعيش فيها سواسية. ولم يكن في وسعي تصور إمكانية حبسها في هذه الغرفة الصغيرة الحقيرة التي كنت أنثر فيها حبوب «النفتالين» منذ أن قرأت في إحدى المجلات بأن هذه المادة وإن لم تكن قادرة على قتل الجرذان فإنها تصيبها بداء الدوخة والدوار ولعل ذلك يجبرها على العدول عن شن غاراتها الليلية في أرجاء الغرفة وعن صراعاتها الغرامية التي كانت نتيجتها الحتمية جولان الأنثى الحامل جولان الطاووس يتبختر زهواً؛ وكان هذا المنظر يبعث في نفسي الاشمئزاز والنفور إذ كنت عاجزاً عن تحمل رائحة الإناث الحاملات ورائحة النساء الحبليات.

لا!. لقد كنت عاجزاً عن سوء معاملتها والإساءة إليها. ولذلك فقد كنت أفضل الخضوع لقانونها فأهيئ بذلك لنفسي الشعور بفشلي الذاتي. ولم أكن قادراً على تحمل مسؤولية ذلك الفشل كاملاً بل كنت أتحمل تلك المسؤولية جزءاً جزءاً حسب الأحداث وبمقتضى الظروف والأوضاع التي يضعني فيها جسمي ذلك الإرث الشنيع الذي حملوه من «الفيلا» إلى المستشفى ومن المستشفى إلى سجن الأشغال الشاقة ثم من سجن الأشغال الشاقة إلى هذه الشقة الصغيرة التي كنت أسكنها والواقعة على أرصفة ميناء الجزائر العاصمة. ثم حملوني مرة أخرى من هذه الشقة إلى المستشفى بعد أن انتابني المرض من جديد

فكانت الانتكاسة القاضية. وكان الإنسان الوحيد الذي يعودني بالمستشفى هو «سيلين» وذلك رغم أني كنت أخجل منها بعض الخجل ورغم أن فساتينها الباهظة الثمن، الزاهية الألوان في إفراط كانت تهددني بمقاطعة سائر المرضى لي وكنت أحب فيهم ذلك التصلب الفكري، وذلك الرضا لمن الذات المدمر لضمائرهم وقد نالت منها الحياة بعدما نالت (وكانت تقول: دع عنك اجترار كل هذه الأشياء.. وحدثني عن أمك فذلك أحسن..). ولم أكن أستجيب لطلباتها الملحة إلاّ عندما كانت تصل إلى حدود الصبر والاحتمال، أي لما كنت أشعر في غموض وإبهام أنني لو أصررت على السكوت لتعرضت لخطر إضاعة فرصة ذكر قصة منزل يما بدون رجعة. قصة منزلها وقصة طقوس القبيلة وخرافاتها. وعند ذلك كنت أسارع إلى إرضاء رغبة سيلين فأبسط عليها ذكرياتي بسطاً، كنت أشعر من خلاله شيئاً فشيئاً بلاواقع ليس هو بالعجيب الخارق للعادة بل هو لاواقع غير لائق ولا مناسب. ذلك أن رفضي للحديث لا يمكن تمديده وراء حدود ما، وهي تلك الحدود التي تتمثل في درجة ضراوة العشيقة بل وحتى في سخريتها المحزنة. وكان نور الغروب المتسرب من النافذة قد رسم على جانب وجهها هدأة مؤقتة كأنما قدت من أعماق العصور الخوالي. وكان الظل الذي يظلل خدها قد مسخ جزءاً من وجهها مسخاً فبدت لي كأنها امرأة أجنبية لا عهد لي بها وذلك لأني لم أعد قادراً على تصور لا خدها الثاني ولا جانب جسمها الآخر. ترى

هل كان في ذلك استهلال لإغماءة فأخر مغشياً عليّ؟ لا بل إن ذلك كان بداية فترة من الحذر الذهني أمام هذه المرأة ذات الوجهين، وجه غمره الضياء فعاد إليه ضرب من المتانة والصلابة ومن واقعية لا عهد له بها بينما ظل الآخر في حالة من الغموض والإبهام. شعرت أنا الآخر في ألم وعناء بشيء من ازدواج الشخصية على غرار ما تشعر به تلك المرأة، وقد انتصب أمامي مولية إياي جنبها، جالسة إما على الكرسي أو على السرير. ولكن أنى لي أن أجد ما يلزم من شجاعة فأنهض وأمشي حتى أصل إلى المرآة القائمة الذات فوق المغسل وأنظر إلى نفسي مرتين أي من زاويتين مختلفتين فأقدر أثر النور في وجهي وقد بلغ ذروة ضيائه خارج البيت فألتهب التهابة أخيرة تبشر بحلول فترة من البرودة؟ وأنى لي ألا أثير انتباه «سيلين» وأستفز ارتباكها لو رأتني مركوزاً أمام المرآة أحدق في جانبي وجهي الواحد تلو الآخر وقد بدا لي أحدهما أغلظ من الآخر وذلك من جراء عدم تناظر ورائي لم يكن يظهر لي إلاّ عند النظر إلى نفسي في المرآة. ولو رأتني العشيقة على تلك الهيئة لظنت أن نوبة جنونية قد انتابتني أو أن ما كنت أفعله هو حركة من حركات المتطيرين المؤمنين بالشعوذة أو حتى مناورة مني أحتال بها للإساءة إليها أو لقتلها.

لقد وقع الضوء المتصاعد من حوض الميناء والمتجه نحو نافذتنا المضاءة على أحد جانبي وجهي فأصبحت أشبه «سيلين» مما جعلني في الحين أشعر بأهمية الكاملة

لتساكننا، وهو تساكن ليس بالغرامي ولا بالاجتماعي، بل هو من قبيل التعايش البيولوجي. فـ «سيلين» أصبحت تشبهني! فقد صرت مزدوجاً، وهي كذلك. وقد أثر في نفسي ذلك أيما تأثير لأني ما انفككت إلى ذلك الحين أعتقد صارم الاعتقاد أن ليس هناك ما من شأنه أن يصير أحدنا مثل الآخر. ورغم ما كان قد خامرني من واخز الرغبة في القيام إلى المرآة للتثبت من صحة هذا التشابه الذي أحسست به فجأة بيني وبينها لم أتحرك من مكاني بل مكثت أرقبها وهي تدخن السيجارة بعد الأخرى، وأحس مسبقاً بذلك الطعم التافه الذي سيكون لفم «سيلين» عندما سأقبلها وأتكهن بأن الأمر سينتهي بها إلى القيام والاتجاه إلى الصنبور ـ لتلقي خيوط الماء العمودية الغزيرة الثخنة في حفرة كفها وقد انقبضت وتكورت وهي في ذلك تمطط من شفتيها المطبقتين إلاّ فرجة صغيرة مجعولة لاحتساء الماء ودخوله في فيها. ولكن «سيلين» لم تتحرك هي الأخرى من مكانها بل كانت كأنها تنتظر حدوث شيء ثم كررت فجأة بصوتها الرتيب الأبح: «زدني من الحديث عن يما».

هل أجعلها مهمومة؟ لا. لأن ذلك أصبح شيئاً لا يلهيني ولا يسليني. فهل أنافق وأتظاهر؟ لو فعلت لانكمشت هذه المخلوقة وتقبضت ولمات كل شيء فيها سوى عينيها المفتوحتين على مصراعيها والمصوبتين لنظرهما بلا رحمة ولا شفقة على الافتراءات التي أفتريها. ولكن لما لم أفه ببنت شفة فإنها لم يكن لها سطوة على ذاتي ولا

على ذات افتراءاتي (وهو ما كانت تسميه «هذياني»). لقد كنت أريدها حفاقة. وكانت تقع في الفخ الذي نصبته لها، تريدني فريسة من نوع خاص لا أية فريسة كانت. تريدني حياً ولا تحلم إلاَّ بانتزاع ذكرياتي مني، لا لاستعمالها لغاية ما، بل لإفنائي وإذابتي من خلال ثرثرتي القاحلة التي لا ينضب لها معين ولا فراغي من جنوني الملموس ولو حدث لها ما تحب لما بقي من ذاتي إلاَّ رواسب مبهمة الآثار ملؤها اللعاب والدخان، تتواصل بعد ضلالي وبعد استلاب كلامي المجرش المعنى المتشقق العلامات.

لقد استسلمت تلك المخلوقة وكان كل عمل نقوم به معاً وكل فضاء نستعمله باشتراك يمثّل فغرة مصارعة تنذر من بدايتها بحلول التمزيقة الثقيلة الجامحة. وإذ ذاك كنا نتداخل من جديد ولشد ما كانت تشتهي ذلك وتحبه! ويا للخوف من تلك القطعة الشنعاء من اللحم المجدور المتدلي وسط الفرج على هيئة مادة منهارة يذكرنا ابتلالها الخاص بصورة ملك الجعلان وقد تمدد في استدارة وسط سائله وذلك حتى استنفاد كل إمكانية في التصالح مع البيئة المعادية. ولكن يا للين الخشب الأبيض (خشب قطعة الأثاث الوحيدة الموجودة في الغرفة والتي كانت تبعث على الحلم والخيال) وذلك رغم الرؤيا التي سدت طريق أسافل بطنها مرتع حبي، العاري المدمل ولكنه مليء على كل حال بتلك الحكمة الحصباء الضرورية جداً لمن يريد أن يتعلم كيف يموت. لا ينبغي نكران الراحة. ثم جاء الخصام. ثم

جاء دور الماء. وكان السقف ذو الفتحات مستمراً رغم نزول الليل في تصفية النور وسكبه علينا كما لو كان الخشب مادة ناقلة للنور بعد الاحتفاظ به في صلبه، تفوح منه رائحة الدهن المنهوكة بمفعول الحرارة المتصاعدة المتدفقة أمواجاً محرقة لا من السماء بل من السقوف والسطوح الأخرى المبيضة بالكلس والمرسلة على غرفتنا الصغيرة المائلة السقف إشعاعاً أشد إضاءة وأشد فتكاً.

يا له من امتزاج، لقد كان في فطنة العشيقة شيء من الهم. ولشد ما كان الغيظ يحتد بي كلما سبقتني فاستجابت إلى إشارة مني أو كلمة أو رغبة قبل أن أبدي من ذلك شيئاً لقد كانت كمن أصيب بالعشى فكانت البثرات تتخلل جفني فيأخذ كل شيء في التكاثر والتفريخ أمام عيني في صلب شيء من البغض القلوي لا يمكن لأي شيء عدا جو البوالات العمومية أن يعبر عن شدته المتصلبة القاسية في أبهتها وبهجتها الرسمية وكأنها ميلان شديد يتدفق منه ماء ثقيل حاد في الوقت نفسه. لقد كانت العاصفة على وشك الاندلاع بيننا، فـ «سيلين» لم تكن تريد مفارقتي إذ كانت تعرف أنها قد ترتكب بذلك غلطة خطيرة من شأنها أن تكون وخيمة العواقب (أهي المساومة؟) لا سيما أن سبب الافتراق المحتمل سبب واه ضعيف. لكم تتفنن في الاغراب والتناقض إلى أقصى حد. فماذا لو فقدتها بدون رجعة! لقد كانت لا تبدي حراكاً ولا ترد فعلاً. إنها حالة الانتظار. الخدوش المجردة المتولدة عن ذلك الجو

السحري المنبعث من الغرفة. فلم يبق على حالته إلاَّ الأشكال وهي أشكال نقية، ولكنها لا تنتسب إلى أسلوب معين لأنها من آن إلى آخر تبدو فظة غليظة ذات طبقات كما لو كانت مغشاة بالريش وبفلوس الأسماك. ها هي بقبقة الماء أسرع من ذي قبل: ذلك هو خروج الصيادين. وبقيت وفي نفسي رغبة في إيلامها بأن أحبسها في حجاب أبيض تتبرج داخله كالأخطبوط المتعدد الأصابع. آه لو حققت هذا الحلم الذي يخزني في ذلك العرين الذي كانت «سيلين» حرة فيه دائماً في أعمالها وحركاتها! ولكن الأفضل لها أن تستمع إليَّ وأنا أتكلم بدون أن تتجرأ حتى على مقاطعتي من حين إلى آخر وشيئاً فشيئاً تتصور قصتي بيني وبين تلك الشقوق الملعونة التي كانت تبعث في نفسي الخوف بمجرد ما كنت أميّز ذلك الفارق بين القول والواقع الذي لا يملأ فراغه ولا ينقص أبداً ورغم ذلك فقد كانت هي الملكة علىٰ أية حال، الملكة التي لا تنغص لا تنكد ولا ينتابها أي قلق ولا انزعاج فتتناول جميع الأمور متسلحة بالصبر. وعندما كنت أخرج من أوهامي المذعورة كنت أعود فأعبدها فتبقى رغم كل شيء متضامنة معي. وكان في ذلك أيضاً نهاية الشعوذة السحرية.

كانت «سيلين» تضحك كلما سمعتني أطلق اللعنات والسب باللغة العربية. ولما كانت لا تفهم لعناتي العربية فقد كانت تحاول على سبيل اللعب واللهو أن تتكهن بمعناها من خلال التصويتات الحلقية الشديدة ثم اللطيفة

اللذيذة الناتجة عن استعمال الحروف المشأشأة الملينة التي تزخر بها لغتي التي كانت «سيلين» تنعتها بالمقدسة مع أنها لم تكن تبدو لي أجمل من اللغات الأخرى. وفي كل مرة حاولت فيها «سيلين» تعلم لغتي جرحت عبثاً فمها وحلقها وضحكت لذلك. وكان ذلك يكفيني إذ كنت أشعر فجأة بالحاجة إلى التصريح بصوت عال بحقائق بديهية (كان النهج أسافل غرفتنا ضيقاً ينتهي إلى أرصفة الميناء. وبالأمس أكلنا بعض «الأربيان» المشوي في مطعم شعبي بالميناء عرضوا علينا فيه أن ندخن الحشيش. فأجبت بغتة لا؟ فنظرت إليَّ «سيلين» نظرة فيها شيء من الاندهاش والتعجب، ولما رجعنا إلى الغرفة غسلت قميصي باللافبو). كانت «سيلين» تضحك. والسيارات تجري على حجارة طرقات الميناء محدثة صوتاً كاصطكاك الأسنان المخنوق. وكانت النافذة مفتوحة. وتواصل بريق السطحات وقد ذهبت عنها الشمس بعد أن صقلتها طوال النهار، حتى أصبحت تبرق في شبه الظلمة. وكانت حزم العشب الأصهب البارزة من خلال السقوف بين القراميد ترسم في تلك الدعة والطمأنينة شيئاً كأنه خدش عابر. فكنت أشرع في الكلام مناجياً نفسي، وأما العشيقة فقد كانت هي الأخرى مفتونة. فتنها صوتي الرتيب المتعب المليء منذ ذلك الوقت بالرغبة في النوم الذي سأحاول الاستسلام إليه بعد حين. وأما أنا فقد كنت محصوراً بين الهذيان اللفظي والصمت الرهيب أخشى أن تسيل كلماتي فتعاكس في طريقها تيار ضميري

المخدد بمادته الخاطفة ذاتها والذي قد عصره تسلسل الأحداث في زمن هو في نهاية المطاف زمن وهمي خداع (ولكنها كانت تقول: الكلام أمر سياسي). كانت جالسة على السرير متربعة متصدرة وقد اندست رجلاها تحت فخذيها الغليظتين، وكانت تبدو لي في جلستها تلك كأنها أحد العميان يبحث عارياً عن قوته أمام إحدى محطات الحافلات العمومية. يا له من شخوص أسطوري! لقد كان دأبها أن تجلس على تلك الهيئة كلما أخذت تستمع إلى أحد يتكلم (إنه الاستعداد للمشاركة والاتحاد في الشعور).

لو قلت لك إني لم أكن أحب شهر رمضان لكنت من الكاذبين. لقد كنا نحسن ترصد القمر وكان انتظار ذلك الشهر المقدس ملؤه الخير والبركة. فقد كان زاهر ينقطع عن شرب الخمر مدة شهر كامل ويعاود يما الأمل ويعم المنزل جو من الاحتفال. فكانوا يبيضون بالكلس جميع الغرف وبالخصوص جدران صحن الدار ويخزنون زاد شهر كامل من نادر المأكولات والمشروبات وأبهظها ثمناً. ولم يكن الصيام إلاّ تعلة للتفنن والتكثير في الأكل مدة طويلة من الزمن إذ كانوا يتداركون ليلاً ما امتنعوا عنه نهاراً بصورة اصطناعية في الواقع. يا له من تبذخ في الأكل وإفراط في النهم. وكانت تحل فترة من المسالمة مع الأعمام. وأما المأدبة الرمضانية فتقام كل يوم حسب طقوس مضبوطة لا حياد عنها. أما النساء فينتابهن الاهتياج كلما دنا وقت الغروب منذراً بالخلاص وأما الرجال فيؤمون

المساجد ثم المقاهي حيث يقيمون الحلقات يلعبون بالورق أو بالديمينو. وأما نساء الأعمام فيغتنمن الفرصة لزيارة الأقرباء والأحباب وأما أمي فتفوح منها رائحة شذية. وأما الأب فكان يطلق سبيلنا. وأما زبيدة امرأة أبي فقد كانت تكف عن مضايقتي ومناوشتي. وكانت الشوارع تكتظ بالناس بمجرد الفراغ من تناول طعام الإفطار. خلائق وعياط وزياط وازدحام و«كافيشانطات»! فيما السواح راحو ينشدون الفرحة على رقصة البطن المستوردة من مصر عن طريق تونس. الأضواء وأشرطة الزخرفة وباعة سقط المتاع المتصائحون والأقزام والبهلوانيات والسحرة والخيالات الصينية والكراكوز والسينماءات في الهواء الطلق. لكم ضاقت صدورنا في انتظار حلول أفلام «زورو» فيكون التناجي والضحك وحدائق الألعاب المتلألئة الأنوار والأراجيح.

وكنا قبل الخروج إلى الشارع نؤم المسجد وقد عقد كل واحد منا منديلاً نظيفاً على رأسه. وكنا نلفي أعواد العنبر والتقوى الحقيقية وصفوف المؤمنين ولكن النساء كن وراء الرجال في عقر المسجد. وتكون الحصر والزرابي الفخمة الثمينة وزجاج النوافذ الصافي وصوت الإمام الرخيم. وتكون الأبهة والرونق في الزخارف العربية وفي زخرفة للبذخ والنور. ثم يأتي القرآن نسمعه فترتعد فرائصنا. أكان ذلك خوفاً أم هل غادرنا الشبق في ذلك المسجد الزاخر بالتقوى والورع؟ لا أبداً، لم يغادرنا الشبق ولا

الشهوة الجنسية. كنا نجلس وراء النساء ونقيم الصلوات بوله، ونتمتم عبارات التقوى والابتهال ونعبد مع ذلك اللحم الأبيض الناعم وقد تراءى بسرعة في فترة من فترات اللوعة والالتهاب ثم غاب عن بصرنا في فترة من فترات التموج والعبادة ثم ها هو من جديد يعود لحماً أمرد يتقد اتقاداً، ثم يرجعنا صوت الإمام إلى عالم الواقع فنترك الأحلام في براءة. لم يكن في نفوسنا أية رغبة في الكسب أو الربح وإنما كان ذلك منا عبادة متعددة الجوانب، عبادة الحق وعبادة المخلوقات في آن. يا لهن من نساء عنيدات. ويا لها من صلوات والهة! فقد كانت إقامة الصلاة تعمي بصائرنا لا سيما أن الحركة فيها ذات فتنة وجمال.

وعند مغادرة المسجد يكون النسيم العليل والماء نغرفه ثم نشربه في أوعية تفوح منها رائحة النعناع والقطران في شيء من المرارة المبشر بالخير فيروي ظمأنا في الحين. ثم يأتي دور التجوال: الأسواق. والشوارع الواسعة. الأنهج الصغيرة. حارات المومسات. الجنود. كنا نتجول في كل مكان بلا شعور لا بالرذيلة ولا بالفجور. وكانت المومسات المزركشات كالأفراس يصحن فينا ويطردننا مستنكرات لوجودنا بينهن ولرائحة المسجد التي كنا نجرها وراءنا فنستاء للصدمة ونطلق عليهن اسم «الراقصات»، وربما كان سبب تلك التسمية ما في لباسهن من إفراط في البرقشة وما في زينة وجوههن من مبالغة. ثم تأتي الدروب المظلمة التي كان علينا اختراقها قبل الوصول إلى الساحة الكبرى وقد

تحولت لمدة شهر كامل إلى ملهى عملاقي. كنا ننظر فنرى «برارك» الخشب المتلاصقة و«اليانصيبات» المجعولة للسذج من البشر والحفلات الشعبية، ومحلات الرماية بالبنادق والنساء نصف العاريات يستدعين المتفرجين للتفرج على المشاهد المعروضة بالداخل ونسمع الموسيقى والضوضاء ونرى الأقزام البهلوانيين (إلاً أننا كنا نخشى السحرة) والمقاهي الفائضة على الطرقات التي استحوذ عليها الراجلون والغبار والحرارة والماء المجعول للإيهام وباعة المرطبات والفطائر المعقدة الأشكال. الكروم وخشبات المسارح و«الكفيشانطات» حيث تحتشد الخلائق لإلقاء نظرة شهوانية على سرة بعيدة القعر في بطن راقصة سدتها بدرة مزيفة لكنها برّاقة رغم ذلك ونرى النشالين يترصدون فرائسهم. ونسمع الأغاني القديمة تجتر اجتراراً مصدرها بلاد مصر أو غيرها من البلدان. هنا البضائع المعروضة من كل نوع عجيب وبائعات مساحيق تلميع الأسنان ومساحيق قتل الجرذان. وهنا المشعوذون والعرافون الملتحفون بالحرائر المتلألئة الألوان والجالسون القرفصاء على الأرض مباشرة يتكهنون ويكشفون عن الغيب لغيرهم من الناس فيقرأون على الرمل مستقبل غيرهم كما لو انقطع رجاؤهم من مستقبلهم الخاصّ. وهنا الازدحام والنساء الخرقاوات، الملتحفات بأخمرتهن هائمات في ليل الصيف جماعات جماعات يخترقن الفضاء مخفورات رافضات لكل مراودة أو إغراء يبعثن في نفوسنا الاشمئزاز والتقزز وهناك الاحتفالات

الشعبية. لقد كنا نتسلل بلا تذاكر إلى تلك «البرارك» الصغيرة التي كانوا يعرضون فيها الأفلام الصامتة فنشاهد «شارلو» الخارق للعادة، ولا نصدق ما نراه من حركاته وبهلوانياته. وهكذا تغمرنا السعادة الناتجة بالخصوص عن الدخول بدون دفع الثمن. وكنا نصفر تصفيراً ما أن يحاول ذلك الرجل الساذج تقبيل إحدى معشوقاته البدينات ونصرخ محتجين مستزيدين كلما انتهت حصة العرض التي تدوم ربع ساعة فكانوا يضطرون إلى طردنا ومطاردتنا بالعصا. ولكننا نعود فندخل من جديد ولكن مع دفع الثمن هذه المرة، ندفعه من النقود التي استلبناها من النساء أو طلبناها من الفلاحين السذج الذين لم يكونوا كرماء إنما تجاوزتهم الأحداث وذهلوا لما كنا نروي لهم من خرافات لا تعقل. ونادراً ما كنا نتمكن من الانسلال إلى حفلات الموسيقى الشرقية فنصرخ صرخة الوجد والغرام كلما رفعت إحدى الراقصات السمينات الشمطاوات فستانها إلى فوق، فتركتنا حالمين ضائعين تائهين في التخمين في مسألة الجنس وبخصوص فرجها الذي يكاد يكون مكوراً كالبطن والذي كنا نجهل وظيفته الجنونية. بيد أننا كنا في الخارج نخشى على كل حال المتسولين إذ كانوا يجدون في مطاردتنا بسبب منافستنا لهم في مهنتهم لدى الأجانب الوافدين على المدينة. وهناك باعة الياسمين الممشوقين الخاطفين اللاواقعيين. وهناك باعة الشاي سودا مثل الأبنوس الحالك معسولي العبارات والإشارات راقصي الحركات، وباعة

البخور والدوار والقلق أيضاً. لقد كانوا في غرابة أطوارهم يتذكرون سحر المدينة ونزواتها، تلك المدينة التي تغيّر إيقاع الحياة فيها فرجعت إليها هيئة شيطانية حبست نفسها في إطارها طيلة شهر كامل متنكرة لمن عرفوها على هيئة مغايرة، نابذة من لا يجرؤون على حصارها وكانوا باختلاف أنواع لحيهم ومنزلاتهم يذكرون تلك الاحتفالات الليلية التي لا يمكن لأي زنديق أن يتصورها ولو في المنام. لقد كانوا يعرفون أشياء كثيرة فيرهقوننا برغبتهم في إقامة البرهان لنا في منعرج زقاق أظلم أو في قلب الساحة العمومية بأن متعتنا ليست بمتعة حقيقية وبأننا في الواقع لا نفعل شيئاً سوى محاولة سد أدبار الذباب الذي لا يحصى والذي كان يجرح الليل الثخين بطيرانه المختلج بصورة لولبية. لقد كانوا يهزون أكتافهم إنكاراً ويبصقون على الأرض ويتمخطون بين أصابعهم ويلوحون في رياء بإبهاماتهم التي كانت سلامياتها الأولى ملطخة بالحناء ثم كانوا يختفون. فنلحق بهم ونتظاهر بالتعلق والاهتمام بحقدهم وبغضهم طامعين في أكياس نقودهم فكانوا يفتحونها أمامنا بهيئة أقرب إلى الحتمية منها إلى التمثيل المسرحي فكنا نلتقط الدراهم التي تسقط من أكياسهم وننصرف منشرحي الصدر. أما هم فكانوا يستمرون في هز أكتافهم وفي توبيخنا وتعنيفنا ملوحين متخللين الجموع اللاهثة بجوار المواخير. إنهم لم ينسوا يقيناً التخريب والدمار الاستعماريين فلم يكن هذيانهم مبالغاً فيه عمداً البتة بل قل ربما كان مكيفاً تكييفاً ما

فحسب. ولكن لا أحد كان يستمع إليهم لأن تهديدهم كان ينذر بوخيم العواقب. الشعب المحاصر بمقتضيات الحياة اليومية الملحة في الطلب.

وكنا ننصرف فنستعمل دراهم العرافين والمتسولين وقد تحولوا إلى مردة مزبدين مرغين، لمشاهدة السحرة فنترك في الخارج المبشرين وقد جن جنونهم لاحتقارهم للمشعوذين احتقاراً لا يرضون معه على دفع ثمن مكانهم والالتحاق بنا في ظلمة القاعة واغتيالنا في متسع من الوقت وذلك لأن الضوضاء على الركح كانت تبلغ من القوة المصمة للآذان درجة لا يمكن لأي إنسان معها أن يسمع صوت السكين تخترق لحمنا. يا لهم من جبناء أنذال! هم الذين لم يكونوا يجرؤون على نكث عهدهم الذي قطعوه على أنفسهم والقاضي بأن لا يدخلوا أبداً حانوت سحار متحالف مع الشياطين المردة ومع قوى السلطة والنفوذ. فكانوا إذن ينتظروننا في الخارج، ولكننا كنا نعرف كيف نتملص من مطاردتهم فنضللهم خلال الأزقة والمتاهات الملتوية حتى نصل إلى جوار المدينة الأوروبية المتلألئة أنواراً وقد غزاها رجال الشرطة بوجوههم الحمراء المتوهجة فعاثوا فيها فساداً. ولما كانوا يكرهون رائحة الخمر في أفواه الزنادقة فقد كانوا يفضلون العدول عن مطاردتنا والرجوع إلى الحفل والازدحام لمد أيديهم للصدقة. وكانت السهرات تطول إلى ساعة متأخرة جداً من الليل فنغتنم فرصة هذه الإجازة رغم مساومات الكهول الذين كانوا يثقلون كواهلنا بالصيام. فقد

كان في إمساكنا عن الطعام، الذي كنا نغالي فيه ونوصله إلى أقصى حدود الطاقة مبعثاً لهلعهم وكنا نتعمد الانتقام من وقاحة الصائمين بأن نعرض على الجميع مظاهر مرهقة ووجوهاً شاحبة. وكانوا يتوسلون إلينا بالانقطاع عن الصوم ولكننا نصيح ونصرخ: يا للفضيحة! يا للعار! يا للكفر والإلحاد! هل تريدون حملنا على عدم القيام بما أوجب اللّٰه؟ كلا وألف كلا! فكنا بذلك نبقى متحكمين في المساومة والمزايدة مع الإقبال خفية منهم حتى التخمة على لذائذ المأكولات وبقايا المآدب التي كنا نختلسها في آخر لحظة من صندوق الفواضل الذي كان المتسولون يجتمعون عليه في الصباح الباكر. فكانوا إذ يجدونه فارغاً مما يشتهون يتنغصون لذلك ويظنون أن في الأمر خدعة أو أن سي زبير قد أفلس فيجعله ذلك في نظرهم وفي الحين فاقداً لكل عصمة. وكان سلوكنا يتأثر بهذا الصوم الكاذب العنيف في آن. فقد كنا نمنح حق السهر إلى ساعة متأخرة من الليل وذلك لأن رأس العشيرة كان يغلق الباب على نفسه في «فيلته» ولا يبارحها بالليل أبداً. هل كان معنى ذلك أن الوالد قد تاب ورجع إلى اللّٰه؟ أجل ولكن توبته تلك كانت تدوم شهراً واحداً فقط. أي ما يكفي من الوقت فحسب لإعطاء اللّٰه حقه ولتمل نفسه زوجته الجديدة. أما بعد انقضاء الشهر فيستأنف قيلولاته الفاسقة المستهترة مع عشيقاته الأخريات.

إلى جانب الاحتفالات كان هناك بقية الأمور الأخرى،

مثل غزو النساء وسيطرتهن طوال النهار على دار الأسرة وقد حكم عليهن بإرضاء شهوات الرجال الغذائية. فكنا نطارد على سبيل اللعب واللهو النساء اللائي كن يأكلن خفية في شهر الصيام حتى إذا ما رأيننا ارتعدت فرائصهن خجلاً وارتباكاً. أهو الحيض؟ لا لم تكن هذه الحجة كفيلة بإرضاء حبنا للتشفي والعقاب إذ كنا نحتاج إلى سبب أكثر جدية من ذلك. إلاّ أننا في الحقيقة كنا نخشى معرفة السبب الحقيقي إلى حد أننا كنا نفضل إيقاف اللعبة إيقافاً مفاجئاً عند ذلك الحد، فيتعاظم لذلك يأس النساء الآثمات إذ لم نترك لهن متسعاً من الوقت يستطعن فيه إتمام تفسيرهن لسلوكهن وتقديم الأسباب والأعذار. وأما زاهر فقد كان لا يريد أبداً مشاركتنا في مثل تلك الصبيانيات. كان أكبرنا سناً (ويصرخ قائلاً لي: تريد أن أرسم لك رسماً بيانياً في الموضوع أم ماذا؟) فكنا نسكت عند ذاك ولكننا نشعر من جديد في صلب المؤامرة بذلك اليأس - (وهو إما فطري أو مكتسب اكتسبناه من تعاليم زاهر المحكمة) - نشعر باليأس المتولد عن عدم قدرتنا على فهم تلك الفوضى التي كان دم حيض النساء يثيرها في نفوسنا. فقد كن لا يصمن بسبب الحيض الشهري وكنا نعتقد أنهن بذلك خاسرات خسارة نهائية فكان علينا إذن الفرار منهن. وكانت يما يساورها القلق إذ ترانا نتحمل مسؤولية مثل هذه المظلمة إزاء النساء ونفعل ذلك في مثل هذا المستوى من التنكر. لقد أصبح اتقاء الدم أمراً أساسياً فكنا نرسم في

جميع الأماكن فروجاً متورمة ملطخة بالدم وذلك حتى نضعف من مفعول هذا الوسواس الجنوني الغازي لأنفسنا المحاصر لها (ترى لم كنا نربط بين صورة الدم هذه وبين فكرة الموت المبهمة المفرطة في التجرد إفراطاً يجعلها غير قادرة على النيل منا نيلاً حقيقياً رغم أنها كانت تكتسب شيئاً فشيئاً عنفاً يبلغ منا مبلغاً نبقى معه مكسورين ملتهبين صردين الأسابيع تلو الأسابيع؟) فكانت الدار تصبغ جدرانها بتلك الرسوم فتذهل لذلك النساء وقد شددن إلىٰ قانون التنظيف بالماء شداً. وكان زاهر من جهته يشن عليهن حملات مرعبة ويعرض علينا خطته الرامية إلى التخلص من شر الحيض الذي كان يصرعهن بدون أي سبب ظاهر. فقد كان أخونا الأكبر في الواقع يائساً ومدفوعاً إلى نوع من العمى الفكري. وكان يخيف النساء الحاملات للدم اللائي لم يكن يفهمن انشغالاته إلاّ نصف فهم. وكثيراً ما كان يردد: «إني لم أعد أرى شيئاً» ويصطدم بأثاث البيت وكان عندما تحاول يما أن تشاركه في خطته تلك وأن تأخذ بيده على سبيل اللطف لتوجهه خلال الدار المكتظة بالأشياء والحيوان يصرخ صراخاً عالياً تحتار له يما حيرة جدية. «لا ينبغي أن تمس أنثى يد ذكر قط» هكذا كان يقول لسامعيه.

وكان جو الاحتفال ينحل تدريجياً في شيء من التوتر الجهنمي وذلك بسبب الريبة التي كان أخونا الأكبر يبثها في الجو عمداً فيعوي في وجه إحدى أخواته وهو يتشمم رائحة ذراعيها العاريتين: «رائحتك رائحة الدم والصيام» ويضيف:

«اغربي عن وجهي فأنت الحزن الكدر!» ذلك لأنه يحبها كما كان يقول ولكنه لم يكن قادراً على احتمال موقفها المستسلم لذلك القدر الذي كان يشق النساء من أسافل بطونهن إلى أردافهن، وكانت سعيدة تقول: «إنه مجنون هذا الأخ! أليس يعجبك أن أقبل نفسي كما خلقني اللّه؟» فيتمتم الأخ «زبي، زبي، يا خرا!» لقد كانت تلك هي صورة رد فعله كلما اختلطت عليه الأمور أو كلما أفحم فلم يعد يدري ما يقول. وأما سعيدة فقد كانت تقضي الأيام ثائرة في تيه وجلال تمشي كالعاهل العظيم فتضع قدميها الحافيتين بهدوء الواحدة تلو الأخرى على البلاطات الباردة في الغرف الداخلية وتترفع فتسمو عن مشاجرات نساء الدار الأخريات وتتحدانا قائلة: (ترى هل ينم وجهي على أنني ممن يصومون رمضان؟ يا لكم من تعساء يرثى لحالكم، أنا لا أصوم إذن فدمي لا يسيل) تقول ذلك ناهقة فنطرب ونهتز. وأما زاهر فقد كان واعياً بالخطر الذي يهدده بسبب انجذابنا إلى أختنا انجذاباً لا جدال فيه ونحن أحسن أتباعه، فكان يحاول أن يحول اندهاشنا ويغير مجراه فيطفق يسب الدين بعبارات بذيئة صائحاً في وجه أختنا «يا لك من صفر ومن لا شيء، الأولى والأجدر أن تنظر إلى ذاتك. أما أنا فلي ثديان والحمد لله!..»، كانت حجتها تلك حجة دامغة وما عسى أن يكون رد فعل زاهر عليها. كان يحملق فينا قائلاً: «يا لها من بائسة يرثى لحالها». يقول ذلك ونحن واجمون لا نبدي حراكاً ننتظر رده لكي نحكم الحكم

الفاصل. فيردد: «يرثى لها. إنها لا تفهم أنها مصابة مثل الأخريات تماماً وأن آفتها فظيعة جداً لا سيما أنها لا ترد الفعل. فألا تصوم في رمضان ليس غاية في حد ذاته بل الغاية هي أن تربط فعلاً كهذا بسائر أفعال التمرد». وعند ذاك كنا نسترجع ثقتنا في أخينا الأكبر فقد فاز وانتصر لسبب واحد بسيط وهو أننا لم نفهم شيئاً من خطابه المتشعب العسير. فكنا نصفق تأييداً، ولكن أختنا كانت تبدو لنا خارقة للعادة على كل حال إذ تتصرف باحثة تحت قطعة عتيقة من الأثاث على بعض القرامل تصل بها شعرها الخارق للعادة طولاً وسواداً حاملة لذلك الغضب البنفسجي اللون الذي كانت تعرف كيف تضمخ نفسها به تضميخاً. كانت يقظة منتبهة بالمرصاد على الدوام تناوش العالم المعادي المجاور لها عن طريق جيشان يخافه جميع من أراد أن يطاولها أو يباريها ولكن ترى ما هي الحجة التي خلقتها بصياحها وإرعادها؟ لا حجة البتة. ذلك أن زاهر وإن كان قد حصر مؤقتاً بين أنياب الحجة المتعلقة بالثديين فإننا كنا عالمين علم اليقين بأن أية عملية تطعيمية من شأنها في الواقع أن تسد فيه هذا الفراغ.

وكنا كعادتنا لا نبلغ أبداً حد المشادة العنيفة. ذلك أن زاهر كان يغادر المنزل ويغيب عنه طيلة عدة أيام ثم أنه كان يعود من جديد على حين بغتة يجر معه وجهاً كوجه الصائم وهيئة عتيقة رثة ذات جلال ووقار تضفي عليه باطلاً مظهر الإنسان الذي حمل ما لا طاقة له به. أما نحن فإننا

لم نكن نتجاسر حتى على اتهامه بأنه كان يؤدي فريضة الصيام قصد اتقاء العقاب في حين أننا كنا من التابعين المتسامحين معرضين بذلك أنفسنا في كل آونة إلى الضياع. لا لم نكن نجرؤ على مهاجمة سيدنا بينما كانت سعيدة تلك الآثمة العنيدة تعرف كيف تستغل انتصارها بدون غوغاء ولا تبجح. فكان ذلك يوقع الأخ الأكبر في حالة من الخرور التام إذ كان يظن أنه لم يرجع إلى المنزل إلا لإثارة الخزي والسخرية. ترى ماذا فعل أثناء غيبته؟ كان يقص علينا فيقول إنه قد امتطى القطار (وكان من عادته بالفعل امتطاء القطار) وإنه سافر كذلك على نفقة بعض العملة القبائليين العائدين من فرنسا استحسنوا إشهار محفظة نقودهم وقد اكتظت بالدراهم إلى درجة الانفلاق بغية إثارة طمع بقية المسافرين البؤساء الذين لم يشربوا في حياتهم البيرة قط. وكان زاهر يعرف كيف يتملق كبرياءهم فيختلس منهم بضعة فرنكات يشتري بها وجبة متواضعة طالما طمع فيها إلاّ أنه كان يتهكم أمامنا بهم فينتقد ربطات عنقهم ومعاطفهم الصوفية الغليظة التي كانوا يستمرون في ارتدائها رغم حرارة صيف الجزائر الخانقة، غايتهم بذلك أن يقيموا البرهان الساطع في أعين سكان القرية على اثرائهم رغم ما فيه من مطلق التصنع. وكان هؤلاء العملة في الحقيقة لا يرجعون إلاّ لمدة شهر الصيام فحسب فكان زاهر يمقت فيهم ذلك التزمت إذ كانوا يتحدثون عن البلاد الفرنسية التي رجعوا منها بملء أشداقهم. ترى هل كان زاهر يعترف بأنه

قد واظب على الصيام اضطراراً طيلة تلك الأيام التي قضاها مسافراً على متن القطار؟ لا وإنما كان يوهمنا بذلك مجرد الإيهام بدون أن تبدو على محياه هيئة من عذاب جسده بكبح شهواته. لقد كان متفنناً في فن الإيحاء إلينا بأنه لو استفز القوم لعمل من الأعمال لتعرض إلى الاغتيال في الحال فكنا نهز رؤوسنا علامة على التصديق والإيمان. بيد أنه لم تكن عالقة بذاكرتنا في عقر ضمائرنا الضيقة إلاّ القطارات وقد اندفعت كالصاروخ خلال الحجارة والأعشاب مشوشة مظاهر المدن والتجمعات السكنية مخترقة بخطوطها سلام الشواطئ ووداعة البحيرات الساحلية وكان ذلك يمكننا من التخلص بدون ألم من كل الخيانات والتواطؤات التي كانت لرئيسنا، وقد ارتد فالتحق بصفوف العدو لمدة بضعة أيام ذلك العدو الذي طالما أثبت أمامنا حماقته وتصرفه المضحك. على أن سرده لقصته كان يخلصه من العقبة والحمد لله فكان يسترجع سيادته التي وقع فيها النزاع برهة من الزمن في صلب جماعتنا. وكنا نهتف له ونصفق إذن لا لاعتقادنا بأنه قد قام بمعجزة مشهودة ولكن لاعترافنا بأنه قد أجاد التخلص من الورطة التي وقع فيها وذلك حتى ولو أن تنقلاته خلال البلاد لم تتركنا غير مبالين.

لم تكن «سيلين» ممن يتقنون الانصات إلى الغير ولكنها كانت تعرف كيف تحتفظ باستقامتها الأصلية فلم يكن ليردها عن ذلك شيء حتى ولو كان ذلك الشيء اهتمامها

في الظاهر بقصتي الأخطبوطية التي لم تكن ترى خطرها إذ كانت تحسبني مدعاة للشفقة والرثاء وإنساناً صياحاً زعاقاً في آن. لقد كانت تبتغي وهي مشدودة إلى الكلام الخارج عن شفتي أن تبقيني خارج العالم فتتسبب في خرابي وتحملني على التمتمة والتعتعة. ترى ما عساني فاعل أمام هذا الصمت، بل قل أمام هذه اللامبالاة التي كانت تعينها على تعزيز وحدتها الشخصية وعلى فصلها عن وحدتي أنا؟ لقد كان في الواقع يلذ لها الوقوع في صمت لا رادع له فتظل عبوساً قمطريرة منفصلة عني تمام الانفصال وذلك بالرغم من ذلك الجمود المفجع الذي كانت تفرضه على ناظري وعلى جسمي وقد أصابه الإرهاق بغتة وداخله التغير والانقلاب فجأة. لقد انتهت الهدنة ولم يبق لي إلاَّ اختياران: فإما أن أتمادى في التشبث بقصتي وخرافتي أو أن أسكت فأثير بذلك شجاراً بيني وبينها تكون عواقبه كالعادة غير واضحة المعالم تماماً. كانت مستمرة في عدم التحرك. يا له من جمود خرافي عجيب. ولكن طريقاً ثالثة كان من الممكن أيضاً أن تنفتح أمامي: هي طريق النوم الذي من خلاله كنت سأحاصر الضغائن. وأما هي فقد ردت على صلابتها الجامدة وعنفت فيه استسلامها ومطاوعتها فكانت ترد الفعل فتسيء رده إذا لم يكن في القضية ما يستحق الانقاذ. وعند ذاك كانت تطفق متوسلة إلي أول الأمر لتجعل الحلول السهلة إلى جانبها ثم ما تلبث أن تتنكد فتعود من جديد إلى العداء القامع المكدر،

فلم أكن أستطيع إخراجها منه.. وينتهي الليل في خضم الكوابيس تصيبني فتبهرني وأنا ألاقي بني جنسي ورهطي وقد جاؤوا ليخلصوني من براثن «سيلين» تلك الأجنبية مرتين، مرة بفرجها ومرة بلغتها الأصلية؛ «سيلين» التي كنت أجتهد في الانقطاع عن الحديث إليها مدة أيام (متعللاً بأني نسيت حوادث قصتي) فكان ذلك دأبنا حتى تكل ذراعاي ـ وكنت أستعيض بهما عن النطق بالكلام المقطع ـ عن التحرك والإدلاء بإشارات تعبر عن غضبي وعن عسر إثباتي لذاتي إثباتاً تاماً لدى الحبيبة المستاءة الحردة.

وكنت أستأنف الحديث من جديد فأسعى بثرثرتي لا إلى تكسير الملزمة التي كانت تضغط بها على عضلاتي بل إلى البحث في هياكل الكلمات قصد استخراج ذلك الدوار الضروري للنعاس النهائي، ذلك أنني كنت أشتبك في خضم أشد العلامات اللفظية حدة وخبثاً إلى حد الاتحاد معها والضياع فيها، وقد وبخ أنفاسي كساد حالي وميله إلى الانتقام وصار وجهي في وضع ميؤوس منه ولكن حالتي تلك كلها كانت لا مواظبة فيها بل كنت قد سلمت إلى عالم حركته حركة غريبة وقد سلط علي بدون هوادة وسواس تمثل في صورة ذلك «الكاهن الأكبر» الذي كان ينازعني أحلامي وأوقات استيقاظي الثقيلة الوطأة حين يكون الشك مطلقاً وحين لا يعرف المرء كيف يتردد طويلاً بين الحق والباطل. لقد كان لزاماً علي كل يوم أن أقحم نفسي في الواقع العسير وقد اعتدت جميع المصائب الغامرة

للمدينة، تلك المدينة التي جن فيها جنون عربات الترامفاي الزرقاء فلم تعد تدري رأسها من ذنبها ولعل مرد ذلك كان تلألؤ البحر العجيب الذي كان يبتلع حواجز الميناء مرتين في اليوم الواحد عند مشرق الشمس وعند غروبها. ترى هل كانت تدري أن قصتي قصة وهمية؟ لقد كانت تعرف عن طريق شبه حاسة سادسة أن بي نزعة إلى الولع بالخرافات والأوهام وأن الحياة في منزل سي زبير لم تكن في الواقع على ما لمحت إليه من غرابة مضحكة. أكان من اللازم التأكيد على أن نفاق الصائمين لم يكن إلاَّ وليد خيالي الخصب؟ لا لم تكن «سيلين» تجرؤ على الوصول إلى هذا الحد لأنها كانت بما وصفته من مآكل ومآدب وتفنن في الطبخ العملاقي علمية وكانت كذلك تعرف تفاقم أمراض المعدة وأوبئتها في شهر الصيام، تلك الفترة المقدسة من السنة؛ فرغم اللذة القصوى ورغم هجوم الزبائن على الماخورات المكتظة فإن بورجوازيي المدينة كانوا يشعرون بأنفسهم كأنهم زهاد أو شهداء فكانت تبدو حول أعينهم دوائر سوداء مرعبة تدل على الضنى وكانوا يوحون لمن يستمع إليهم بأنهم كانوا يتألمون شديد الألم الجسدي بسبب إمساكهم عن جميع الشهوات، شهوة البطن وشهوة الفرج لقد كان زاهر متفنناً في فن مباغتة هؤلاء الناس وهم من كبار تجار المدينة فينصب لهم الكمائن في أطراف الأزقة والدروب في حي القصبة حيث كانت توجد معظم دور الخناء، إلاَّ أنه كان يشدد الحراسة عليهم قرب دار

كانت تديرها امرأة فرنسية كانت نساؤها الجديدات المجندات للعمل مشهورات في كامل أصقاع البلاد بخصالهن عند اللذة الجنسية القصوى. وكانت تلك الدار أيضاً المحل الذي كانت القحبات فيه يتركن زبائنهن يقبلونهن على أفواههن، فكانت الأسعار جد مرتفعة. كانت تلك الدار يتردد عليها نخبة من الأعيان كان يطيب لهم المكوث بها لقضاء ليالي رمضان الطويلة الحارة؛ إلاّ أن زاهر كان ينغص عليهم كل شيء، إذ كان يسكر حتى إذا ما لعبت الخمر برأسه طفق يهجو هجاءً عنيفاً كبار التجار وقد فضح أمرهم فأصبحوا يتعتعون تعتعة ولا يدرون ما يقولون. لقد كان يذهب به الأمر في نهاية المطاف إلى حد استعمال وسيلة المساومة معهم فإما أن يفضحهم وإما أن يعوضوا عن سكوته بدفع ثمن جميع كمية الخمر والكحول التي يطلبها طيلة السهرة.

لقد كانت «سيلين» بجمودها وتصلبها تدخل في نفسي حنقاً عظيماً، لأن تصلب هيئتها يصير في نهاية الأمر مدهشاً غريباً عند انتهاء الليل وقبل مطلع الفجر البارد برداً قارساً لا سيما أنه يبشر بحرارة الصيف وقيظه. لقد كانت في واقع الأمر مفتونة. فتنتها هيئتي وإشاراتي الإيمائية أكثر مما فتنها التنديد الذي كنت أبالغ فيه قصد جعله أشد حدة ووقعاً. لم تكن ترى في إشاراتي المطلقة العنان وفي عيني الجاحظتين إلاّ دنو نوبة من الجنون من شأنها أن تفرق بيني وبينها من جديد. فهل سأرجع إلى المستشفى! لقد كان

جلدي يقشعر وترتعد فرائصي خوفاً من فكرة الرجوع إلى المستشفى ولكني كنت أعلم أن «الأعضاء السريين» كانوا لي بالمرصاد هذه المرة. فكانت عند ذاك تطفق باكية لعلمها أن حياتنا معاً أصبحت لا تطاق. وكنت مع ما بي من حقد وضغينة أتقبل دموعها بصدر رحب ذلك أنها وقد خرجت من انبطاحها وجمود حركاتها كانت تندفع كالصاروخ تبغي تحقيق مطلبها ومبتغاها الأعظم: السعادة!

كانت أمي على علم بالأمر ولم يكن بها لا تمرد ولا خنوع! بل كانت تصمت فلا تدلي بشيء ولا تجرؤ على القول بأنها موافقة على القضية. لم يكن لها حق!.. إنها مرهقة منهوكة القوى. إن قلبها ليتورم ألماً. فكانت تشعر بشيء كأنه نتوء فطري له شكل البصل. الوشمة تقسم الجبهة قسمين فيها الفظاظة والحقد. كان عليها أن تلزم الصمت فأبي لا يسمح بأي قول أو تعبير. ما أتعسك يا أماه! أنت التي لم ترتابي في الأمر ولم يدخلك فيه الشك. فهل أخذت أمي وشايات عجائز المنزل مأخذ الجد؟ إن الخوف كالقضيب قد شق رأسها فغدا لا يخرج منه أي تعبير سوى شيء من الضوضاء الغامضة المبهمة. إن أمي على علم بالأمر. وإن بها لقلق ألكن. كانت تخفف عنها من حمل الألفاظ فترمي بها كما كتب لها ذلك وتنشد الفرار وتبحث عنه في الدوار، ولكن لا يجد جديد. أمام جفنيها نور لاصف ومضيه متناوب تناوباً صيره الشك والحيرة لا يطاق أو يكاد. كانت لا تعرف كيف تحيط

بالواقع فتظل الكلمات كأنها متجمدة في رأسها. إنه ضرب من الفتور المخدر أحسن تشحيمه فصار يخلف عند الاستفاقة من النوم بقعاً من الزيت (أم ترى هل هي من اللعاب؟) إنه الجبن قبل كل شيء الجبن بالخصوص.

إن أمي لواقفة تصارع انجذابها إلى الإغماء. إن مظاهر اللامبالاة لتلصف في الغرفة الباردة والأب مستمر في الأكل ببطء شديد كعادته، وكل شيء في نظره يجري ويستمر في جريانه حسب النظام المحتوم المتوقع. إن الأب ليلذ له ويطيب أن يمضغ ويلوك اللحمة في إيقاع منتظم وهو يستثير الذباب وقد وقع في الفخ فطفق ينحدر بدون روية على جانب قطعة من البطيخ المصفر، وها هي يما تنظر إلى ذبابة تتعثر إذ تصطدم بعصارة البطيخ الثخينة وقد سالت على جوانب الصحن. الذبابة تنهمك في قضاء حاجتها وتعطف يما على هذا الاجتهاد وهذه الحركة التي لا طائل من ورائها. الذبابة توشك على الهلاك. وأمي بصدرها الفخم الممتلئ وعينيها اللطيفتين جداً لا تتحرك. وها هو ذا الارتياع المفاجئ ينتاب يما أمام موت الذبابة المحتوم. وتشعر يما بشعور عابر هو شعور السهولة واليسر ـ كأنه الشيء يكون في متناول يدها توشك أن تلمسه ولكن الوهم سريع لا يدوم إلاَّ قليلاً. أهي الوحدة! لا بل أحسن من ذلك إنه الضيق. ربما الوشم هو الذي يضيق عليها صدرها! إنها تشعر بنفسها كأنها مبقورة، إنها تتعلل بالنظر إلى رجليها العاريتين تعوض بذلك عدم الحركة؟ ولكنها لا

تجرؤ على النظر إلى الجليز الباهر. الغرفة عظيمة شاسعة. سي زبير مستمر في الأكل. المائدة قصيرة والآنية من نحاس براق. والجو شبه ظلمة كثيفة. وبخار الأطعمة الساخنة يبقع الكؤوس عرقاً. يما تتردد. إنه الضيق، ضيق النفس من فرط بساطة الكلمات التي ستتفوه بها. إنها لا تعرف كيف تعقد العزم. ثم هذه الأوهام والخيالات! ينبغي عليها بالخصوص ألاّ تأتي بما قد يكون فيه وقاحة من الوقاحات لكي لا تنفر الآباء والأجداد. أهو الصمت إذن؟ إن الألفاظ والكلمات لتتكون ثم تتلاشى وتتهافت في حلقها الجاف المتهلف، فتفضل يما رفع آنية الطعام عن المائدة. وزوجها لا ينبس ببنت شفة، ذلك أن تخيل الأسنان عملية فنية أكثر مما هي لذة من اللذات.

(وفي المدينة يتجول الناس هائمين على وجوههم فيبصقون في فروج القحاب لتبريدها. الحرارة!... إن للرجال جميع الحقوق ومن بينها حق تطليق نسائهم. الذباب مستمر في تسلق جوانب الكؤوس التي غشاها البخار فيغرق فيها. ليس ثمة أية نشوة من نشوات السكر. إن أمي لا تحسن القراءة ولا الكتابة. ذلك هو الجمود وتلك هي الالتواءات في الدماغ. إن أمي وحيدة وجهاً لوجه أمام مؤامرة الذكر وقد تحالف مع الذباب ومع اللّه).

ما أشد شبقية قيلولات ضفاف البحر الأبيض المتوسط!

حينما ينتهي الأب من تناول الطعام تنتظر يما أمراً منه، ثم ها هي ذي تخلع ثيابها في صمت وسكون وبطء

شديد مثلها كمثل الماشي إلى المشنقة. إن جسمها لثقيل صيرته القيلولة أثقل وأثقل. كانت في الثلاثين. وها هو سي زبير يداعب بيده بصورة عابرة عانتها المرداء ككف اليد وأما هي فترفض وهب نفسها له وتتركه يفعل. إنه التشتت تشتت حواس الشهوة على سرير ملطخ باللون الأصفر الأمغر. فهل كان ذلك تسفلاً؟ أم ارتعادة عضلية مبتذلة؟ إن عملية التواصل الجسدي البديهية أو تكاد أصبحت مسفسفة. ها هي ذي يما قد أخذت ولو تمّ لها ما تريد لكانت تصيح وتولول لذة واهتياجاً ولكن كل ما حصل هو زفرة من زفرات الاستلذاذ والراحة أفلتت من فم أبي. ها هو ذا اللحم يتراكم. وها هو شيء من المني في فخذ يما شاهد على العملية التجشئية، وها هي يما وقد أخذها شيء من البلاهة المزيتة تخاطر فتغفو غفوة ذلك أنه عليها الآن أن تلبس ثيابها وتغادر الغرفة. وأما الأب فقد استسلم إلى النوم.

إنها القيلولة، الرجال نائمون ويما على شافة الثورة. والأطفال يتهامسون والهواء دبق. العرق!... وصدور النساء لتسيل سيلاً. وأما خارج المنزل فإن الثياب المغسولة ما زالت منشورة لتجف. وأما الطلاق فقد أصبح أمراً محتوماً، ذلك ما قرره أبي. إن فكرة الموت آخذة في الاختمار في رأس يما ولكن احتضار الذباب في عصارة البطيخ ذكرتها بشناعة الموت. الثورة! والقط يمر يبصبص بذنبه. إنه يريد الجماع. وتغطي يما فخذيها الأبيضين

بأسافل تنورتها. إنه شعور يخلف برودة غير واضحة في أطراف الأظفار. إن سي زبير ليعلم بأن اللّه معه ولذلك فقد لفظ بالجملة التي تتلخص فيها رغبته في التزوج بامرأة ثانية بكل هدوء وسكينة. وأما يما فليس معها شيء. إن إلاهها هي إلّه بين بين، يرضى بالعدالة الهامشية! وهكذا فقد قضي الأمر. يما لم يخدعها الأمر وهي تعرف أن عليها التمسك بالكرامة والتعود على فكرة الفراق والهجر... الرجال عند انتهاء القيلولة يغتسلون وينتفضون ويتنخمون بدون احتراز وأما الإناث فتختلجن حولهم اختلاجاً لسعادة أزواجهن المتقطرة ماء وأما يما فهي رغم تطليقها منذ زمن قريب ما زالت تهتم براحة سي زبير.

عند انتهاء القيلولة تتنحى الشمس عن موقعها غير القار على زاوية السطح الباهتة اللون ذلك السطح المقشر تقشيراً وتخر ثقيلة في صحن الدار المترامي الأطراف. المرمر أبيض ناصع. دوار القطط المتخنثة المفضلة للزرابي الغليظة ولأحضان النساء. الحوض يسيل من نافورته ماء سخنته آلاف التخطيطات الشمسية والأبواب مصبوغة بالأخضر والحديد المصنوع لتسييج النساء وراء قضبانه وهن متعلقات بالشبابيك التي كل منطلقات النظر منا مآلها الفشل. والمرمر الملتهب الباهر للأبصار. والبلاط الأحمر المخطط بانعكاسات ضوء الشمس مثل الجبهة المعذبة والرخام المحرق الذي متى ذهبت الشمس مكن النساء من الإغراق في اللذة والارتياح وأفخاذ النساء وقد غزاها البرد.

والاغتلام المستتر الخفي. إن القائلة لمستعرة استعاراً يجفف حبات البطيخ في لمح البصر. وصبر النساء كبير اللائي يجتهدن في تقشيرها فيأكلن لبها الأبيض التافه الطعم. وفي نهاية النهار ينذر الطقس بدرجة من الحرارة تبلغ حداً لا تكفي معه ملايين السطول المملوءة ماءً بارداً إلى أعاليها من إطفاء جميع الحروق وجميع ما في المرمر من صهبات.

إن أبي في الأصل إنما هو نقطة إنطلاق. فما أن يخرج متوجهاً إلى الحانوت حتى تستأنف النساء ثرثرتهن المزقزقة أشد ما تكون الزقزقة فتأسف عند ذاك القطط على انقطاع الصمت الذي يخيم في العادة على القائلات. ويستفز الأطفال أمهاتهم ويندفعون إلى الشارع وهو المكان المحظور عليهن ولوجه حظراً مطلقاً ويسيل الماء أيما سيلان ويعود النساء فينظفن من جديد ما صقلنه في الصبيحة. يا له من اشتغال لا طائل تحته وليس يصلح إلاّ للتخفيف عن أجساد العذارى السجينات من وطأة أكال الشهوة الوبائي. إنها السآمة تنزل كبباً كبيرة. إنه التوتر، توتر الأعصاب فتشحد المواقف والأحداث المخالفة للمألوف وتتكاثر فيوض الخواطر والأشياء ويسمع للماء شخير وخرخرة كريهة داخل أنابيب سيلان المياه القذرة. وتتقاطر الفروج عرقاً فتفوح لذلك في الجو منها رائحة أشد قوة. إنها الأعمال اليومية. إنه نفاد الصبر العارم ولكن لا شيء يجد. فترى اللعاب يثخن في أفواه النساء. إنها حمى

الأبهة التي في الجو فينقلب كل شيء ويصبح استحضاراً لذكرى الشهوة الجسدية فلا يخفي ذلك أحد لأن الضياء يترك القوم خافقين. إنه الاختلاط والتمازج المريب المبلل بالماء المنتضخ الفاتر مثل الصاروخ ماكراً خبيثاً، مثله كمثل اللسان: لحمة خضراء متعفنة. إنها السياط. النساء يغسلن. النساء يكنسن. النساء يتصايحن ويتشاجرن. ثم على حين بغتة ترى الحركة تفقد من سرعتها فتصبح حركة ملحة مخترقة للأعماق (إن هي إلاّ توطئة للجماع) وأخيراً يأتي التهيؤ بالنسبة إلى النساء فيغتسلن وينقين ويحلقن شعر عاناتهن ويتبادلن النكت والملح بشأن ما ينتظرهن في فراش أزواجهن ويتناجين بالمغريات» لإثارة الحسد والجشع في قلوب العذارى الصامتات الواقفات من ذلك موقف الاستنكار والسخط.

الاحتفال. الطقوس. لقد شاركت أمي في الاحتفال التقليدي فلم تعد تشعر بالخوف من ذلك. كانت الألفاظ تلامس صفحة قشرة دماغها ثم تفلت منها كما جاءت مثلها في ذلك مثل الفقاقيع الهوائية الخاوية. لا ثورة! ولا تفكير! إن ضرب الحصار عليها كان أمراً لازماً محتوماً سيدوم مدى الحياة. إنه حبس سيقدم قدوة حسنة للأرامل المحبلات وللمطلقات الثائرات على العرف والانضباط. إن يما كانت تعرف أن شرف العائلة متوقف على ذلك. ثلاثون سنة، لقد آن الأوان لكي تنهي حياتها تلك، حياة امرأة يزورها الذكر الجامح زيارة زوجية في سكينة ووقار، ذلك

الذكر الذي كان يرضي أيضاً شهوة عشيقتين أو ثلاث كانت إحداهن فرنسية لم تأت لتلك البلاد إلاَّ لغاية واحدة هي التثبت من قوة رجال البلدان الحارة على الجماع وتعاطي الجنس. أمي! إن هي إلاَّ الوحدة والعزلة! بل هي إن هي إلاَّ الانغلاق والانكماش أتعس من انغلاق المحارة على نفسها. إن هي إلاَّ فرج بور. في سن الثلاثين ستتوقف حياتها مثلها كمثل عربة الترامفاي البطيء الضيق الأنفاس يبتغي محاكاة الحمار. وأما الملاذ الأخير فهو في إرادة اللَّه. إن على اللَّه أن يثني سي زبير عن عزمه وإلاَّ فإن السحرة سيجن جنونهم وستغزو المنزل عصابة المشعوذين. وجاء أول قرار بعد الوجوم والانذهال. إن سي زبير كان يعتمد في تطليق يما على حقه الشرعي في ذلك وعلى الدين. وأما زوجته فكانت متوكلة من جهتها على التعاويذ السحرية المجردة. لقد كانت كالطفل. أجل طفلاً كانت، لا تستطيع السيطرة على الأمور إلاَّ بواسطة شيء آخر خارق للعادة: هو التمائم والحجب.

يا لوحدة أمي! لقد كانت تعيش في ظلام قلبها البارد برده ذلك الإعلان المطلق بالطلاق ومع ذلك فقد كانت ستمرة في الاعتناء بشؤوننا. إنه الخليط، خليط التمزيقات لمتغضنة. إنه الفرج المقطب ومع ذلك يا للطافة! لقد كانت الأخاديد تحفرها الدموع فتغور في وجهها عمقاً. كنا نشهد إصابتها النهائية مدهوشين مذهولين. وفي الواقع م نكن نفهم من الأمر شيئاً. لم تكن يما تحسن لا القراءة

ولا الكتابة. لقد كانت تشعر في قرارة نفسها بحدوث شيء انفلق له إطار مصيبتها الشخصية فلطخ بشظاياه جميع النساء الأخريات من المطلقات بالفعل والمطلقات بالقوة أولئك المطرودات الأبديات المتأرجحات جيئة وذهاباً بين أزواجهن المتقلبين وآبائهن الغاضبين لاختلال طمأنينتهم ولترددهم في طريقة معاملة بناتهم تلك الطرود الضخمة المضايقة. ولكن القيم كانت تفرض التضحيات فكان القوم موافقين جميعاً على تحمل التضحيات حتى النهاية كل القوم من نساء ـ وكن إلى ذلك سباقات وأشد اندفاعاً وحماساً ـ ومن رجال وقضاة وتجار كبار. وعند ذلك كانت يما تستعيد مكانها من التقاليد الزاحفة وتدخل من جديد في إطار النظام وأبعاده ولذلك كانت الجماعة تسترجع أنفاسها وتتلو القرآن بصوت الظافرين. وأما الشعب فقد كان يهتف لذلك، يصفق ويدخر لنفسه أياماً حافلة.

إذن فقد كانت يما طالقاً، فكثر الجولان الحانق الضاري خلال المنزل وبدأت عملية المسخ فثقلت وطأتها... ربما كانت يما تحلم بالفراشات الموشوشة وبالوميض الإشعاعي الثاقب. لقد كانت القطيعة مع الأب قطيعة تامة فلم يعد يأوي إلى المنزل البتة. وانقلبت الأمور رأساً على عقب وتغيرت الأشياء فآلت إلى الغرابة وعدم المطابقة. لقد كان الدم ينبض في أطراف أصابعها، لقد كان نزول البيضات في رحمها كل شهر مآله الانفلاق انفلاقاً يرثى له مثل تلك الفقاقيع الضفدعية التي على تلك

النيلوفرات المتخذة من الكاغذ والتي كنا نرجع بها من الحفلات الخيرية المنظمة بالمدارس الفرنسية. وأما سي زبير فقد كان يفكر بعد في التزوج بامرأة ثانية. يا له من لهاث مدوخ ناتج عن الأصداء الخافتة المخنوقة. كم من ليلة ينبغي قضاؤها مع الوحدة والعزلة! وكانت خالاتي وعماتي يترصدْنَ أمي ويراقبنها وكن لكثرة مجامعة أزواجهن لهن يرسلن الزفرات تلو الزفرات وهن يتقلبن على فراشهن تعبيراً عن الشعور باللذة وتفنناً في الإيحاء إلى أمي بكثرة ما يحدث لهن من متعة جنسية. يا لهن من وغدات! لقد كنت أرى يما وهي تعض على شفتيها ألماً وجسمها يتلوى شهوة، كانت صامتة لا تقول شيئاً. وأما أنا فقد كنت أتظاهر بالنوم في ظلام الغرفة وقد عوضت أبي منذ أن هجر المنزل فأخذت مكانه في الخدر الشاسع. لقد كنت في العاشرة من عمري وكنت أعي من الأشياء وأفهم من الأمور الشيء العظيم.

تكاثر الأوغاد في المدينة ولكن لا أحد يعتني بهذا الداء الذي كان يدمر نساءها. لقد كانت الإحصائيات الخاصة بالطلاق تتعاظم تعاظماً جنونياً فتصبح كارثة لشدة تفاقم الآفة. إن أمي لهي من عداد النساء اللائي بدون رجال. إنه الشعور الذي يشعر المرء فيه كأن الأرض ستتوقف عن الدوران طيلة لحظة زمنية تخرج فيها زفرة الأنعاظ، ولكن الأرض تستمر في الدوران فيخال المرء نفسه في المنام. المدينة ساكنة هادئة والحالة في استقرار.

أعقاب السجاير متراكمة تغشي أكداسها الشوارع المنتهية عند البحر. ولم يكن هناك في بعض أحياء المدينة إلاَّ جماعات من الرجال يتجولون بدون غاية ويبصقون في مناديل مخاطهم إذا أرادوا أن يظهروا للناس أنهم متمدنون ويمتطون الترامفايات وهي تسير ويسكرون في الأحياء الصقلية ويطلقون على نسائهم أسماء بعض القحاب، وذلك قصد التفنن في الاستمتاع واللذة الشهوانية. الأرض مستمرة في دورانها والدار الضخمة كائنة في حي تجاري اسمه «باب الجديد» حيث كان للأب متجر يتاجر فيه بالصادرات والواردات. والمقاهي مكتظة بأهلها إلى حد الانفلاق. إن في كل فنجان قهوة لنفياً للمرأة. والمستهلكون يصاحبهم أطفالهم تبدو على محياهم هيئة الحزم والعزم من يعلم علم اليقين أن تعويض الآباء أمر آت لا ريب فيه ويتمثل في شيء واحد هو امتلاك الإناث والحفاظ عليهن.

(الاضطرابات! وبول السلحفاة وليالي الصيف.).

إن الوحدة ـ وهي أتعس من تعاطف النساء المقهقهات وهن يجتهدن أشد الاجتهاد للنظر إلى فروجهن في المرآة للتثبت والتحقق من عدم بقاء أية شعرة زائدة ـ إن الوحدة تضطر يما إلى النزول إلى صحن الدار في الوقت الذي ينبغي فيه الحذر من أريج الياسمين. النساء يتظاهرن بتناقل الشائعات وأقاويل الناس ولكن الحقيقة هي أن نسيم المساء هو الذي يستهويهن، يجتذبهن لأن الاختناق يتعاظم والخوف يعضهن بكلاليبه. يا لهن من إناث مترددات

يتبارين في المهارة والتفنن للاحتفاظ بأزواجهن وما زلن يقبلن أيديهم احتراماً وتبجيلاً. إن فراشهن صلب يابس بسبب التمائم والحجب السحرية التي يخفينها فيها. يا للأوهام! وتحتفظ يما بهيئة الاحتشام والتكتم ولكنها في واقع الأمر تريد خلق الفضيحة بأن تخلع ثيابها فتغسل ثدييها بماء البئر المثلج. حافة البئر... السلاحف في غفوتها المتناعسة بجانب شجرة الموز العاقر. وتفضل يما اجتناب انتهاك الحرمات المقدسة فلا تتحرك من مكانها في نهاية الأمر. يا لها من سلاحف مقدسة تسد طريق العبور إلى البئر ويا لخوف يما من مضايقتها وإزعاجها!

لقد كانت تجيء أيام تبدو فيها يما متعبة سائمة حتى أنها تتركنا وشأننا فلا تعتني بقضايانا وحكاياتنا الصبيانية. إنه انقطاع الحيض قبل الأوان! لقد كانت في شجار مع اللّه ولكنها كانت تسمح لسي زبير بركوب البقرات الجامحة كانت على علم بوجود عشيقاته ولكنها كانت تعتبر خيانة الرجل لزوجته أمراً طبيعياً ولم يكن ليخطر لها على بال، ولو لحظة واحدة من الزمن، أن عكس القضية أمر ممكن أيضاً فكانت في الأثناء تفقد كل يوم نصيباً من لطفها ومن ثباتها على صبرها واحتمالها. لقد كانت امرأة طالقاً ومع ذلك فهي ما زالت تحت سلطة الأب المادية والمعنوية ذلك أن المرأة لا تكون راشدة البتة. لم تكن يما تغادر المنزل إلاّ في النادر وذلك لزيارة بعض الصديقات أو للذهاب إلى الحمام عند انتهاء الحيض، وكانت كلما نوت الخروج

استأذنت أبي في ذلك فلم يكن يأذن لها بذلك إلاَّ بحساب وتقتير. لقد كانت يما تشعر بشديد المذلة والهوان لتدخل سي زبيّر في حياتها الخاصة وكان الشيخ المحترم ينتصر هكذا انتصاراً تاماً. وبعد طلاق زوجته ووضعها أمام أمر مقضي هو وجوب سلطته الدائمة عليها كان يضعنا في نفس الوقت نحن أبناءه في وضع لا طاقة لنا به. فيقيم بيننا وبينه حاجزاً من العداوة كان يتفنن في تدعيمه كل يوم فكان يصيبنا من ذلك فزع وفرق شديدان فنهرع ونهوي في ذلك الصراع العنيد الذي كانت قواعد اللعب فيه لا تكشف أبداً: صراع البحث عن الأبوة الضائعة.

ـ وكان هذا هو بداية الكابوس... فقالت: حدث، حدث.

كان اليوم يوم أحد. وقد انصرفت النساء إلى إحدى حفلات الزفاف مصحوبات بمواليدهن الذين لا يحصي عددهم إلاَّ اللّه وبقيت أنا بالمنزل أتشمس متكاسلاً كالوزعة في صحن الدار الكبير الخالي المقفر، وقل ما كان يخلو ويقفر. بقيت أتشمس باحثاً عن بعض النقائض والعكسيات. ها أنا أصيح في وجه القط، أوبخه وهو يحاول إثارة غضب السلحفاة الأنثى وهي تجتهد في وضع بيضتها في ألم شديد. وأملأ نفسي بهذه الوداعة المؤقتة. الشمس! وابتذال يوم من أيام الآحاد الجزائرية! لقد كنت منذ وقتها محتار البال قلق النفس بسبب موت السلحفاة الكبرى المقبل، تلك السلحفاة التي كانت أمي تتفنن في الاعتناء بها والسهر على راحتها. ترى من حبلها سلحفاة يما؟ أظن أنه كلب الجيران، ولذا ينبغي أن أحفظ له في نفسي الحقد والضغينة. ألم يكن من عادته أن يسل ايره الأحمر من غمده وسط النسوة فيطلقن صيحات هي الهيستيريا والجنون المحض؟ لقد كان أخي الأكبر منذ البداية قلق النفس أمام

الصداقة التي نشأت بين السلحفاة والكلب فأثار في نفسي الشكوك وأدخل فيها ريبة مريعة. الصمت! لقد نصلت علي سآمة النساء فصرت غير راغب في الخروج للتنزه في شوارع المدينة المقسمة بحماقة إلى ثلاثة أقسام: المدينة العربية والمدينة اليهودية والمدينة الأوروبية. إنها الهياكل المنغلقة على نفسها ترتع فيها العنصرية الظاهرة والخفية. فها أنذا إذن أقضي فترات ما بعد الظهر متنقلاً من غرفة إلى غرفة منجذباً مفتوناً تجذبني ملابس النساء فكنت أتفنن في اشتمامها بدون ضجر ولا سآمة. كنت في الثالثة عشرة وإذ تهيج مشاعري رائحة ملابسهن العنيدة كنت أجتهد في البحث فأفتش في عقر غرف الغسيل عن تبابين بنات أعمامي وقد دسسنها وراء أكياس الكسكس الذي جففوه وأدخلوه إلى مكانه قبل أمطار الخريف فكنت إذا عثرت عليها أجدها ملوثة في مكان الفرج منها بتلطيخة صفراء يكفي تصورها بذاكرتي لكي انعظ انعاظاً فكانت أول عمليات الاستمناء باليد أقوم بها في صحن الدار الكبير المتوهج بأشعة الشمس حيث كنت أذهب باحثاً عن التذاذاتي الأولى وعن شعور بالحدة اللاذعة اللازم لوحدتي. يا له من صداع! لم يكن ذلك الابتهاج ليدوم إلاَّ قليلاً كنت أجعل من الألغاظ نظاماً مغلقاً غايته بتر نفسي فكان ذلك يبلغ حداً كنت أقرن معه ـ وأنا متكالب على الخلط بين الأشياء ـ بين ألم البدن الناتج عن تعب العضو وبين القطيعة النهائية بيني وبين الوالد. ولم يكن لينتج عن

ذلك أي تغيير ولا تحوير. فقد كنت استأنف الوحدة من حيث تركتها. الأرض مثقوبة، ثقبتها رماح الشمس. والأسنان أسناني سخيفة والحقد والشراسة في نفسي! كنت أجر أذيالي!... فأعود لزيارة الغرف مرة ثانية الواحدة بعد الأخرى وأطيل المكوث في غرفة أمي وكنت أمام البقعة الملطخة بسروالها أتردد في استنشاق رائحة ملابسها. ولكن حاجتي إلى العطف والحنان كانت تثقل نفسي فكنت أمكت مركوزاً جامداً الساعات الطوال لا حول لي على فعل أي شيء ولا قوة. يا لساعة معاشرتي لعالم الكهول حيث كنت أدخل محطماً بابه بالعنف مكسراً مزاليج جميع الغرف الموصودة بالمفتاح حتى إذا ما مالت الشمس للغروب كنت أصعد إلى سطح الدار باحثاً عن تلك الدويبات الفاترة الحرارة التي كانت تسخن قرون استشعارها وقد بهرتها شمس الغروب الفاخر النازل ملطخاً بطبقات من النور ذات اللون الذهبي الأدكن؟ لقد كانت تلك الساعة ساعة دخول السلحفاة المسنة حالة الاحتضار فتبدو حائرة مترددة بين الإعجاب ببيضتها التي وضعتها وبين الموت القادم تافهاً في الجملة. وكانت تلك الساعة أيضاً هي الساعة القاضية التي كنت أدخل فيها مطبخنا العريض فأحكم بالإعدام تحت حوض غسل الآنية على عدد من البزاقات الشنيعة المنظر الوردية اللون المتلبدة حول أنابيب سيلان الماء. لقد كنت أشعر بالقيء يذرعني بمجرد ملامستي إياها وكنت أجد في تلك الفعلة ما وجدته في عملية القطيعة مع الوالد التي كانت تبعث في بيضتي آلاماً لا تطاق.

يا لتشعب الأشياء وتداخلها! لقد كنت أسبح إذ ذاك في عالم مذاب كان يضطرني إلى خلق كلمات لاستعمالي الخاص كانت صبغتها المجردة المفرطة تتركني أخفق خفقاناً. كنت أقضي ساعات كاملة في اللعب وفي الخبط خبط عشواء وفي رؤيا الكوابيس الحادة الشنيعة.. وبعد التعب كان الخوف ينتابني. من ذلك بالخصوص بروز خيال كرسي كان منصوباً دائماً في نفس المكان بروزاً مفاجئاً بدون أن أشعر بقدومه. فكان ذلك الكرسي يتصور صوراً مختلفة مريعة كانت تضفي على هذياني وجنوني قوة لم يسبق لها مثيل فكنت ارتجي رجوع النساء، مثلي في ذلك كمثل الفزاعة تسأم الانتصاب في قلب الحقل. لقد كنت وأنا مركوز وسط صحن الدار آخذ في عد النجوم متظاهراً بالغلط في حسابها... يا له من حقد ومقت!... لقد كانت دقات قلبي تنبض من القلق وعدم الاحتمال وكان الصمت يطول ويطول فلا يريد الانقطاع وعندما كان خيال الكرسي يمحي وقد ابتلعه الليل النهم كانت فكرة الخيال تبقى في نفسي مثل الأثر الضبابي في رأسي، رأس طفل صغير مريض خليع كان منذ ذاك الحين قد استعد إلى اقتراف عملية إرهابية ضد ذلك الأب الصفر الذي كان يقبل خده الأحرش البارد كل صباح قبل الذهاب إلى المدرسة. لقد كانت الساعة مواتية للمكائد الصبيانية ولكن قدوم النساء على حين بغتة كان يجعل جميع الخطط المنظمة تصبح غامضة في ذهني فلا يبقى منها إلاّ إصرار متعنت مبني على

انخداع أجوف. كانت النساء وقد رجعن من حفل الزفاف يبعثن الفوضى في رأسي وفي الغرف. وكنت وقد أضناني شم رائحة الملابس، شم من يعبدها وانتظار عودة النساء ومخططاتي لاقتناص الأب وإيقاعه في الفخ، انسحب خفية وقد أخذ مني القلق مأخذاً عظيماً أمام هذه الصورة وهذه الرغبات المتداخلة المتشابكة العالقة بجلدة دماغي. وكنت أذهب في نهاية الأمر إلى غرفتي بدون التثبت في صحة موت السلحفاة ذلك أن اليقين كان يستقر في نفسي مع هبوب نسيم الغروب فلا سبيل إلى الغلط. إن الساعة كانت ساعة الاحتضار.

كان جيشان نفوس خالاتي وقد احتفظت أجسامهن بروائح حفلة الزفاف لا يدوم إلاّ وقتاً قصيراً. التاسعة ليلاً. صوت المؤذن. وها هم أعمامي يعودون إلى المنزل محملي الأيدي بالمشتريات وقد ضاقت أعينهم من جراء تعاملهم التجاري المزيف تعامل الفلاحين قد أثروا حديثاً فنزلوا في المدينة منذ عهد قريب. وفي الحين يخيم الصمت على الإناث القائقات. فكان الرجال يتكلمون بأصوات عالية ويصدرون أوامرهم القطعية. أما النساء فيتهامسن ويسمعن فيطعن ويمتثلن. وها هو ذا العشاء يتقاطر دسماً. المرق يسيل على ذقون أعمامي المشوشة الحلاقة وهم يأكلون ببطء كبير وقد تربعوا حول موائد قصيرة من الأرض مبردين مؤخراتهم على المرمر المثلج. إن أعمامي لمتعاظمون، لقد كانوا يلقون في جماعة النساء ـ وكما لو كان ذلك عن

غير قصد ـ بأرقام نقدية ومشاريع مختلفة ويتذاكرون أسماء المدن التي ينوون زيارتها ولكنهم لا ينبسون ببنت شفة عن موضوع مواخير نفس تلك المدن، تلك المواخير التي سيرفعون عقيرتهم بمدحها والثناء على خصالها بعد حين عندما يجلسون بالمقهى وقد أحاط بهم جماعة الزبائن المتلهفين لسماع التفاصيل والجزئيات المثيرة. لقد أضاعت النساء وقتها ألسنتهن ولكن صمتهن كان يحمل في طياته إعجابهن بالرجال إعجاباً يبلغ من اللزاجة حداً يجعلني أتقزز منهن فلا يسعني إلاَّ أن أزداد بغضاً لهن ونفوراً. فكنت أمتنع عن الأكل مفضلاً الإستماع إلى حديث الأعمام وهم مستمرون في إثارة إعجاب زوجاتهن المسكينات وفي ادهاشهن. فكن بذلك لا يستطعن مواصلة الصمت فيطفقن في القوقأة والهويل مزقزقات بعبارات «الحمد للّه وأدام اللّه علينا الخير والنعيم». لقد كن على وشك الانقضاض على أزواجهن لمداعبة قضبانهم في مرح ومجون ولكن لم يكن ثمة أية خصوصية في الخيال ولا أي وله! بل هي الأسنان تلصف في سماكة شبه ظلمة ليلة باردة من ليالي الصيف. الفكوك والأشداق تتحرك في إيقاع متقطع في وحدة والتئام. الإسهال يسيل من خالاتي في ضيق وتكلف. لقد كان الأمر يبلغ بي إلى أن ألوم النساء على جبنهن ولكن الشيء الذي كان يبعث في نفسي التعاسة الكبرى كان موقف أمي الغامض والمنقنق في آن وهي تتخبط في غزارة تناقضاتها لا تدري أي بغض تبغض. وتقرر فجأة لكي لا

تزل بها القدم أن تخضع خضوعاً تاماً إلى الأعمام الهائجين الجامحين. إن الأسرة بأموالها العتيدة وببطونها الضخمة كانت تبتلع وتزدرد فتسيل عليها رفاهية الوفرة لبنية لزجة دسمة حريفة تبلغ من الحرافة حداً يغمر معه العرق جبين أولئك المتناولين لطعام العشاء. القلق! القلق العظيم!.

وإذ أردنا اجتناب الاستماع إلى ضريطهم وهم في المرحاض ووصفهم بعد ذلك لبواسيرهم وصفاً مدققاً يتناول جميع التفاصيل وجب علينا أن نغادر الدار بعد حين أو أن نذهب فنلجأ إلى أبعد الغرف عن مكان بيت الراحة...

إن الفضاء في واقع الأمر كان ينغلق عليَّ فيخنقني ولم يكن لي الدوار اللازم للدهشة. وفي الحقيقة أصبحت غير قادر على الضحك ولا على الجري لأن الجري معناه الموت. وصرت لا أخشى الحسرة فكنت ألتزم إذ ذاك بحدود كان طلاق أمي يزيد في ضيقها وصبغتها الإلزامية. لقد كان تبرج الأسرة في تباه ورياء يدخل على نفسي ضيماً كبيراً ومع ذلك فإن الفرصة الوحيدة التي كان يسعفني بها الحظ للاهتداء إلى أبي من جديد والعثور عليه كانت كامنة في ذلك الجوار العقيم وليس في مكان غيره. لقد كانت السعادة تجعلهم كالمعتوهين ومع ذلك فإن الأشياء تبقى في محيطهم ومن كل جهة مصرة متعننة في هزالها وحقارتها الأصليين. لقد كانوا يكذبون ويهولون الأمور وكان العشاء يتواصل بتناول الحلويات والمرطبات التي كدت النساء في تحضيرها كامل اليوم. التذاذ بالأكل مهول وألسنة تتلمظ!

وتلك الليلة شنيعة!.. والذرية صاخبة صارخة أكولة نهمة! ورغم النوم الذي كانت سهامه تثقب العيون فإن مواليد الأسرة الصغار كانوا مستمرين في التحرك والاضطراب. وكم كنت أتفنن في قرصهم في أليتيهم من شدة غضبي. وكانت نساء أعمامي يجتهدن متسابقات لإقامة البرهان على ذكاء أبنائهن فكل واحدة ابنها أذكى. وأما الأعمام فقد كانوا يبتسمون ابتسامة الرضى عن النفس ناسين أو متناسين تلك البواسير الفظيعة التي كانوا يحملونها في أدبارهم شديدة الحمرة غزيرة القيح والتي كانوا يعالجونها في أوروبا علامة على الامتياز، في أوروبا حيث كانوا يوظفون في الوقت نفسه كاتبات عشيقات. ويطقطق الضحك غريباً غير مألوف كأنه متدفق من أعماق الدهور. أشتهي صفعهم وضربهم بطرف حذائي الحاد ضرباً يؤدي بهم حتى الموت ولكنني لا أفعل شيئاً من ذلك وتبقى الأمور على ما هي عليه في جمودها الأساسي. وتتضارب الكؤوس فيسمع لها صوت وتختلج لها نفوس الأعمام المتاجرة وكان بلاط الصحن متألقاً متوهجاً والمنزل نظيفاً. وتستمر القبيلة في المضغ واللوك وفي الحديث. الاختناق من حين إلى آخر. ويحرق الفلفل أشداق الرجال ولكنهم لا يأبهون لذلك لاعتقادهم بأن الفلفل من شأنه أن يزيد في قوتهم على الجماع. وإذ ذاك بالضبط يتدلى شيء من المخاط من شعر شارب أحد أعمامي ولكن بما أنه قد طفق يشتم ويلعن المتسولين الذين عاثوا في المدينة فساداً فإنه لا يجد متسعاً

من الوقت لمسح مخاطه المتدلي ويفضل سفه سفاً كما تسف الحرباء إحدى الحشرات. بيد أن القوم لم يلاحظ منهم أحد شيئاً من ذلك وأما المواليد القردة فقد أخذوا الآن في القيام بعمليات بهلوانية لاثغين في لغوهم مشرشرين بولهم على سراويل آبائهم العربية الفضفاضة غير آبهين للدين الإسلامي الذي يحرم الصَّلاة على من بقيت عليه آثار البول. ولكن لا أحد يبدي غضباً في تلك الأثناء بل إن الآباء يدفعهم الحمق إلى حد أن يقيموا مفاضلات بخصوص درجة غزارة بول أولادهم وأن يعلقوا على لونه. وإذ هم وصلوا إلى قمة الاهتياج فإنهم يطفقون في ملامسة ذكر الطفل الفائز المصطفى وفي مقارنة طوله بطول ذكور بقية الأطفال. ويأخذ المواليد الصغار وقد دغدغتهم الملامسة يصرخون كشخص واحد فيتعالى عواؤهم قوياً حاداً ويتسرب الهيجان إلى نفوس النسوة فيقبلن بيضات الأطفال المبللة بآثار البول تقبيلاً. قمة الضوضاء والصخب! وأوج حفلات كلها كياسة وظرف! وقد امتلأ الجو غموضاً والتباساً. وأما القطط الكثيرة بالمنزل فإنها كانت تأخذ في الدوران مثل أفراس السرك وفي ركوب بعضها البعض وفي إطلاق مواءات صغيرة تُعبِّر عن لذتها. وتحمر وجوه النساء أمام ذلك المنظر فيرخين أعينهن خجلاً ولكن في هيئتهن وهن يفعلن ذلك دعاء إلى الذكور لمجامعتهن بالقوة وتدميرهن تدميراً. ويدوم الأمر كذلك ساعتين أو ثلاث ثم ينصرف الأعمام إلى المقهى وترفع زوجات أعمامي مختلف

قطع الآنية الضخمة وذراريهن وقد أخذهم النعاس أثناء قيامهم بعملية تهريجية حمقاء، ثم تعود إلى النساء وقد تركهن أزواجهن هيئتهن الطبيعية فتذهب من صوتهن كل أنغام التدلل والتغنج فيتراصصن بالمطبخ ويستأنفن أعمالهن المنزلية ومشاجرتهن إلى أن يعود أزواجهن. وإذ ذاك ينقطع كلامهن فجأة فيصمتن وقد أصبحن مثقلات الهيئة كالضاريات المفترسات. لقد دقت ساعة الحقيقة ولم يعد هناك مجال للجدال والخصام. وعند ذلك يأوين إلى مضاجعهن حيث لن يبطئ الرجال في تعذيبهن شيئاً فشيئاً بعد الاكتراث واللامبالاة: إن الرجال إذ يمتطونهن ليفكرون حالمين في عشيقاتهم وفي قحاب المدن الأوروبية.

لقد أضناني كل هذا التوتر من الخناق المضروب بشدة حول حلقي والذي لم أكن قادراً على تفجيره فأفرغه في القيام بعمل ما من أعمال العنف. أضناني هذا التوتر إضناءً شديداً فكان الأرق وكانت أمي بجانبي قد هجرها النوم هي الأخرى. فكان الأنين والتأوهات. إن المجاورة لأمي لم تكن في الحقيقة تثقل كاهلي ولكن تشنجاً في الأعصاب يبرز بيننا بمجرد ما نكون معاً على الفراش الكبير. لقد كان النوم لا يريد مراودة عيني الساعات الطوال. كنت مثل حطام السفينة أنجرف مع التيار بدون إرادة. وبدا العالم مريعاً، وكنت أفهم علاماته ولكن لا أفهم غاياته وأهدافه البتة. لماذا كانت أمي تفضلني على سائر إخوتي؟ الواقع أن علاقاتي بها كانت أشد اضطراباً وعنفاً من علاقات سائر

إخوتي بها. والجواب عن هذا السؤال أمر مستحيل. لم أكن قادراً على المنام على ما بي من تعب وفتور. وكان المنزل يخيم عليه صمت رهيب إلاَّ أنني كنت أعلم أن ذلك الصمت إنما هو صمت في الظاهر فحسب إذ كان أعضاء الأسرة مشدودين إلى أحلامهم شد المسامير للخشب بل مغروسين وسط كوابيسهم ووسط انقطاع فظيع في صلة بعضهم ببعض كان يبدو أثخن وأكثف في زيف الليل الفاتن الجمال الذي كانت ترسم تقاطيعه بصورة واضحة جلية نوراً جامداً يابساً من وراء نوافذ غرفتنا. إن انقطاع الصلة هذا لقائم على دعامة عتيدة هي دعامة الطبقية العائلية الموروثة عن السلف. كانت المدينة قد ابتلعت الريف وازدردته ازدراداً وفي نهاية المطاف فإن كل تعاطف بين أفراد الأسرة قد اضمحل وأمحى أو تلاشى ولم يبقَ من ذلك إلاَّ هياكل ظاهرية كانت تحول دون قيام علاقات حقيقية بين الجماعة. يا له من اصطناع!.. ويا له من اختناق! انسللت خفية من الغرفة وغادرت الفراش خلسة ودرت بدون غاية في حلقة مفرغة. وطفقت أنظر إلى غلاف السلحفاة العظمي وقد ماتت منذ وقت بدون أن يهتم بها إنسان (إن يما ستقيم لها غداً جنازة رائعة وربما وصل بها الأمر تعبيق المنزل بالبخور ترحماً وإجلالاً لذلك الحيوان الذي جاءت به معها إلى الدار يوم زفافها). الهدوء المؤقت. إخلاء السبيل للنسيم العليل يلامسني. إحدى بنات عمي لم تنم بعد

فذهبت إلى غرفتها وكانت لا تزال عابقة بروائح حفلة الزفاف ونظرت إليَّ وأنا ألج مأواها ولكنني كنت لا ألاحظ إلاَّ ظلي وقد سبقني مسرعاً غليظاً فائضاً من كل جهة وصوب إلى حد بلوغ السقف. ورأتني بنت عمي وقد وصلت إليها. لا بدَّ أنها كانت تخشى بالخصوص ذلك الظل الكثيف البالغ من الغرابة المضحكة ما بلغ. قالت في البداية إنها لم تفهم القضية ثم قالت بعد ذلك إنها لا تريد، من أجل الدين. لقد كانت أكبر مني سناً وكانت بصدد تهيئة جهازها منتظرة زفافاً محتملاً. وتمكنت بفضل ظلي من دس يدي تحت قميص نومها ومن عرك فخذيها عركاً وكانا غليظين سمينين. ولامستها وداعبتها بعنف تأوهت له التذاذاً وتجرأت لحظة فجسست فرجها ولكن يدي لم تصادف إلاَّ ركاماً من الشعيرات الندية فتقززت من ذلك وسحبت يدي فجأة وعلى عجل وكانت دموع ابنة العم. ترى هل انتهى خوفها من ظلي وقد كان ذلك الخوف قد غمرها أكثر مما غمرتها ملامساتي الخرقاء لها؟ وأما أنا فكل ما كنت أبتغيه هو بلوغ ذلك الشيء الفظيع الخارق الوهمي الذي كنت أتوقع وجوده في ظل العانة الشعراء. وضع يدي في ثقبة الحياة تلك التي لم أكن أعرف منها إلاَّ الآثار الصفراء على التبابين. ويمتلكني الخوف فأبقى هناك لا أنبس ببنت شفة. لم تكن تلك هي محاولتي الأولى. ويكون الفضل مرة أخرى! لقد كانت ملتصقة بي تشد نفسها إلى صدري وكنت

قد أزمعت بعد على مغادرتها (كانت تقول: تحسس فخذي، لامسهما إنهما ناعمان كالحرير!) لم تكن فاهمة لموقفي الانهزامي أمام فرجها البكر الذي كانت راغبة عن رضى في تركي ألامسه وأداعبه بل وحتى في السماح لي باقتحام أسواره وفتحه فتح الغزاة. كانت عالقة بي لابدة لا تدعني وتقول إنها تحبني (يا لها من صبيانيات!) ويا لها من مهزوء منها ترتعد وتزداد اهتياجاً فتستسلم محمومة لمعانقتي لها معانقة لا دقة فيها ولا وضوح. وأحنو شفقة على تعاستي الشخصية تلك إذ كنت أطالب في تلك الآونة بالذات باسترداد أمي، أمي المجروحة، أمي المخدوعة. ولكن الأفكار كانت تفر مني جامحة. فكنت أنتهي في كل مرة إلى ذلك الردب حيث كان يقذف بي منجنيق البراءة الصبيانية المرة المذاق (إذا لم أكن أعرف كيف أنتقم لنفسي من قسوة القبيلة وسيادتها إزاء يما). الضباب المتعدد الألوان أمام عيني. والألم يسري في ظهري أما الأخرى فقد شدت نفسها إليَّ كما يشد الجدار إلى الزافرة كأنها تسعى باحثة لعلها تعثر على كيفية في التعانق والانضمام تتغيّر لها معطيات وضعها الجهنمية. وأما أنا فقد كنت أمرر على جسم بنت عمي يدين ناسكتين وقد غمرني شيء كالعمى كعمى الأنبياء العلامين بالغيوب وها هي ذي الآن قد عيل صبرها فلم تعد تطيق لتلك الحالة احتمالاً فتأخذ في اعتبار نفسها كالبرج عليَّ أنا أن أحاصره. وأما أنا فقد

كنت أبحث مبربشاً في قعر البقية الباقية الفاترة من ضميري عساني أتمكن من بعض عمليات الإغتصاب الأساسية لحق معنوي ضد الأسرة (ولكنني لا أتحصل على شيء!). وأما هي فقد كانت لا تريد عملية مزيفة مصطنعة وأما أنا فكنت أئن وأتأوه في حماقة بلهاء. ولما بلغت نهاية قدرتي على الطاقة والاحتمال انقلبت فصرت لا أدري ما أفعل. كانت ممتقعة اللون شاحبة. شعرت بالرطوبة والنداوة. ترى كيف السبيل إلى حملها على الانقطاع؟ لم يكن ثمة إلاَّ حلٌ واحد أفقه مفتوح أمامي: أن أعبِّر عن مختلجات نفسي من خلال هذا الجسم، جسمها، وأخذها الهلع فتمددت على الجليز العاري المتألق مباشرة وعضت على شفتي السفلى وفيما كان دمي يسيل متقاطراً على جسم تلك العذراء الأمرد كنت أنا أضيع وقتي في اشتمام تلك الرائحة الكريهة الصادرة عن ذلك الشق الممزق المقوس الحافات كأشنع ما يكون التقوس. وأخرجت يمينة إذ ذاك نهداً مبتذلاً بسيطاً من نهود البنيات الصغيرات الناضجات الجنس قبل الأوان فأسرعت أنا إلى عركه عركاً غايتي من ذلك التظاهر بالقيام بعمل ما. ولكن ذلك الثدي السخين الذي يرثي لهيئته بحلمته الصلبة المزرورقة اللون ذكرني بضرع تلك العنزات التي كتب لي أن أرى الناس يحلبونها في ضيعات أبي فكنت أتوقع طيلة كل تلك اللحظات أن ينبثق اللبن فاتراً من نهد تلك البنية المضطجعة في استرخاء مضحك فيغمر

ثيابي ويسيل على الأرض ويغزو المنزل بأكمله فتموء له القطط مواء وتلغ فيه فتلعقه بضربتين مختلستين من ضربات ألسنتها المتوردة اللون ثم كان العدول فتخليت. . كنت أريد الانصراف ولكن ذلك الفرج المضحك في غرابة هيئة المنفرج انفراجة حمراء قد سحر لبي فكنت مفتوناً به أيما فتنة وعندها لم أزد على أن نظرت إليه نظرة إجمالية بدون الاعتناء بالدقائق والتفاصيل. وداخلتني الرغبة طيلة بعض لحظات في النط والجولان في مرح خلال ذلك المثلث الضخم الأشعر ولكن فكرة اللبن الذي قد يصل حتى إلى تحت سرير أمي فتفيقها رائحته الحادة كانت تعكر عليَّ فرحي الرائع، فرح غلام صغير كان جالساً على قمة عجيزة. وانتابتها إذ ذاك حشرجة. خفت من أن تنفجر بين يدي المرتعدتين ولو كان ذلك لانضاف الدم إلى اللبن! وفجأة انصرفت إلى غرفتي تاركاً ابنة عمي تخفق خفقاناً في حماقة أنوثتها وامتلائها بعد بحيضها الهزيل وانفراج أسافلها انفراجاً في منتهى الكمال، وغرابة هيئتها الباعثة على الضحك وكسلها وتعاستها بالخصوص لفكرة ذلك الإثم الذي اقترفته في تفاهة يرثى لها.

نجوت إذن بنفسي ودخلت من جديد في عالم النوم الذي لم أفارقه قط. لقد كنت أشعر دائماً بشيء يقض عليَّ مضجعي وأنا نائم كما لو كان ثمة فراغ أزلي كنت أرهق نفسي كل ليلة في سده سداً. كان نومي متقطعاً متفتتاً وكان

الأمر ينتهي بي إلى اللهاث عند طلوع الفجر وقد انبجس نوره فجأة في غرفتنا فلم يترك لأمي أدنى مهلة ولا راحة فينتهي بها الأمر إلى النهوض ولم أكن عند ذاك أعرف هل أنا في حالة نوم أم منام. والذي كان يزيد في ترددي ذاك هو طشيش الماء في الجفنة المعدنية ونتف اللحم العاري المتناوبان في ضميري تناوباً خارقاً للعادة في سرعته. فهل كان ذلك مجرد كون أمي كانت تغتسل في دوي وضوضاء بغرفة الاستحمام فحسب؟ لقد كنت عاجزاً عن التمييز بين الحقيقة والخيال من خلال جميع تلك المشاعر والأحاسيس التي كانت تسطو عليَّ فتقتحم نفسي اقتحاماً. إن تعقد ذلك الوضع واشتباكه كانا يحملانني في نهاية المطاف على النوم نوماً عميقاً وقد انتابني القلق من جراء صوت أمي وهي تصلي صلاة الفجر. وكانت تقرضني ولما أشف غليلي من الكوابيس المتهاطلة عليَّ تبتغي إيقاظي إيقاظة صباحية مفاجئة كانت أكره الأشياء عندي. لم يعد هناك مجال للشك فقد كانت الأشياء تثور متمردة أمامي فتتصور زوايا كثيفة المادة وتنفجر داخل عيني بدون أن تعميني والحق يُقال. الأيدي اللزجة.. والأوجه العابسة المقطبة أوجه أعضاء الأسرة. كانت تلك هي الساعة التي كان وجهي وقد انعكس أمامي في المرآة يبعث الاندهاش في نفسي فأتحرك إلى الوراء مدبراً نافراً: كنت كالشاة السليخة أذوق الأمرين في ابتغائي التحول إلى شخص آخر ولكن لا شيء من ذلك كان يحدث! لم أكن أكنَّ في نفسي أي أثر

للتحول والانقلاب فأطفق أحرك وجهي وأعجوه عجواً. أنواع الدوي المختلفة وصوت دفاقة ماء المرحاض وصوت وقوع أجرام صلبة. الأصوات البشرية الدبقة الخاثرة. ويستولي الجنون من جديد على القبيلة الضخمة التي كانت تريد منا التحصيل على العلم فكانت تجتهد لذلك في تلقيننا تلك الدقة في المحافظة على المواقيت التي هي من طبائع التلاميذ غير النجباء لأن التباطؤ فن من الفنون برمته. لقد كنت أقسم كلما نظرت إلى نفسي في المرآة بألا أفعل ذلك من جديد أبداً. وتكون صيحات أمي.. وتنتشر رائحة القهوة ثم يسمع من جديد صوت دفاقة الماء بالمرحاض! لقد كانت الأسرة التي لا يحصي عددها إلاّ اللّه تتخلص من حاجتها البشرية بالتناوب ولذلك كنت أبول في «اللافبو» لكي لا أقف منتظراً دوري أمام المرحاض الوحيد وإن كان يلذ لي كثيراً أن أشاهد عماتي يلمسن فروجهن لردع رغبتهن الملحة في التبول. ومع استيقاظ الذراري يهب الذباب وقد أزعجه مثل ذلك الاستيقاظ المصمّ للآذان. وأواصل النظر إلى صورتي في المرآة وأحدق فيها حتى أنكر ذاتي. ثم أتراجع متخاذلاً وقد أزعجني ذلك. عليّ رغم ترنحي أن أرتدي ثيابي وسط صياح أمي وقد عادت إليها الحياة فجأة وغمرتها السعادة لأنها قضت ليلها بسلام، بل كانت تدور وتحوم كالفرس لتبين بوضوح أنها لم ترَ أحلاماً مزعجة في نومها نوم المرأة المطلقة العفيفة. لقد كانت أمي تبعث على الضحك والسخرية. وكنت أكرهها سيما أن ذكرى ابنة عمي

الشعراء اللزجة كانت تملك عليَّ نفسي إمتلاكاً كلياً.
ويعاودني ضيقي كما كان بالأمس. لقد سلمت من كل أذى! إنه على كل استيقاظ عادي عينان غاضبتان مهددتان. أحد الأعمام ساخط وقد أمسك ساعته بيده. عليَّ ألاَّ أصل إلى المعهد متأخراً. إن الأمر بالنسبة إلى العصابة مجرد رأس مال يرصد ليستثمر ليس إلاَّ! وبالرغم من ذلك لم تجد جميع الحيل نفعاً. فقد كنا نبذل قصارى جهدنا للوصول إلى المعهد متأخرين حتى نغيظ غيرنا من كسالى التلاميذ وتتسنى لنا السيطرة على القسم. ولم يكن ذلك ليضايق أستاذ الفرنسية اليهودي كبير مضايقة. وكنا في قاعة الدرس نقطع من قطع الخبز التي كنا دسسناها في جيوبنا في آخر لحظة قبل انطلاقنا المرعد. «قطيع من البهائم. . كسالى. .» كانت أفواهنا مملوءة وكان ذلك يساعدنا على عدم الإجابة. «عجز وراثي. إنكم من جنس الفلاحين الانتهازيين». لقد كنا سعداء بعجزنا عن استيعاب العلوم لا سيما أن ذلك كان يثير حنق أهلنا التجار. لقد كان سي زبير ـ دون سواه ـ قادراً على إدراك ذلك التناقض لأنه كان الوحيد الذي استطاع أن ينسلخ عن زمرة الفلاحين بفضل ثقافته المتينة. كان القسم منتن الرائحة. . وكانت الحرارة ثقيلة. وفي درس الحسابيات كان أستاذنا امرأة، لقد كنا أصفاراً خالية في الحسابيات لا نعرف كيف نحسب ونتعثر في فكّ تلك الألغاز الجبرية. وللتظاهر بالقيام بعمل ما كنا نقذف ببعض المماحي تحت كرسي الأستاذة ثم

نغتنم فرصة الذهاب لالتقاطها، لإلقاء نظرة على ما تحت تنورتها. يا لها من ثقبة ظلماء! فكنا إذ نخير بين الحسابيات والعدم الأظلم نختار الحسابيات، وتأخذنا الحمى فتهيج عواطفنا ونصبح إذ ذاك قادرين على فهم كل ما يطلب منا نبتغي بذلك تناسي الليل الأظلم النتن القابع تحت تنورة الأستاذة. وكم كانت دهشة تلك السيدة عظيمة لا تنتهي أمام اجتهادنا ونجابتنا المفاجئين. لقد كانت جميلة مدام «مارسيي»! ولكننا كنا نتقزز منها فنعافها طيلة بقية الأسبوع. يا لها من أعماق فظيعة!.. لقد كان ينبغي أن نقتنع بمظهرها السطحي، فالعينان خضراوان وشحوبة الوجه شاذة غريبة. لقد كانت مطموسة البصر ذات نهدين صغيرين. ولكن يا للفخذين فخذيها! كانت ترتدي دائماً اللون الأسود فكنا نحزن لذلك ونأسى فنمكث هناك بالقسم وقد أضلتنا الهندسة والخوف من الثقبة الظلماء فانحرفنا وأشرفنا على حافة الاستمناء باليد: استمناءً عارماً عملاقاً إلاَّ أننا لم نعد نجرؤ حتى على تصور تلك العملية وذلك لفرط غضبنا من وقوعنا في فخ الثقبة الظلماء التي لم نكن قادرين على اجتلابها وجعلها في متناولنا. وتنتهي ساعة الدرس في حماقة نغنغتنا وقد انقلبنا فأصبحنا تلامذة نجباء فتكون الأسئلة الماكرة وتتدفق الأجوبة السامعة المطيعة وننقطع حتى عن المناوأة ونصب العداء فنصير أشقياء فقط.

كانت دارنا محصورة بين سوق الحدادين وسوق الجزارين وكانت قابعة على مرتفع يشرف على المدينة قاطبة. وفي أسافل ذلك المرتفع بالضبط كانت عربات الترامفاي الراجعة إلى عهد نوح تمر في قعقعة حديدها البالي وإذن فقد كانت المخاطر محدقة بنا ولذلك كان ممنوعاً علينا اللعب في الشارع منعاً باتاً. ولكننا لما كنا مكلفين دائماً بقضاء حوائج المنزل فقد كان لنا في ذلك فسحة للتنزه وإطلاق أرجلنا حتى بلوغ الحي الأوروبي من المدينة أي بعيداً جداً عن منزلنا وذلك بحثاً عن بعض العطور النادرة لإحدى زوجات أعمامنا أو مجرد سعي منا إلى رؤية البحر الذي كنا نفاجئه في مياه الميناء القذرة الملوثة ولكننا كنا نستسيغها ونجدها موافقة لأذواقنا. وكنا في فصل الصيف نتجاسر حتى على العوم في ماء الميناء الزاخر بالقذارة والأوحال فنتخبط هناك بين عمال الرصيف وجماعات البطالين وقد جاؤوا إلى حافة الماء لتدخين «الكيف» ولاغتنام فرصة ذلك لملامسة أفخاذنا ومداعبتها

بتعلة تعليمنا السباحة. وكنا بعد مثل تلك الانفلاتات إلى البحر لا ننجو من عقاب أعمامنا. وكانت النساء في تلك الحالة متواطئات مع الرجال. فقد كن يلتمسن البرهان على جريمتنا الشنعاء بأن يلحسن سرتنا للتثبت من كون طعمها ممزوجاً بطعم الملح أم لا. لقد كن في العادة يقيننا من شر وحشية الذكور ولكنهن في قضايا العوم ليس لهن رحمة ولا شفقة. ولما كن لم يرين البحر قط فقد كن يثقن بأقوال الرجال لتقدير الأخطار التي كنا نتعرض إليها في الذهاب إلى البحر. ولكننا كنا نقتصر في الأكثر على التسكع في الأسواق المجاورة لمنزلنا من حوانيت الحدادين الصغيرة جداً والمليئة بالخردة المتراكمة المهولة وقد أكلها الصدأ. وأما سوق الجزارين فقد كان أشد اكتظاظاً وعجيجاً: «فهذه» الأوضام محملة لحماً يتقاطر دماً وهذه الروائح الحادة والضوضاء والصخب واللحم... والكروش... والمشاجرات... والحيل.. والبشاعة الدامغة، بشاعة أطعمة الفاقة والمسغبة. هذه لحوم للأغنياء وتلك لحوم للفقراء. وهذه اللامبالاة المصطنعة: لو نبشت قليلاً لرأيت شناعة الأمر تنفجر وتدعك قعر ليالي النواح والموت بالعنف والأوجه المخدوشة والبطون المتورمة والنهود المفلطحة وسكرات الرجال الهائلة المريعة التي لا ترد عليها إلاّ ابتهالات النساء وقد شددن شداً مادياً ملموساً إلى إلّه مجرد قد من خيال مرضي ليس ينفع البتة إلاّ لإغاثة الجائعين والمرضى والسكيرين المتكاثرين جداً في المدينة إغاثة مبهمة.

جموع الناس غفيرة في الشوارع. إنها ساعات انقلاب الساحات إلى أسواق من الفقر والفاقة. فهذه الخضر المتعفنة المعروضة على الأرض مباشرة بعد أن التقطها بائعوها من مطارح قذرات فواضل السوق المركزية وهذه البنيات النظيفات الهيئة نظافة بارزة للعيون وهن يبعن أرغفة خبز «الكسرة» وجبن الماعز وهؤلاء غلمان الجزارين يتقاتلون بالموسى من أجل مومس من أحياء الزنا وهذه العجائز بحركاتهن الأبوية اللطيفة الهادئة. وهنا الشحم وهناك الكروش مرة أخرى ورؤوس الخرفان وهنالك الثيران الضخمة. ويسيل على الدوام ماء لونه صدئي يتخلص منه الجزارون بصورة فوضوية. إن جموع الخلائق لكأنها ترقص. فالجو تمايل وترنح. وهذه أوضام الباعة الحمراء. والعجائز السوداوات يكشرن عن أسنان نخرة ويعرضن على المارة مرطبات مصنوعة من الذرة البيضاء. ويتوقف المارة من حين إلى آخر وينظرون بعين شبقة إلى البنيات المارات ويذبون الذباب وقد تلاصق بعضه ببعض من جراء حرارة الطقس. وبعد حين ستمر حشود الأمهات فيأتين على كل شيء من لحوم فاسدة وشحوم نتنة... يطيب لي أن أسيل مع أخي الأكبر في صلب هذه الإنسانية الحية وما حياتها إلاّ ضرب من سوء الصدفة والحظ. حتى إذا فعلت داخلني الشعور بأن الحشرات العاجة حول هذه المؤن الكريهة الرائحة لها رؤوس كرؤوس الجراد تهتز اهتزازاً مثل رأس مشنوق لم يحسنوا شنقه. وتتراكم الأوجه وتتكدس وتقهقه

بارزة ضخمة كبروز الصور الكبرى في الأفلام، وترتخي الحركة وتضعف بسبب ما يعتريها من سآمة وتعب يبلغان حداً تكاد تسمع معه أزيز الضحكات الميكانيكية. إنها الطيبة طيبة الدود المهترئ وإنه الاستسلام والرضى النتن الرائحة. ونشعر، أنا وأخي، بغيظ القوم وحنقهم يفيضان على صفحة قلوبهم ولكن العجائز يهززن رؤوسهن وينكرن وجوب النضال. إنها الفاقة مبسوطة هادئة. إنهن ينصبن كل مساء نعش القضايا الخاسرة ويتخمن أنفسهن إلى درجة الجنون بعبارات المدح والتملق للمارة تملق المؤمنين بالقضاء والقدر والتصالح بين الأغنياء والفقراء. كان زاهر يفسر ليَّ عدّة أمور ولكنني كنت لا أفهمه بوضوح فلا يبقى في نفسي إلاَّ يقين مؤلم تصيره رؤية الدم حزيناً كئيباً.

وما إن نخرج من الأسواق حتى نأخذ في الترنح بين جماعة القصاصين العموميين الماكرين وقد انتابهم الضجر من جراء روايتهم الأبدية لنفس القصص أمام جمهور من المستمعين لا يردون الفعل إلاَّ عند استماعهم للفقرات الخليعة. أما الكهنة والعرافون فقد كانوا يفضلون الأزقة الأشد هدوءاً فيستدرجون إليها أولئك الأغبياء الباعثة هيئتهم على الشفقة والقادمين إلى هناك للتوكل عليهم عساهم يعينونهم على اكتشاف كنز أو سحر امرأة مترددة بين القبول والرفض. وأما جماعة المتسكعين العاطلين فكانوا يتجولون من جمع من الناس إلى آخر ويبصقون على الأرض فتخرج من أفواههم تنخيمات ضخمة لزجة كتنخيمات المتسولين

ويتجرؤون أحياناً على مناقضة أقوال المشعوذين البائعين للأدوية الشافية من ألم الرأس وألم الحب والمغلفة في صفحة من صفحات الجرائد. وترى في جوار الشوارع الصاعدة في استقامة نحو السماء جماعة العميان وقد تدرعت أوجههم بدرع الجدري يحاولون استعطاف المارة فينبئ وجودهم بقرب تلك المواخير الصغيرة العابسة المقطبة حيث يذهب شعب كامل قد تعود حبس نسائه في قعر دورهن يذهب لمضاجعة جماعة من العجائز الشمطاوات. كان زاهر ينتصب هناك كالعصا ثم ينصرف بدون الإدلاء بأي تفسير فيصعد درجات الأزقة الصغيرة وتراه يتبرم من عراقيل ذلك الكبت المرضي الذي كان يحمله على اجتناب الدروب المظلمة والقحاب البطينات اللائي لم يعد لمبيضات أرحامهن أية طاقة فيدق على باب أحد المخازن حيث كان يستقبله كل مساء رجل مسن اسمه العم عمار كان يعمل لحساب والدنا ويزرع حشيش «الكيف» ويتعهد نموه في أصص الياسمين وعندها كنت أحقد على أخي إذ كان يحز في نفسي ألا يبوح لي بأسراره. وأتردد في اختراق حي الزنا كالبرق الخاطف وأقرر في نهاية الأمر الرجوع إلى المنزل.

الساعة التاسعة ليلاً. وكان الليل ينزل عن طريق هالة من النور باهتة منبثقة من أسرجة الكربور الموقدة فوق مناضد باعة الفواكه والغلال. الساعة التاسعة ليلاً. كان المؤذن يدعو المؤمنين إلى الصلاة بصوت ملؤه الفتور

واللامبالاة. وواصل المارة مسيرتهم الهادئة متخللين قوافل العربات اليدوية التي كانت تكتظ بها الأزقة الصغيرة بالحي السفلي من المدينة غير آبهين لنداءات المؤذن المتكررة رغم ما كان يتخللها من توعد خفيف لمن لا يستجيب لدعوة اللّه. وأما باعة الجرائد فقد كانوا يصيحون ملء حلوقهم لاهجين بعناوين الجرائد الأجنبية الكبرى الآتية من وراء البحار. وأما مواكب المتسولين فقد كانت تنحدر من هضبات مدن القصدير. وهي خليط متراكم من الجروح المكلومة على صفحة الزنك مباشرة وقد توهج لتلألؤات البحر التي لا تحصى فتبتلعهم الأزقة الضيقة الظلماء ويترنمون بتضرعات حزينة خاصيتها العظمى أنها كانت لا تؤثر في أحد. وأما عربات الترامفاي المارة بالشوارع الكبرى التي جرفها جوار البحر فإنها كانت تصير أشد اهتزازاً وترجرجاً مما كانت عليه في أول النهار وقد خامرها فجأة وعي بمرور الوقت ووجوب الإسراع، ولكن أعوان قطع التذاكر كانوا ناعسين على كراسيهم. وكانت المدينة دافئة ولعل ذلك راجع إلى رائحة الأخطبوط المشوي التي كانت تضفي على الجو ليناً واعتدالاً. الساعة التاسعة ليلاً. ويتوقف العمل بالأسواق وينصرف التجار إلى الجهة الأخرى من المدينة. وتكون مقدمات الاحتضان والمضاجعة.. وينقلب العالم فجأة فإذا هو جامد في استقرار. وتعود الأمور فتستوي في هيئتها الأولى.. وتكون بداية الهدوء والوداعة.. هي الحركات عطلت رويداً رويداً

حتى أصبحت هدهدة تنام على إيقاعها المدينة العربية وقد أضنتها عمليات المقايضة وموقعها غير المستقر بين البحر والهضاب (إن النظر إلى أشباح الناس في الأزقة وهي تتضاءل وتختفي لضرب من مناظر الكابوس) ويحلّ الخوف.. لم أكن أرغب في النوم. مشاجرات النساء وقد تركن لحالهن. ويعلو تناجي بنات أعمامي وقد بلغن على طي الخفاء والكتمان سن البلوغ.. وتكون الخيانة مرة أخرى! وتتصاعد غوغاء أخواتي وقد شنج أعصابهن موقف الوالد.. ثم هي أغنية الماء (ماء دفاقة المرحاض وماء أحواض الاستبراء) وتكون عمليات الابتلاع.. لم أكن أرغب في الرجوع إلى المنزل.. وكانت يما تنتظر. أأغادر المدينة القديمة..؟ أأندمج في جمع النساء..؟ أأحضر عشاء الأعمام..؟ أأطالب بمكان لي في الليل العليل النسيم..؟ أم ألزم الصمت في النهاية وقد أنهكني هذا الجوار المبهم المعالم. عبثاً كان رفيقي (أو أخي الأكبر) يهلل ابتهاجاً لرؤيتي وقد وقعت في الهاوية نفسها التي كنت فيها البارحة ليلاً. أنا لا أحقد عليه وإن قليلاً. أأتعامى أمام حركات ابنة عمي المتصنعة وقد أدخل في نفسها الحيرة والارتباك حاجتها الجديدة الملحة إلى ذكر يجتنب خدشات مخالبها ويئن إلى حد الإغماء إذ ولج فمه لسانها؟ أهو الخوف من ذاك اللبن خوفاً لا يمحى أثره إلى حد أن بشرتي تبقى متأثرة به رغم مرور زمن طويل؟ إن على الراغب في الوصول إلى منزل يما أن يجتنب الأزقة المليئة

بالبول والتي هي محل لمواعيد متعاطي اللواط يتلامسون هناك في ظلام المراحيض العمومية وعليه أن يسلك طرقات طويلة غير مباشرة وذلك لكي يجتنب حلول السهولة. . ينبغي الحذر من النساء. كانت يما تنتظر إعلان الطلاق ولكن سي زبير لم يمت ولن يموت كما كانت أمي تتمنى وترتجي. فيكون الأنين والولولة من جديد. إن كل شيء سيقع كما كنت أتوقعه: سيكون الأعمام هنا وستتصنع النساء في هيئة القحاب مظاهر ملؤها الإثارة الجنسية. إنه قفل رافعة النهدين يطقطقن كاشفاً عن نهود ضخمة لا يقدر أي نعاس على سحقها. أأقفل الأطفال الرضع! لكن الوقت كان متأخراً جداً، ولما وصلت إلى المنزل كان الحفل قد بلغ شوطاً متقدماً.

لم يتريث الوالد زمناً طويلاً قبل أن يتزوج من جديد. لقد كانت خطته جد مضبوطة دقيقة: أن يعوّد أمناً على هذه الفكرة الجديدة وأن يقطع الصلة بنا قطعاً نهائياً. ولما كانت القضية قضية هامة خطيرة فإنه قد قرر ألا يتسرع في الأمور. لقد كان الأمر في نظره يتلخص في إضرام نار الحقد والبغض فينا وأن يصل بنا بهذه الصورة إلى نقطة لا يمكن الرجوع منها إلى الوراء ويصبح معها كل صلح أمراً مستحيلاً. فكانت علاقتنا في تدهور متزايد وأصبحت متوترة أشد ما يكون التوتر وأكثر، منبئة ببذور عمليات اغتيال كامنة فيه لا أكثر ولا أقل. إن دور الوالد في هذه القضية كان دوراً يسيراً ولكن ذلك اليسر كان فيه شيء من الإفراط فقد أسلمت يما أمرها للّه منذ مدة طويلة واستسلمت لصلواتها وأوليائها الصالحين. لقد كانت ثرثرة متسعة تتعلق بعملية قتل واضحة. لقد كان جميعنا فاهمين للقضية فكنا ننتظر بفارغ الصبر كالمحمومين الإعلان عن زواج سي زبير الجديد. وجاء الوالد يستشير يما في الأمر فوافقت في

الحين وأرسلت النساء صيحات الفرح وقررت أمي أن لا تتخلف أمام هذا الحدث فقبلت تنظيم الاحتفالات اللازمة وهيأت الحفل وعلائم الموت بادية على وجهها. وهل كان باستطاعتها في الحقيقة أن تعارض مشروع زوجها والحال أنها لو فعلت لعاكست نص القرآن وقرارات المفتين وقد كانوا مستعدين لمخاصمتها ومحاولة إقناعها ليلاً ونهاراً لو شاءت أفكارها فقررت عدم الخضوع للأمر المحتوم. صارت يما لا تخاصم اللّه وانحازت بدورها إلى جانب الرجال وبذلك فإن شرف القبيلة قد ظل سالماً محفوظاً (ولله الشكر والحمد) وفي إمكان سي زبير أن يهلل ويطلق صيحات السعادة.

وكان الزفاف عتيداً قاسياً. كانت الزوجة في الخامسة عشرة من عمرها وأما أبي فقد كان في الخمسين. وكان الزفاف متوتراً ملؤه الدم يسيل غزيراً ويبهر العجائز بهراً وهن يغسلن من الغد ملاحف الفراش، وقد غطت أصوات الطبول طوال تلك الليلة أصناف العذاب التي تسلطت على جسم الصبية وقد مزقه عضو الشيخ المريع. وكانت أوراق زهر الياسمين نشروها على جسم الصبية المكلوم. ولم يحضر زاهر الحفل وأما أخواتي فقد ارتدين فساتين قبيحة الهيئة وترقرقت أعينهن بالدموع وأما الوالد فقد كان مضحكاً يثير منظره السخرية وكان يجد ويكد لكي يظهر بمظهر المسيطر على الموقف وذلك حتى يقطع عنه ألسنة فتيان القبيلة. وما إن عقد الوالد العزم على التزوج بامرأة أخرى

حتى استأنف تناول العسل غايته من ذلك استرجاع قوته الجنسية الغابرة. وأما زبيدة عروسه الشابة فقد كانت ذات جمال وكانت فقيرة المنحدر. ومن اليقين أن الوالد لم يقتر في دفع ثمنها لأهلها: الرصانة في المقايضة والضبط في الحساب. لقد فصلت النساء عن الرجال أثناء حفلة الزفاف ولكن فتيان الدار قد اغتنموا فرصة ما حدث من بلبلة واضطراب فقصدوا النساء اللائي لم يأتين هناك إلاّ ليهبن أنفسهن للذكور يفعلون بهن ما يشاؤون وبلغت نشوة القوم ذروتها لكن يما ظلت بالمطبخ لا تغادره. وطفق الجميع يثنون عليها ويكبرون صبرها وشجاعتها فيسليها ذلك تسلية (يا لها من امرأة يرثى لحالها). لقد انقطعت عن توجيه الخطاب لها وأصبحت أكرهها كرهاً رغم ما في ذلك من غنم قد يغتنمه سي زبير. أما زاهر فإنه قد أصرّ على عدم الظهور بالحفل بدون أن يأبه لذلك أحد. وعندما أشرف حفل الزفاف على نهايته رجع زاهر إلى المنزل مخموراً وأدخل الهلع في نفوس النساء بأن غمزهن غمزاً على رؤوس الملأ. ولم يوجه له الوالد أي لوم بل كان يحتال في اجتنابنا خشية الوقوع في أحابيلنا: ذلك أنه كان متطيراً أكثر مما كان صاحب ذمة وعهد. على أنه كان في الحقيقة مفرط الاعتناء بزوجته الجديدة وكانت عيناه دائمتي الاتقاد وكان من حين إلى آخر يخيم على محياه علامات الخجل والتأثر وكانت طريقته في إظهار غرامه وشغفه أمام هذا الجسم البالغ الناضج جسم الصبية التي ستصبح رهينته.

واضطرت يما إلى مغادرة المطبخ فجأة هارعة لمعالجة زاهر كبير أبنائها وقد خر في هذيان فتاك: لقد كان يزعم أنه يريد الفتك بجنين بدون أن يزيد في التفصيل والتدقيق المفرط. وكانت الخرفان المذبوحة والكسكسي المتوبل وجبال المرطبات المتقاطرة عسلاً. وكان تسريح الكبت تتخلص منه النساء. وكان جنون أخي وقد تزايد هذيانه. وكان الشعب الصاخب في الصف الأول يلتهم المأكولات بدون تحفظ. لقد طفقت جميع الخلائق تغتنم فرصة تلك النعمة العارضة. وكان الزوج الجديد يختفي أياماً طويلة لا يراه فيها أحد حتى إذا ما ظهر من جديد طاب له أن يظهر للناس عينين محوقتين بدائرتين دهماءتين تنمان عن بلوغ الرجل أوج اللذة وتشيران إلى تعاطيه ساعات من العربدة والمجون والقصف لا نهاية لها. وفي الواقع فإن الوالد كان واعياً كل الوعي بأنه كان يضاجع بنية صغيرة وكانت هذه الفكرة المنحرفة الخبيثة تثير في نفسه الاهتياج أكثر من أي شيء آخر. وأما باقي الرجال فقد كانوا يصفقون ابتهاجاً ويحلمون بحفلة جنسية قد تكتب لهم في المستقبل على غرار التي كتبت لهذا التاجر الكبير. وواقع الأمر أنهم كانوا ملتزمين بالصمت لا يقولون شيئاً إذ كانوا يفضلون مفاجأة زوجاتهم بطلاق نظيف عفيف لن يمكنهنَّ رفضه وقد هتفن لطلاق يما وابتهجن به ابتهاجاً. وكان القُراء يرتلون القرآن بالتناوب ويختصمون فيشتد بينهم الاختصام في أيهم يلتهم أكبر قطعة من اللحم. وأما المتسولون فقد ضربوا الحصار

على مداخل المنزل واستعاضوا عن هيئتهم الشعثاء بوجوه ناس عياشين يطلبون اللذة وقد غنموا بين عشية وضحاها من مجتمع الكثرة والاستهلاك وأصبحوا متواطئين مع أغنياء تجار المدينة. وكان القوم يأكلون ويتحركون ويقهقهون ويضطربون ويهيجون. وكانت الدار في حالة انهيار. كان أهل زبيدة أكثر من غيرهم. أما أنا فقد كنت عاجزاً عن ابتلاع أي شيء فكنت أتدارك الأمر باللجوء إلى فروج العذارى أعيث فيها بلا هوادة. وكنت آتي ذلك ليتم لي بغض أمي بغضاً شديداً ولإذلال جميع النساء اللائي جعلهن القدر يمررن بين يدي وأنا مدفوع إلى ذلك بضرب من إرادة السخرية والاستهزاء (يا له من جبن!). وكانت تبقى عالقة بأصابعي رائحة عنيدة هي رائحة البول الزنخ كما لو كنت أدخلت يدي في سلة مليئة بالسمك المتعفن النتن. كنت أزني وأفسق بصورة آلية في الأرامل والمطلقات من النساء إذ كن يفضلن فعل ذلك مع الصبيان اجتناباً للفضيحة واتقاء من جواز الحمل. وكانت إحدى زوجات أعمامي تتوسل إليَّ في اغتلامها الجامح المطلق العنان راجية أن أجامعها. إلاَّ أنه كان يبقى لي أثناء احتلاماتي الشاذة الغريبة من ثقابة البصر ما يكفي للتفطن إلى أن في عرضها ذلك فخاً يبعث على السخرية تنصبه القبيلة عسى أن يقع فيه ابن من أبناء يما. ويستمر الأهل والأقرباء في الوفود جماعات تتكاثر كلما تعاظمت حفلة الزفاف: فهي القوافل الحمقاء من البشر وقد حز النوم في عيونهم، وتكلفوا مشقة امتطاء

القطار طيلة يومين كاملين حتى إذا ما نزلوا في هذه المدينة الشاسعة المترامية الأطراف باغتتهم وصيرتهم محترزين أشد الاحتراز طيلة مدة إقامتهم بها. لقد كانت المدينة بأكملها تتحدث عن هيلمان هذا الزفاف الفخم. وكان الأثرياء يقهقهون وهم يهيئون لأنفسهم خلسة زفافات لطيفة يزفون فيها إلى فتيات سمينات. وأما الفقراء فقد كانوا يتأوهون حسرة على فقدانهم القدر الكافي من المال الذي كان يمكنهم من الزواج من جديد وكان الأمر ينتهي بهم إلى التوزع على المواخير المريبة. وأما النساء فلم يكن لهن رأي في القضية إلاّ أن عشيقات سي زبير قد ثارت ثائرتهن لأن حفلة الزفاف في نظرهن قد طالت إلى حد لا يغتفر وكانت «ميمي» إحدى عشيقات أبي وهي من قدماء المتسبات إلى مواخير قسنطينة تصيح قائلة: إن هذه الغلامة المسكينة لا تجربة لها ولاّ رسوخ قدم!

وكان أبي في تلك الأثناء مشدوداً في رحم الفتاة ضرة أمي شداً وثيقاً. وعبثاً كان قُراء القرآن يحتجون ويقبلون بملء شفاههم أفواه الخادمات المسنات الدرداء، وعبثاً كان القضاة البدان السمان يعبون الخمرة عباً وقد فاحت من أجسامهم رائحة ماء الورد إذ كان سي زبير لم يكن ليتفضل بإشارة واحدة لإيقاف ذلك الداء الذي تسرب في نفوس جميع الضيوف والمدعوين. وكانت السبحات تفرك حباتها حبة حبة.. وتهاطلت الحمدلات والتبركات. وصار القوم لا يسمع بعضهم بعضاً من كثرة الصخب وفاحت من المنزل

رائحة هي رائحة مسالخ الغنم. وكان العازفون بالموسيقى عمياناً ويهوداً علاوة على عماهم، كانوا يطحنون طوال اليوم نغماتهم الصاخبة طحناً ويدعكون أوتار آلاتهم دعكاً قوياً (كم كنت أعشق آلة القانون!) وكان الضيوف تهمع عيونهم بالدمع من شدة التأثر وذلك رغم رائحة أنفاسهم النتنة وسوء طيتهم الجلية، وكلما مرت الأيام ازدادت الأفراح وتعاظمت. فكان جميع الناس منهوكي القوى خائريها ولكن لا أحد كان يجرؤ على ترك مثل هذه النعمة المباغتة تفلت من بين يديه. وبعد ذلك سيعاف القوم حفلات الزفاف مدة أشهر طويلة. وأما زبيدة زوجة أبي الجديدة فقد كانت تظهر بعض الأنفة من ذلك بيد أنني كنت قد بدأت بعد في استراق النظر إليها فبدت لي رائعة الجمال فهيأت نفسي لعشقها والهيام بها فكنت كلما اقتفيت أثرها كانت نظراتي ترشق قدها في شهوة ورغبة ولكنها كانت تظل باردة برودة المرمر فكنا يتحدى أحدنا الآخر. أبي يا له من نذل!... كم أهلك مثل هذه البراءة والطهارة... على أنه أصبح لا يوجه لي الخطاب فكنت أجد في هذا الحياء من أبنائه بعد أن فعل ما فعل مبالغة وإفراطاً! أعضاء مبتورة. وجه فأر. وجوه مواليد ماتوا عند الوضع. أعوذ بالله..! كان الوالد يقضم قطعة من نهد، قطعة من لحم الضرة الطفلة ويضرب الحصار على بيت الراحة. وكان الحقد والضغينة. وكنت أسخط ويتفاقم سخطي على بنات أعمامي فكنت ما أن يأتين فيحمن حول

جنوني وهذياني حتى أصفعهن على خدودهن بدون تحفظ. لقد غدون لا يفهمن شيئاً، إذ أنني صرت لا أرغب في ذلك الشيء وذلك بعد أن عودتهن على ما عودتهن من سيئ العادات. وفي الحقيقة فقد كنت أنوي بذلك ترك الوقت الكافي لأبي لكي يتلذذ ويتمتع حتى أتمكن من تعويضه في الإبان فأحسن تعويضه. فكانت بنات أعمامي غاضبات عليَّ حانقات يوددْنَ لو قتلنني، فكن عند نهاية الحفلة ينصبن لي كمائن بأتم معنى الكلمة. لقد كن يبثثن حقدهن عليَّ بثاً ولكن روائحهن الشديدة المشعة من أجسامهن كانت تنبئني بدنوهن فكنت أعرف كيف أجتنبهن وأضللهن. وطاب لي أثناء حفلة الزفاف أن ألعب دور الفحل في غياب زاهر إذ كان طريح الفراش ملؤه الشعور بالاحتقار والإزدراء لاضطرابي وهيجاني العابثين غير المجديين. تقمصت دوري وقد عقدت العزم بعد على فعل الشيء. ولكن كنت أعطف على النساء إذ كنت ممزق النفس كل ليلة بين الحلم والخطأ. وعندها كنت أستأنف ملامسة العانات الناتئة العظام لإناث هزيلات وأعود إلى ولوج أشدهن سمناً.

وجيء بالمبردات. وكانت سيول «شراب الليمون» تتدفق بين النساء، أما الرجال فقد كانوا يتغزلون بالراقصات المحترفات وذلك قصد «نيكهن» مجاناً فكانوا يسكرونهن «بالنزيتة» ويحمى وطيس حفلة الزفاف وينقلب القصف والمجون إلى شيء هائل مريع. فيأخذ المتسولون عند ذلك في رفض البقايا والفضلات ويطالبون باللذائذ وأحسن

المأكولات والمشروبات فكان كبار التجار يمتثلون لأوامرهم إذ يجدون أنفسهم أمام ذلك الوضع الثوري فيفوز رعاع المدينة وطغامها بالنصر المبين. وكنت كثيراً ما أتزعم ثورتهم ولكنهم كانوا يأبون الاعتراف لي بالجميل بتاتاً. فيحز موقفهم ذاك في نفسي أيما حز. إنه البغض والمقت! وكانت الوفرة تؤدي بنا في النهاية إلى حالة متقدمة جداً من الفتور والسبات العميق. وكانت أصوات القضاة الغليظة وهم يحمدون اللّه توقظنا فجأة مذعورين وتعرقل عمليات الزنا عرقلة كبيرة ذلك أن النساء كن متطيرات قبل أي شيء آخر، وإذا ما خفن من نار جهنم أصبحن عنيدات عصيات ويصير عند ذاك كل توسل لنيل أجسادهن أمراً لا طائل من ورائه!

ويكون الابتهاج الشديد! والمراحيض والبرقشة والفروج الغارقة في العرق والحناء والعيون السود كل ذلك ومحنة يما في استمرار دائم. كانت تعجن العجين وتطبخ الطبيخ وتعالج زاهر وهو يتضجر ويعاني الأمرين وقد وقع في ذهول وغفلة غريبين. وكان يتفق لي أن أكلمه فكنا إذا قبل أن يضع حداً لمناجاته لنفسه الغامضة المكدرة التي لا تطاق نقضي فترات طويلة من الوقت معاً: يعلمني فيها إبغاض الوالد (كان يقول ويكرر: لا تتردد؟ ينبغي الفتك بهم هو وصبيته والجنين!) كانت عيناه محمومتين وكان يرمي المحيطين به وهم في اندهاش بنظرة ملؤها الكبرياء والأسى. لقد كان يتخبط في تلك المطالبة الفظيعة وكان

بذلك يسليني عن جبني: كنا نفهم الألفاظ على حقيقتها فنطفق نتصور الجريمة المثلى. وكان زاهر وقد هدأ روعه يغفو غفواً وأما أنا فكان يخامرني خوف الجشع والسقم. وعبثاً كان الوالد يتأوه لذة يشخر فوق جسم زوجته الشابة الأملس، لن يكون في مأمن ولن يشعر بالطمأنينة أبداً. وكانت الأحابيل. لقد كنت أسب الدين بأعلى صوتي وأنكر وجود الله والدين والنساء. وكان زاهر يكره القبيلة كرهاً ويمقتها مقتاً ويبول في ماء وضوء الصالحين من القوم وقُراء القرآن. وكانت الكوابيس مليئة بالزنابير المتجولة في فراش العروس. وكانت اللحى... والعمائم... كان الصلحاء والقُراء مصابين كلهم بعاهة الحول وكان دأبهم غسل الموتى وكنا نلعنهم لعناً. وكان أخي يصرخ بأعلى صوته أثناء نوباته العصبية مؤكداً أنهم جميعاً من قوم لوط وأما أخواتي فقد كن لا يجتزن عتبة الباب إذ لم يكن في وسعهن المشاركة في المؤامرة وأما يما فقد كانت تتوارى متهربة.

كان سي زبير قد اشترى نظارتين شمسيتين لإظهار ابتهاجه العارم ولإبراز الدائرتين المحوقتين لعينيه علامة على أنه رجل قد نال أبلغ مبتغاه. وكان ذلك في الواقع يسمح له باجتناب نظراتنا وبمراقبتنا بدون أن يجلب الانتباه. وكانت حفلة الزفاف لا تزال متواصلة. وظل الشارع بأسافل المنزل تفوح منه رائحة الغاز الكربوني وكانت السيارات تكاد تنخلع وهي تمر على الطريق الوعرة المرصعة بالروث

المدخن في الشمس. إن هذه الغربات الهائجة الشبيهة بالقبور كانت ترتعد لمرورها دارنا على أسسها. ولكن لم يكن ثمة أي وعي اجتماعي! كل شيء كان في حالة تعفن وسيلان... إنها النتونة. واختل الوضع وفسد وأسودت آباط النساء وتقاطر منها العرق وخلع الرجال العذار وبلغت الحرارة منتهاها. وبال زفت الطرقات وتميع فسال منه سائل أسود قاتم وانكمشت دكاكين الحدادين على نفسها وقد نالها الكساد وامتدت إليها أصداء الحفلة. ولم يبقَ إلاّ صناديق الفواضل السمينة تتصاعد منها رائحة الخراء وهي منتصبة شاهداً على الثروة واليسار. وكانت المآكل والأطعمة... والتجشؤات الشنيعة يلفظها قوم قد أثروا خلسة وعلى عجل... وكان الضرط يفرقع من بطون عائلات كثيرة الأفراد محترمة... وكان المنزل غارقاً في جو ملؤه الملوحة والمرارة، جو قد لزق بالمخلوقات وبالجوامد لزوقاً عنيداً فكانت الجدران تخضر له اخضراراً. ويفر الرضى والانشراح من كل مكان ويثقب أشد الوجوه تقطباً وعبوساً ويحمل الجدات السمينات على الثرثرة وقد غرقت أجسامهن في زينتهن القبيحة، ملوّحات بأيديهن متنكرات وقد أطلقن العنان لحلوقهن تبلع ولأفواههن تعبّر عن المتعة والإلتذاذ إلى ما لا نهاية له. وأما صناديق الفواضل فقد كان ذوو العاهات البدنية من المتسولين يهجمون عليها هجوماً إذ لا حول لهم ولا قوة على إرضاء رغباتهم مثل بقية زملائهم وكان أكثرهم مشلولين فكانوا

يزحفون على أربع فيبربشون بأعضائهم المبتورة في خراء ذوي اليسار. وكان من عادتهم أن يأتوا صفوفاً متراصة يظلعون زاحفين. وأما العميان فقد كانوا يبرزون فيما بعد وذلك لاجتناب الزحمة ولكن الكلاب كانت لا تنفك البتة عن مضايقتهم وتبول على أيديهم. وأما النساء فقد كن لا يفرطن من وراء النوافذ المشبكة بالحديد في أدنى جزء من ذلك المنظر المضحك المطرب. وقد اضطررنا ذات ليلة حتى على استدعاء الشرطة لأن أحد العميان قد مات مخنوقاً. لقد وجدناه ممدوداً على الفضلات القذرة وقد شد بيده على أير مشوه الشكل ما زال يتقاطر منه سائل غريب مبهم. وفي الحين غزا الرعب قلوب الإناث فانقطعن عن التجرؤ على مشاهدة مآدب العرجان والعميان وتقيأن تلك الليلة فلفظن كل ما أكلنه طيلة الحفلة كلها وأصبحت الدار تتضوع منها رائحة القيء وانخفض عدد النكحات إلى نصف ما كان عليه. وأقام القضاة صلاة الجنازة في عين المكان الذي توضع فيه صناديق الفضلات في العادة بعد أن غسلوه وطهروه بالماء. ونهق القُراء ببعض الآيات القرآنية ترحماً على روح الصعلوك، وداخل الموت حفل الزفاف وبلغت المهزلة أوجها حين تنكر الذراري في هيئة أشباح الموتى وأخذوا في مطاردة النساء حتى أصبحن يعتقدن بأن الميت قد بعث. وأصبن جميعاً بداء اليرقان من جراء الرعب فانطلقن موكباً ماشياً لاستشارة أحد المشعوذين! ولم يترفع عن كل هذا الاضطراب والبلبلة إلاّ الوالد فحسب. لقد

خرف خرفاً تامّاً ولكنه متى عثر على أحدنا عاد إليه وجهه الشارد المعاند فيقطب حاجبيه ويمعن النظر فينا من وراء نظارتيه السوداوين إلى حدّ يجعلنا نتلعثم من شدة المباغتة. فهو لم يفقد عقله إذن بل هو مستمر في التكثير من تناول العسل واللوز المقلي (فالوسوسة الجنسية ما تزال مسيطرة عليه) ويدشن كل يوم جبة جديدة لماعة اتخذت من الحرير الخالص تسقط على ركبتي ساقيه فتغطيهما. وكان من شدة شغفه بالتأنق يحلق أسافل ساقيه. كان قصير القامة قوي الظهر وكان وجهه يتدحرج على ذقنه وذلك بسبب زائدته الأنفية الممتازة بضخامتها والتي كانت تطمس كل شيء. كانت عيناه مغضنتين غارقتين في شحم جفنيه الضخمين وكان متى اجتاحه الغضب توقدت حدقتا عينيه فيجمد بذلك مخاطبيه. لقد كان في ذلك قوته! وأما زبيدة عروسه فقد كانت شفافة الألوان وكانت تساندها على الدوام جماعة من الزنجيات العجائز يقتفين أثرها حيثما حلّت ويشرحن لها السلوك الذي ينبغي أن تسلكه مع زوجها فكانت هذه التربية الجنسية التي تلقتها تلك البنية الصغيرة تكتسي هيئة الكابوس. ولم تكن هذه العروس تشارك في حفل الزفاف إلاّ في فترات متباعدة وكان زاهر يصيح مذيعاً في كل مكان بأنها صارت تحبه حباً عابراً. وظن القوم أنه صائر إلى الجنون. ثم انقطع فجأة عن الكلام. وكنا على وشك بلوغ نهاية الحفلة. كان العازفون اليهود بدورهم يطلبون من النساء العطف والمجاملة فينالون من ذلك قسطاً إلاّ أن

النساء لم يكن يذهبن إلى أبعد من ذلك إذ لكل جنسه وعنصره. فكان ذلك يحز في نفوس العازفين أيما حز وقد نغص عليهم أمرهم علاوة على ذلك عماهم. وشد بعض المدعوين رحالهم. وكان الجو يبشر بأن الوداع سيكون شهوانياً للغاية وأما أنا فقد كنت مسلوب اللب سلبه تشمم رائحة النساء اللائي عرفتهن عن كثب. وأما يما فقد كان يغمى عليها مرتين كل يوم وأما أخواتي فقد كن يتعدين حدود اللّه مع أبناء أعمامي. وكانت البلادة والحماقة. وحان وقت التوقف.. لم يعد أحد يطيق الحالة ما عدا الوالد وقد برز من جديد في قوة وبأس كنا نذهل لهما وندهش. لقد كانت السعادة تنز من جسمه نزاً وكان كثيراً ما يتفق أن يراوده النوم وهو واقف لفرط ما كان راضياً عن حظه مسروراً به وكان أعمامي في تلك الأثناء يغتنمون هذه النعمة الطارئة لتجريد الخزينة مما فيها من نقود ولتزوير الحسابات.

وسقط المنزل بمجرد انتهاء الاحتفالات في سبات عميق. ورجع سي زبير إلى متجره واستأنف استبداده وطغيانه. وعادت زبيدة فاستقرت من جديد بالفيلا الخاصة بها بضاحية «البيار» وكفت يما عن الاعتناء بزاهر واستمر زاهر في الحقد على الجنين وبقي لغز هذا الجنين في نظر الجميع لغزاً مطلقاً. وشيئاً فشيئاً استعادت القبيلة عاداتها. لقد كانت النساء منهوكات القوى ففقدت مشاجراتهن جزءاً من شدتها واحتدامها المعهود ولم يبقَ فينا من آثار الحفلة

إلاً هذا الفتور العظيم الذي كنا نشعر به يدب فينا دبيباً حتى يبلغ عضلاتنا ذاتها. وأما يما فكانت تفضل السكون والحذر. وكان فصل الصيف كالمستهلك وقد استوى في فصل شتاء سابق لأوانه فصرنا لا نعرف أحوال الطقس بالضبط. وأصبح الصمت قاسياً فظاً وقطع الأحاديث الشبقة الوقحة التي غمرت المنزل طيلة أسبوع كامل. وكان الأعمام يتكلمون بصوت خافت (ترى ما كانوا يدسون؟) وكان الصبيان قد انقطعوا عن التهريج فمكنوا بذلك النساء من الظهور بمظهر أحسن في سلوكهن وكان ضرب من الضيق قد حلَّ بيننا. ولما كنت لا أفهم ذلك فقد كنت أظن الظنون وراء الظنون قصد الخروج من ذلك المأزق. وكانت الرقى المؤذية وكان الهدوء والسكينة. كان زاهر قد اتخذ هيئة أحبار اليهود فأرسل لحيته وشاربه. وكان يكد ويجد ولا يني في سبيل جعل الجو جواً مخنقاً وكان يحبس نفسه في حصن حصين من الصمت المحتوم. أجل إنه زاهر ذلك الرجل الذي كان يطيب له أيما طيب الأطناب في الأحاديث السفسطائية المطولة الخاوية من كل معنى، إنه هو بعينيه الذي انقطع عن خطب الوعظ والإرشاد، ولشد ما كان يدهشني منه إلى حد التلعثم والاضطراب. لقد كنا جميعاً مبقورين، بقرنا الموت واخترق جلودنا. وكان أخي يقوق كالدجاجة ولا يبرز للناس إلاً مرتدياً جبة طويلة الأذيال مرصعة بالثقب ومنقعة بالشحم فكان يتبختر مختالاً كالطاووس الساعات الطوال في زيه ذاك الغريب محركاً

مروحة بدون هوادة ولا انقطاع رغم برودة الطقس وهلاك جميع الذبان. ولم يكن أحد ليجرؤ على التدخل في أمره، غير أنه من أبرز خصائص تصرفات أخي تلك أنها كانت تثير حنق قطط المنزل فتطفق في إبراز مخالبها بدون انفكاك تاركة أحضان النساء فتزيد في شقائهن أكثر من أي وقت مضى. لقد كن يجتمعن ويتآمرن تآمراً حقيقياً لا يتفشى عنه أي خبر رغم انتباهي المتزايد فلا شيء إلاَّ بكرة البئر تصر صريراً في استمرار فتحدث دوياً مشؤوماً. وانقطع الماء عن المسيل بمثل السخاء الذي كان يسيل به من ذي قبل. وأما شمس الخريف فقد كانت أشعتها تدخل حسب زاوية مستقيمة فتلج عيون الذباب القليل المحوم ارتياحاً وطرباً. وإذ ذاك كنا نفهم أن الساعة هي منتصف النهار. كان زاهر يغادر فراشه ويعود إليه في غير انتظام وكنت أجتنب ملاقاة أخواتي وأما بنات أعمامي فإنهن لم يعدن يفرجن ما بين أفخاذهن في جلاء ورياء كما كان ذلك لما كن يجلسن على الأرض مباشرة. وكانت القبيلة تتهافت وتتلاشى وهي تسترجع ما فقدته من الحياء والخجل، بعد ما تعاطته من مجون لا ينسى. وكان النور يفقد شيئاً فشيئاً من إشراقه. وأما دماء حيض النساء فإنها قد فقدت ألوانها الجميلة الشهيرة شهرة أساطير الأولين. وكان جميع النساء قد أصبن ببعض الأمراض الخبيثة السرية وكانت استيقاظاتنا ترجع إلينا آلام الأمس وصمته. وأما يما فقد كانت متسترة ملازمة غرفتها.

كانت غرفتي (وهي غرفة أمي في الوقت نفسه) تحتفظ ببرودتها رغم حرارة الشمس، فدوي الترامفاي الذي يمر بأسفل منزلنا: بقعتان من الظل على قماش الستار المتخذ من التول الأبيض. وعلى الأرض فيض غزير من الألوان المتداخلة (من أخضر إلى أحمر...). كانت الألوان تحزز الجليز تحزيزاً عميقاً، وكان زاهر يفضل النوم من جديد. الأصوات تصدع الجو تصديعاً. دوي الشارع يدخل الدار منجماً، صيحات الباعة: أووه! أووه! (إنها صيحة شحاذ السكاكين). جعجعة رحى آتية من بعيد وصوت شبابة. نعاس بين الآونة والأخرى ورائحة المستشفى والتعب. إن صبيان الحي قد نصبوا أحبولة: كانوا يتظاهرون باللعب البريء ويتحينون أدنى غلطة يغلطها بائع الغلال فيختلسون بطيخة ضخمة جداً ويرتعون ويركضون ويقهقهون ويقتسمونها في عقر أحد الأزقة التي انقلبت بوالات. إنها لذة الفرار ومتعة الولوعين بالسرقة. أما البائع فقد لاحظ كل ذلك ولكنه تظاهر بالتشاغل بشيء آخر وذلك لكي لا يضطر إلى الجزيان لمطاردة هؤلاء الغلمان وهم أخف من البرق ولكي لا يعرض نفسه إلى سخرية زملائه. ولما كان الشارع ممنوعاً علينا فقد كنت لا أغادر النافذة البتة. اهتزازات بلور النافذة اهتزازاً خفيفاً عند مرور عربة الترامفاي. دخان باعة المرقاز ومناضد الباعة المعروضة في الهواء الطلق والعفونة السيالة المغشية لجوانب البوالة العمومية المنتصبة أمام دارنا بالضبط. وبالقرب منه يقوم المسجد الصغير

تسكنه العناكب والرتيلات ويغشاه مؤذن خجول لا يجرؤ على رفع صوته عند الآذان. الصلوات. اللّه أكبر. القباب تلو القباب في منتهى البصر... الهياكل، والغرابيل والسطوح البيضاء والسطوح المغراء والسطوح الزرقاء. الصرصرة. الاختلاجات... ززز! ززز! هذا طنين اليعاسيب؟ أهو الصيف أم الشتاء؟ (من يدري؟) الدكاكين المبرقشة بمختلف الألوان. إن بعضها لكأنه لابس لبوس المأتم والحداد (ولكن ترى مأتم من؟) جموع الناس. كانت الحركة تبدو من عل أشد سخافة. الباعة المتجولون يتحاشون الوقوع في قبضة رجال الشرطة. ورجال الشرطة يطاردونهم. لحاف أبيض (مجرد إيحاء!) يخترق من حين لآخر الكتلة التي لا شكل لها ولا قوام. عينان سوداوان كحلهما الكحل وفيهما حول طفيف! إن الرجال يعشقون ذلك وتزور له أنظارهم في حدود ما يسمح به الدين. تخلع الخواصر!. وضوء المرأة (دائماً نفس الإيحاء). فمع ذلك: رقة ولطف. كان كل شيء شفافاً. الوقت يمر. لا شيء أشد كآبة من قضاء آخر النهار وأنت مطل من النافذة. إن زبيدة أسيرة في قعر «فيلتها». بعد حين ستظهر الأرافي في الليل وقد بدأ يسحو. هل أنزل بحذر وأذرع الأرصفة جيئة وذهاباً حتى يأخذني العياء ثم أعود إلى المنزل الجامد؟ كلا! إن في ذلك لكثيراً من الجرأة. فقد يصادف أن يباغتني الوالد أو أن يخرج الأعمام في طلبي، لا ينبغي إن أمكن العائلة من الفرصة التي كانت تنشدها لتخرج من

المأزق الذي كانت تتفتت متعفنة فيه منذ أن انتهت حفلة الزفاف. لقد كانوا خائفين إذ إن يما ستخلق لهم مشاكل لا محالة! ولو كان ذلك انتحاراً أو فراراً من المنزل لكان أمراً هيناً أما أن يكون الزنا فلا! ومن ذلك وجب إذن حراستها ومراقبتها مع التظاهر بعدم الاهتمام بالأمر ثم الهجوم عليها بغتة وتسليمها حية إلى رئيس العشيرة. وكان أعمامي خائفين إذ لو اقترفوا أقل هفوة لطاردهم سي زبير بل ولقتلهم. يا لهم من أنذال! إنهم لو فعلوا لما نجوا من العقاب، هؤلاء الأعمام القرع! لقد أصبح كل شيء واضحاً: فالعلة هي الخوف من حدوث الزنا. وقبل أن يبتوا في طريقة العمل النهائية كان ينتابهم سكون وتفكير عميق. لقد كان أعمامي جهلة أميين جشعين أشراراً يتلذذون بقسوتهم على الغير، وكان والدي أخوهم الأكبر يهيمن عليهم هيمنة وهو ذلك الرب البطين الذي كان يسحقهم سحقاً بفضل ثقافته العصامية إذ تكون، بين ذراعي إحدى عشيقاته وقد كانت تحترف التمريض، وهي علاوة على ذلك بنت من بنات أحد كبار المعمرين. لقد كانت مدموازيل «روش» هذه تحبني كثيراً فكانت تتخمني بالشكولاطة وتتمتع بذلك الكسكسي الرقيق جداً والشديد الحرارة الذي كانت أمي تعده لها. وعندما كنا غلماناً صغاراً كنا نباغت الوالد مع ممرضته. لقد كان يلذ له ويطيب أن يطقطق مطاط جواربها وهو في صميم درس النحو الفرنسي. وكان يلذ لها ويطيب أن تدعوه بلفظة «سيدي» وأن تقبل يده إجلالاً

واحتراماً. وفي الحقيقة فقد كانت هائمة بهذا الرجل تاجرها الغني ذلك النكاح الذي لا يني، المتفتح تفتحاً كبيراً على الثقافة الفرنسية رغم تعصبه تعصب المسلمين الإقطاعيين ورغم تعلقه بمفهوم القومية تعلقاً بلغ منتهى الحدة والشدة. وأما نحن فكنا نعشق ممرضتنا تلك شريطة أن تقدم لنا شراب السكر، نعشقها ببشرتها الشحمة الحمراء وبموقفها المعادي للعنصرية وبنهديها البارزين على الدوام تحت أقمصتها النقية الناصعة (ترى هل كان ذلك مأتى تلك الرائحة التي تخلفها دائماً وراءها، تلك الرائحة الشبيهة برائحة اللبن الغليظ) وسرعان ما يسيطر الوالد على اللغة الفرنسية ولما كانت قدمه راسخة بعد في اللغة العربية فقد امتدت سيطرته على كامل القبيلة فسحقتهم سحقاً. وأما الأعمام فقد كانوا يزحفون على بطونهم فلا يجرؤون على رفع أصواتهم أمامه لا سيما أن الوالد قد هيأ لنفسه الأسباب لنهب جميع أموال العائلة وذلك بأن تحالف في الإبان مع السلطة الاستعمارية. ولكن عصابة الأعمام كانت في دهاء ومكر تثأر لنفسها منا نحن ذرية ذلك الرئيس الرهيب، المكروهة الممقوتة، وكانوا يبلغون في ذلك مع أمي إلى حد الاضطهاد؛ لقد كانوا يحتقرونها لأن موقفها من هيمنة سي زبير كان مثل موقفهم هم منه. وكانوا إذا انعدمت نجاعة طعناتهم الخفية لها وأعمالهم الدنيئة إزاءها يقررون الانقطاع عن توجيه الخطاب لها. وعندما كانت تضرب حولهم الحصار مطالبة إياهم بالصفح عنها تشك في

إمكانية حصول ذلك ولا تناله إلاّ بمناسبة كبار الأعياد الدينية. وكان أكبر أعمامي ذا شراسة وفظاظة خاصة. كان دائم الحك يحك جلد رأسه ويغطي رأسه بشاشية ضخمة جداً قرمزية اللون كانت تنزل على رأسه إلى أن تبلغ حد حاجبيه وكان يفعل ذلك لإخفاء قرعته. وكانت تسليته الوحيدة تتلخص في إثارة إعجاب نساء الدار العظيمة وأطفالها وذلك بأن يؤدي فريضة الصلاة بصوت عال. وكان يبالغ في الأمر بطبيعة الحال ويزيد من عنده فمن وضوء صاخب إلى رفع عقيرته بصوت عال. كان يطيل في ذلك عمداً للاستزادة من التمتع فكان يلتذ كالملتذ بالفرج تماماً لرؤية زوجات أعمامي وهن معجبات بورعه وتقاه فيحمحم طرباً. وكان عند انتهائه من الصلاة يسجد فيطيل السجود ويقبل الأرض ويتمتم ويتلعثم ويوشك على فقدان رشده وينهي ذلك كله في همهمة مبهمة غامضة فكانت النساء يتهيجن بذلك إلى أبلغ حد. وأما أنا وأخي فإننا لم نكن لننسى ضغينتنا فكنا ننشر أعلام الفرح لرؤيته وهو على تلك الحالة ضعيفاً سهل المنال. أما هو فلم يكن يقتصر على ذلك بل كان بمجرد انتهائه من الصلاة ينتصب في قلب صحن الدار ويأخذ في فرك حبات سبحته بين أنامله حبة حبة مدلياً لزوجته بنصائحه بشأن طريقة طبخ طعام العشاء. وكان يوقف قطط الدار عند حدها مانعاً إياها من ولوج المطبخ وكنا نحقد كثيراً على أمنا لأنها كانت في مقدمة من كانوا يجلون ورع العم وتقاه الشديدين ذلك أن

مثل هذا القدر من إيمانها الساذج كان يبعث في نفوسنا الارتباك والبلبلة: فما أجمل الدين واللّه! وللّه در العم ما أمهره في الاضطلاع بأمور الدين!

لقد كنت مدركاً أسباب ذلك الهدوء المؤقت الذي حدث بغتة. ذلك أن القوم جميعاً كانوا خائفين. كان من اللازم لهم أن يضعوا خطة محكمة بعد التأمل وإطالة التفكير. فكانوا يطيلون التشاور فيما بينهم حول الإجراءات اللازم اتخاذها. وكانت يما لا تفهم شيئاً إطلاقاً فيما يخص الأمور التي كانت تحبك حولها. فكانت منصرفة إلى قضاء حاجات المنزل حتى إذا كان الليل طفقت تهذي شبه هذيان وإذا ما حلّت القائلة صنعت لنفسها أحلاماً لطيفة. لم يكن ليما أية شخصية قوية ولم يكن لها حتى طيف إرادة بل كل ما في الأمر الخضوع والاستسلام. ولم يكن خمول عزيمتها الذاتي يدخل الشك في نفسها. كانت تنصرف بدون هدف واضح. وتتراجع فتصادف قلب جملة من الجمل فتطلب منا أن نكرر لها ما قلناه آلاف المرات وتقول إنها لا تدرك معنى كلامنا حق الإدراك. كانت تضحك أيضاً ويحمر وجهها احمراراً وكانت تصاب على الدوام بشيء من الهوس (أهو انقطاع الحيض عنها؟) كانت تترنح في مشيتها. وتعانقنا أحياناً وأحياناً تنفر منا وتدفعنا عنها وتشهق باكية منتحبة. ثم إنها بعد عرض نفسها على أنظار الناس بما فيه الكفاية كانت تتناول سبحتها فتحمد اللّه ألف حمد وتشكره ألف مرة على رأفته ورحمته. وكانت توقد

الشموع على سبيل النذر وتنتن رائحة المنزل بأن تلهب في كانون ضخم محمر الجمر نباتات كنا نصاب بصداع أليم لرائحتها الكريهة. فكان زاهر يبرق ويرعد لذلك. يا له من سحر شيطاني! ويا لها من تخميرة خاوية من كل معنى! فكان الخوف يراودنا على أمنا وقد دخلت في طور غريب فأخذت تبتسم بدون سبب بين الحين والحين. لقد صرنا نكاد لا نثق بأنها هي هي لشدة ما أصابها من البله. أكان ذلك مجرد تصنع ورياء منها؟ لا أبداً. لم نكن لنعتقد ذلك البتة! بل غاية ما في الأمر أنها كانت تهيء نفسها لاجتناب طعنات الأعمام وذلك بأن تباغتهم فتقطع الطريق في وجوههم. وكان زاهر قد وقع في فخ صمته الذي أصبح صمتاً مأساوياً كانت أمنا أهم ضحاياه ولكنه كان يقسم في تعنته وعناده بأنه سيصمد إلى النهاية. فكانت المؤامرة الكبرى تنقلب كارثة عامة: أما السلاحف فكان يصيبها الغم وأما الرضع فكان يعتريهم انشداه عظيم فلا يتجرؤون على البكاء وينعدم كل شي. النسيم لم يعد يصل إلى وجوهنا المتعطشة إلى أدنى نفح من البرودة. ويطول الانتظار وينتاب يما الخوف من أن يقرر القوم فجأة إعدامها بتسرع. وكان زاهر أول من حطم قيود القمع. فقد أفاق فجأة من جنونه وانقطع عن التسكع في المنزل وأصر على التنزه وحيداً بالمدينة. وكان عند رجوعه ليلاً إلى المنزل يخلق حوله جواً حقيقياً من الحيوية وذلك بأن يقص على النساء الحبيسات أدق تفاصيل ما رآه من أمور. وكان يجتهد في

رواية ما طاب له من الكذب ذلك أنه كان يعلم أن النساء لا يعرفن المدينة التي يعشن فيها. ورجعت المياه إلى مجاريها بصورة تدريجية فاسترجع الذكور ثقتهم بأنفسهم واسترجعت الإناث وشاياتهن يتبارين فيها بغية إرضاء أزواجهن. ولم يحتفظ بهيئته الأولى إلاَّ الحيوانات فقط. ولما كانت أمي محكوماً عليها بألا تغادر المنزل إلى يوم وفاتها فقد كنا جد قلقين لفكرة ذلك الاحتضار الذي سيستولي علينا ولفكرة ذلك الحب الأمومي الذي سيبتلعنا ابتلاعاً. لقد سدت السبل وانقطعت المنافذ.

كان زاهر يتجول في أنحاء المدينة فيرى التموجات الرمادية والاهتزازات المعدنية وخطوط الطريق الصفراء. ولا تثبت المدينة إلاّ مدى ما تستغرقه قعقعة خاطفة كالبرق عند مرور قطار متوجه إلى بلدة «البليدة». وما البحر إلاّ امتداد لزج يتغيَّر لونه بحسب تغيُّر نشاط الأسواق. إنه يتسرب إلى أن يبلغ قلب الشوارع الكبيرة ويلطخ النيون فيحيله إلى أيونات محطمة لا جدوى لوميضها الفسفوري وتعوزها الذلاقة الخاصة بالحركة. البحر في مده وجزره الأزليين يتحول عندما يبلغ النهار أشده فإذا هو تأجج صاخب، ويقصى الهضاب بعيداً حيث ترى العمارات ذات الأسلوب المعماري الطلائعي تحدث ضرباً من التشويه الكثيف. ويفيض البحر على الأرصفة حيث ترى العاطلين يهملون أعقاب السجائر باحتقار للتمكن من تركيز ذهنهم على أحلامهم ألتي تتصور لهم في هيئة سفن تحملهم إن شاء اللّه إلى كبار المدن الفرنسية حيث يصبحون طغاماً من العمال يدخلهم سم الطمع في ارتقاء درجات السلم

الاجتماعية. والبحر يلحس في لمح البصر ذلك الخليط المتراص من الفلوس والصفائح الحديدية البارزة في الهواء الطلق مهدداً الشمس في ثبوتها وعدم حركتها الغريبة، ويسرع البحر في حركة جزر للتمكن من إحكام حصر المدينة وتضييق الخناق عليها ولكي يفرض عليها أبعاد مقاييسه الذاتية فيعصرها عصراً ويغمرها فتكتظ به، البحر متى وصل إلى الميناء فواجهه استحال إلى شيء لا يطاق ويهدد القصبة بالخناق ويحملها على التصاعد في متاهات ملتوية ثم يفضي فجأة إلى سجن «بربروس» في استدارته الجبارة التي كانت كأنها تمدد عمداً انتظار أولئك النسوة اللائي اصطففن أمامه بدون انقطاع منذ الثامن من ماي 1945 ويمررن بين الحراس الكورسيكيين فيفتشونهن وهم لا يحلمون إلاّ بتجريدهن من أخمرتهن البيضاء التي يلقي بياضها عليهم رشاشاً جنسياً. البحر يحسد تلك المآذن المرتدة التي ضاقت ذرعاً بصلبانها التي ابتليت بها لسوء حظها. البحر يخول للحمام الوطني الغيور أن يلوث كل يوم تلك المساجد القديمة التي اضطروها إلى التنكر فألبسوها لبوس الكنائس. وفي نهاية المطاف يهدأ البحر ويترك جميع مطامعه ومطامحه وعندها تسترجع المدينة تفوقها عليه فتطلق العنان لأضواء المرور الخضراء والحمراء والصفراء وتنفجر بجميع أنوارها وتخلق نشاطاً متصنعاً، الغاية منه إثارة دهشة الفلاح البدوي العربي الذي لا يعرف كيف يخترق الشوارع في الممرات المعلقة بالمسامير

والخاصة بالراجلين، وتضفي على وجوه المارة ملامح من قرون المستقبل وتبرز تقاسيمهم في هيئة أشكال هندسية وتلصق على أوجههم رسوماً دائرية مختلفة الألوان والأشكال وتصبغها بألوان كدراء. وتتناوب السيارات على قارعة الطريق اللماعة المتوهجة من جراء زوابع الخريف الأولى ويغطي دويها الصياح المنبعث من المقاهي حيث الأطفال المريضة عيونهم يطلبون الصدقة ويجرون وراءهم علباً من الزنك مربوطة إلى طرف خيط تقوم مقام اللعبة عندهم.

وكانت المدينة في تلك السنة في حالة تفتح وازدهار تعرض على عين الناظر حظائر بناء شعثاء كانت رافعات الأثقال تشيد فيها عن طريق الاختلاجات الكهربائية سقالات متشعبة يخيل في كل آن إلى الناظر إليها أنها موشكة على السقوط في البحر المغري الذي كان يترصد في كل منعطف من منعطفات الأنهج السائح الساذج الذي يريد أن يملأ منه وطابه. ولكن السياجات الخشبية المزركشة بالمعلقات المتدفقة الألوان تدفقاً يبدو كأنه قد انبثق من المادة ذاتها كانت تحول دون إطلاق النظر. وتعود المدينة فتستقر في حالتها العادية التي كانت عليها دائماً أي إلى تجمع مائج من المساكن تدور حول نفسها وتفوح منها رائحة البحر أبد الدهر. وبالأسافل من ذلك المكان، أي في منطقة الميناء تجد الهدوء شاملاً والأنهج سيئة الإنارة وعدد الحانات والخمارات والمطاعم الشعبية يضاهي هناك.

عدد السفن. فترى الصيادين يأكلون فيها السمك ويشربون الخمرة الحمراء ويدخنون «الكيف». وفي بعض الليالي كانوا يسكرون حتى يفقدوا رشدهم ويتفضلون بقبول نكاح بعض البحارة الأجانب وباعة السجائر من الأطفال الصغار. ها هو ذا الحبق الأزرق والجدران المغراء اللون. إن رجال الشرطة متواطئون في القضية فهم يحترمون أحلام المستهلكين. إن المدينة لتموت هناك إذا حكمنا بالاعتماد على ارتداد أمواج البحر القريب كل القرب من هناك. وها هي السياجات الحديدية القائمة بمدخل الميناء قبالته تماماً. إن الدوي والصخب والضوضاء لمدفوعة قسراً إلى مستوى الكوابيس ثم رائحة الزيت يغلي في القدر حيث تراهم يرمون قبضات ضخمة من الأربيان الوردي اللون. إن الرجال لناعمو البال فاترون في دفء. وفوق الشرفات، هناك دائماً عازف على القانون رابض في الطابق الأعلى. إن الاضطراب لا يبلغ إلى هنا أبداً حتى عند تفريغ السفن من حمولاتها. فالمدينة في هذا الوضع تبدو كأنها خيالية مطموسة المعالم: فهي كما لم توجد قط! والببغاءات الصغيرة لها أقفاص جميلة مذهبة. فيبرز الحديد المطروق من الظلام بدون سابق إنذار. إن عملة الرصيف لهزيلون عجاف، أجسامهم ذات عقد وفي لحيهم السيئة الحلق دمل. وقد اكتظ العرين الذي فيه يحلمون أحلام اليقظة في اطمئنان ولكن الأوجه تبقى متوترة: إنه انتظار الموت أو انتظار شيء شبيه بالموت. ويتشاجر المخمرون مع مدخني

«الكيف» بدون أن يرفعوا أصواتهم فيما راح بالعو سمك السردين يتراهنون. لا نساء هناك أبداً! إنهن يتعثرن في أوهامهن فلا حاجة لهن بالتناجي. يمامة! إن الأغاني هنا لحادة، جافة الوقع، ثم الروائح والعبير! ها هو ذا رجل يدخل أحد المقاهي ليس فيه إلاّ حصر للجلوس. إنه غريب الهيئة لأن رجليه ليس فيهما تلك الرائحة الكريهة علامة الانتساب إلى العصبة نفسها ورغم ذلك فهو ليس دخيلاً. إنه يحمل تحت سترته المتخذة من الكتان الأزرق موسى ذا فرضة توقيف، إنه لا يخرجه ولكن وجوده أوضح من النهار لكنه كان بخلاف ذلك يعرض على الناظرين علبة ثم يفتحها بحركة مسرحية: فيرى الراؤون مئات ومئات من الزنابير المتراصة ويغرق صاحب الموسى زمناً طويلاً في عد الزنابير وهو يضحك وحده، فلا يقلده أحد وعندما أرجع الرجل تلك الدويبات إلى علبتها لم ينبس أحد ببنت شفة وهز أحد الشيوخ رأسه فلفظ النفس الأخير فتركه القوم يفعل فعلته. ويمرر بعض البحارة الأتراك نصيباً من الحشيش على الجماعة. ها هي ذي الغليونات تدخن. وتمر آخر حافلة عمومية لتلك الليلة تحت نفق الكليات ولكن أحداً لم يسمعها: ذلك أن المدينة الصاخبة تفنى في نقطة ما بين ساحة البريد والبحر. إن المطاعم الشعبية مصنوعة من خشب مأروض أكله الدود وكان الدود الذي تعج به يأكل جميع ما يطرح على الأرض من نشارة مجعولة لتغطية قيء السكيرين، وكلما ماتت دودة التقطها أحد الشبان ووضعها

في جيبه. ها هي ذي شبه الظلمة الصفراء، وقلائد الياسمين. إن صاحب المحل رجل سمين لطيف. إنه من قوم لوط ولكن لا أحد يرتاب في أمره رغم هيئته وحركاته المتخنثة لأن منزلته من القوم قريبة من منزلة أب الجميع: وهو يستحسن كثيراً شعر زاهر في حين أني أجهل حتى وجود ذلك الشعر. في الخمارة بالذات كان أخي الأكبر يأتي للشراب إذا ما ساورته الهموم (وكانت الهموم تساوره على الدوام). معارك الجرذان على أرصفة الميناء. وها هي أضعفها تجري فتلوذ بالنجاة تحت أرجل الشاربين بالذات فيداعبونها بأعقاب أرجلهم. وتطفو قشور الموز على صفحة الماء فتراها العين ليلاً بفضل وميضها الفسفوري (أم ترى هل أن ذلك هو مجرد انخداع للبصر لدى أحد مدخني الحشيش؟) وها هو زنجي بدين يدخن النارجيلة وقد لف رأسه بمنشفة حمراء قرمزية ولكن لا أحد يأخذه مأخذ الجد. وها هي عصافير الكناري صامتة. إن السقف محلى ببعض صور النساء العاريات فعلى الحرفاء إذا أرادوا جلد عميرة أن يرفعوا أعينهم إلى السماء، فيمدد بحثهم عن لذة الفرج في تصوفهم، يا لها من أبهة، أبهة الفراغ والفوضى القابعين في الرؤوس. ويتناكح الذباب على قطعة بلور مرآة مهشمة إرباً إرباً يقوم صاحب المحل كل ليلة بجمع شتاتها وتلصيق أشلائها. ومع ذلك فالناس لا يتقاتلون في ذلك المكان أبداً ولا يقتلون الغير ذوداً عن الشرف. يا لها من مرارة. وكان كذلك يسمع الأنين وتسمع التأوهات في

المخارئ الدبقة حيث التغوط قضية عسيرة كأداء بسبب هشاشة ذلك العالم الشفاف المتأرجح في أذهان المدخنين (أم هل أن مرد الأمر هو مجرد صعوبات ناتجة عن أصابتهم بمرض البواسير). إن ثمة لشيئاً غير سليم وخيم.. إنه الخوف الموسوس من العناكب وهو بالزبائن أشد فتكاً من البطالة التي تترصدهم عند خروجهم من أحلامهم. ورغم ذلك فإن كل فرد منهم يحتفظ بحذره واحترازه، وما تفاؤلهم إلاّ كيفة يكيفون بها ظهورهم علناً في الحياة العمومية. ولكنهم يتذكرون كذلك وقد داخلتهم النشوة الكبرى فاخترقت نفوسهم من جميع منافذها أنهم قد فنوا قديماً وقد خارت قواهم من جراء بحثهم عن عشيقة متوحشة. ومع ذلك فلا حقد في نفوسهم البتة. فالقضية قضية قصص الحب والغرام ليس إلاّ (لقد قال عمر الشاعر المغبون الذي لا يعرفه أحد من أهل المدينة والذي سجنوه في مستشفى المجانين: إن الخمر لخال على خد الذكاء). إنهم يجرون بحماس عارم وراء المرأة وهي في نظرهم المذنبة المقترفة لجميع الآثام ومن أتعس آثامها أنها لا تملك ضميراً. هل كان هؤلاء العشاق الجامدون يضحكون في ملجئهم الأمين ذاك؟ كلا! كل ما في الأمر أنهم كانوا قد شدوا إلى تصوراتهم العنيفة رغم أبهتها في الظاهر. إنهم لم يعرضوا أنفسهم إلى أي خطر البتة. فتغدق عندها رائحة الحبيبة وقد شدت إلى عودها وإلى زوجها، لم تكن تستطيع الايتان ما لم يسيلوا الدم تكريماً لها. كانت ليلة جميلة.

وفي الخارج لا أثر لأية نبضة أو اختلاج. ولا تحمل إلاً سلعاً حربية. رائحة الأسفنج الطري وفناجين القهوة. أحد الصيادين يوشم صياداً آخر. وتزداد الروائح المتصاعدة من الميناء نتونة: إنها رائحة الأسماك الجافة وأحشاء القطط. وينقلب الماء فيستحيل إلى طعام مهضوم في الأمعاء. وينصرف أحدهم، وينظر آخر إلى صاحبه يكتب رسالة غرام على لسانه. ويرتل رجل قد جلس بعيداً عن الآخرين آيات قرآنية، وكلما غابت عنه كلمة عوضها بأختها: ولكن مجموع ترتيلاته يبقى متماسكاً منطقياً لأن في القرآن لنشوة وسحراً. ترى هل دخل زاهر أحد هذه المواخير؟ لم أكن والله أدري! فقد عاد إلى المنزل في ساعة متأخرة جداً من الليل ولكنه لم يكن مخموراً.

لم يكن أبي في الواقع إلاَّ مبتلعاً نصف ابتلاع، ابتلعه فرج زوجته الشابة. ولم يمنعه انقطاعه عن زيارة الدار التي تسكنها قبيلتنا الضخمة من أن يستمر في الهيمنة التامة علينا. ولم تعد يما تهمه فقد أهملها شر إهمال. وكان مطمئن البال متوكلاً على أعمامي. ولكنه كان يحذرنا كل الحذر. وكان يرى أن وجوهنا وجوه خونة قتلة. فلم يكن في وسعه أن يتركنا لشأننا إذ لو فعل لتآمرنا عليه أتعس المؤامرات. لقد بدأ يشعر أننا نطارده بمضايقاتنا واضطهادنا له. فقد كنا نمتص دمه وماله وحياته. وكنا نأخذه مأخذ الجد التام. وأما هو فقد كان كثيراً ما يدخل في أطوار جنونية لإحكام سحقنا ومحقنا. وعندئذ يصبح على هيئة يرثى لها. فكنا سرعان ما نشفق ونعطف بل ونأسف حتى على فساد نوايانا. أما زاهر فقد كان يصمد في موقفه ولا يتراجع ويصرخ قائلاً: «ألا ترون أنه يلعب دوراً من الأدوار ويجد في ذلك متعة واهتياجاً! انظروا كيف ينكحنا بلطف!»، وأما البنات فقد كان قلقه بسببهن أكبر وأعظم:

فقد تجاوزن سن البلوغ فأخذت صدورهن تبشر بنهود بديعة. لقد كن من المتعلمات يذهبن كل يوم إلى المعهد إلاَّ أنهن كن يرتدين الحجاب فكنا نحفزهنّ إلى المدرسة أربع مرات في اليوم وذلك رغم احتجاجهن وشكوتهن، إلاَّ أننا كنا نعلم علم اليقين أن خفرنا وحراستنا لا جدوى لهما بما أنهن كن يجدن اللذة الجنسية في داخل المنزل بالذات مع شرذمة أبناء الأعمام الشبقين الذين لا يحصى عددهم إلاَّ اللّه. وأما الوالد فقد أصبح من الحمق بمكان ويكثر من اقتراف أفدح الغلطات. لقد كانت وساوسه تثير في نفسه من الاغتياظ والقلق ما جعله يخشى الاعتداء على حياته. وحتى إذا ما بلغت البلاهة منه منتهاها صاح على رؤوس الملأ بأن الشر كل الشر آتٍ من أمنا التي كانت رابضة بالمرصاد من وراء طلاقها. فقد كانت في نظره غيورة متعفنة بل سحارة من السحارات! كان يستشهد أمامنا بآيات قرآنية تدعم نظريته في الأم ويضربنا ضرباً مبرحاً ويخطب مطنباً متحدثاً عن جهنم التي كنا نوعد. وفي الواقع فقد كان يشعر بالندم على فعلته. كان يجلس وراء مكتبه ويطلق علينا لعنته. وكان دكانه قد خلا من أهله بصورة عجيبة وأسلمنا عمال الوالد إلى شراسته وقد طفق يناجي نفسه مناجاة شاذة غريبة معتقداً راسخ الاعتقاد أننا جماعة من القتلة بالقوة ينبغي الاحتياط منهم. كان يتوعدنا بجميع المصائب فكنا نرتعد لذلك ذعراً ونصرخ بأعلى صوتنا لاهجين بمحبتنا له. حتى زاهر أصبح في وضع

متردد. فقد ضعفت عزيمته. وكان سي زبير إذ يرانا على تلك الحال من البلبلة والقلق يطلق العنان لغطرسته ويخشوشن طبعه ويفحش القول. كان ينعت يما بالقحبة المصابة بداء السيفيليس. ويفرك خرزات سبحته بين أنامله وباللّه يستعين ومنه يطلب الحماية. ويعلو وجهه تقلص مستمر حتى أصبحنا لا نعرفه. كان يزعق ويخور ويجلس ثم ينهض ويأتي بالأحاديث المشوشة المضطربة ويثقب الهواء بذراعيه المرتخيتين ويصفعنا على وجوهنا ويطلق التأوهات والشخرات ويحمحم ويبصق علينا ويكبنا ويلومنا على جبننا. لقد استقر في نفوسنا الذعر والهلع فأصبح من العسير على المرء أن يعرف هل نحن صبية أم شيوخ، لفرط انذهالنا أمام شطحات الوالد حول طفولتنا المدوسة. لم نعد نفكر حتى في الدفاع عن أنفسنا بل كنا مشدودين كمن شد بالمسامير إلى عينيه الشبيهتين بعيني ثعبان أعمى قد بلغ من السن عتيا. وكان إذا تحدث عن زبيدة يلين لحظة من الزمن بل ويأخذ في المناجاة ولكنه سرعان ما كان يتدارك الأمر ويعود إلى ما كان عليه. فكانت الصاعقة تهوي علينا فتصيب منا الكبد فتنقطع لذلك أنفاسنا. لقد كان كثير التكرار دائم الإعادة لنفس الحجج وكان إذا قنع بنصيب كافٍ من ضربنا يهجم على خزينة ماله الفولاذية فيلطمها بمضموميته لطماً. كان البغض يخز قلوبنا. فكنا نريد قتله وصرعه في الحال قبل حتى أن يخرج من هوسه المسموم ولكن لم يكن لنا حول ولا قوة على الأمر. لقد كان مفرط السمن بالنسبة إلى أجسامنا الهزيلة النحيلة.

كان يصيح فينا: «يا لكم من أدعياء بلداء.. تريدون خرابي ودماري.. تريدون قتلي وقتل زبيدة.. وقتل طفلها.. ثم الاستواء على جثثنا.. آه! ان الحقد ليذيب أكبادكم.. تسرقونني.. تنهبونني.. وتريدون أن تجعلوا من حياتي جحيماً.. يا لكم من ضفادع! بل ضفيدعات بل ضفيدعات أقزام! بل بعرات! أيها الكسالى البله الحمق اللقطاء والله لأزجن بكم في السجن ولأقطعن عنكم أسباب الحياة آه! طق! وينتهي كل شيء». وكان عندها يطفق ضاحكاً مقهقهاً قهقهة وحشية لا بشرية مشؤومة تنبئ بالكارثة ويتعذر عليه إيقافها فيهتز لذلك بطنه الفظيع اهتزازاً موقعاً وتقذف عيناه بنور قاطع ويتأرجح رأسه في جميع الاتجاهات. كنا نريد الضحك معه لإرضائه ولإظهار خضوعنا التام لرئيس العشيرة بدون منازع ولكننا كنا نتردد في ذلك خوفاً من إهانته وجرح عواطفه. ولم نكن نستطيع ذلك في واقع الأمر لأن الخوف كان يجعلنا نتلعثم فنفقد أصواتنا وينعدم من نفوسنا الشعور بمرور الوقت فنصبح لا ندري كم الساعة فكانت نفوسنا تترجرج لذلك تذبذباً. وكانت تلك هي اللحظة التي يصبح فيها بحثنا حاسماً فنبتغي وضع حد للقطيعة واسترجاع الأبوة كاملة غير منقوصة واسترداد الوالد وإعلاءه وإجلاله؟ كنا نرتجي في ذلك الجو المتوتر وضع حد للكوابيس الشاحبة الهزيلة وللتوقفات المضنية والخجل من النفس أمام الآخرين. لقد كان لزاماً علينا مهما كانت التكاليف أن نخضع من جديد

إلى القاعدة والعرف إلاّ أن سي زبير كان لا يرضى بهذا الجلاء في تفكيرنا إذ كان في نظره أقرب إلى الاعتداء على الكرامة منه إلى السلم التي كنا ننشد. فكان يستمر في التعنيف والتوبيخ وكان الدكان يتزعزع وينهار وكنا متى خرجنا من خطلتنا سرعان ما نسترجع حقدنا الحاد الذي كان يحتد بقدر ما كان الفشل أذرع. وإذ ذاك يصبح لزاماً علينا أن ننتحل التكلف والتصنع في السلوك وأن نتظاهر بالتوبة قصد التمكن من جديد من قطع الصلة بذلك الوالد الذي كان في نهاية الأمر رمزاً وشيئاً يكاد لا يلمس رغم الإرهاب والعنف اللذين كنا فريسة لهما كلما وقع بيننا اتصال ما. وأما هو فقد كان مستغرقاً في صخبه القاصف المدمر (من ضجيج وضرب..) فكنا نفلت جرياً بدون أن نكون قد استرجعنا أي نصيب من حقوقنا المشروعة. لقد ذهبت الروح منا وخنقت زاهر العبرة فكنت أحاول تسليته وإضحاكه بأن أقلد الوالد المقيت ولكن عبثاً فعلت! كنا نعود إلى المنزل وقد خارت عزائمنا إلى أبلغ حد وفي ساعات الليل المتأخرة كنا نطفق ضاحكين بدون أي سبب ظاهر ضحكاً متواصلاً لا يكف وكان الدوار يأخذ رؤوسنا فلا نهتم بذلك ولا نأبه به. وكنا نتمرغ على الأرض ضاحكين فتسرع يما لنجدتنا وتطفق ضاحكة أكثر منا فتفيق بذلك أخواتنا الشرسات الناعسات وتريد يما أن تعرف سبب جنوننا المفاجئ ولكننا كنا نصمت عن رواية القصة لها خوفاً من إزعاجها وإذعارها. وكان زاهر يخلصنا من

ذلك المأزق بأن يقص قصة من قصص المجون والاستهتار، وسرعان ما تستاء يما لذلك وتعود إلى غرفتها.
وما أن تنصرف الأم حتى كنا نقص على البنات مقابلتنا مع الوالد. فكن يشهقن باكيات من الغم فنقع في الفخ ونفعل كفعلهن. لقد بلغت الفوضى منتهاها وأصبح القوم في تململ واهتزاز. وعادت إلى زاهر شجاعته فصاح متهدداً متوعداً الجنين بأهول المصائب فكنا نتصور بديلات حقيقية تقوم مقام مقتل الجنين. فنحرق أرجل جدجد ونبخر جثته بإفراط حتى ينقلب على ظهره وقد خنقه الدخان المتصاعد من أعواد العنبر التي كنا نتركها تلتهب كامل الليل تكريماً له. وكنا في الغد نحاول أن نبعث الحياة في تلك الدويبة المسكينة ولكن بدون جدوى! وكنا ندفنه في جنازة ذات أبهة فيكون مآل ذلك الجديد المقدم قربانا إخصاب الأرض التي نبتت فيها شجرة الموز العقيمة. وفجأة كانت عينا زاهر تنقلبان فإذا هما زجاجتان شفافتان. هل سيكون مصيره العمى؟! أم ترى هل سيموت حسرة على الجدجد الزنجي البدين بل وحتى السمج؟ لم يكن في استطاعتنا أن نتصور بدقة مدى الاضطراب الذي كان يغشى نفس أخينا الأكبر ولكنه كان هو المسؤول الحقيقي عن هذه الأضحية.
كانت البنات قليلاً ما يشاركن في ألعابنا على أنهن لم يكن يصلحن في الحقيقة إلاً لخلق عديد المشاكل ويهددن برفع أمرنا إلى أمنا. ولم يكن موت تلك الدويبة الصغيرة ليمثل تقدماً كبيراً في حل القضية بالنسبة إلينا. فقد كنا لا نزال

نجهل كل شيء عن الجنين ذلك الشيء الذي لا صورة له ولا قوام. وكان زاهر إذ نضايقه بأسئلتنا الوثيقة الصلة بالموضوع ينتحل هيئة غامضة ماكرة لأنه كان في الواقع قد تجاوزه معتقده الخرافي الذي اختلقه هو. لم يكن يعرف أي شيء عن الجنين ولكنه كان لا يريد الاعتراف بجهله. وكانت إحدى أخواتنا تزعم أنها تعرف ماهية ذلك الشيء الخفي كاللغز وأنه لا ينبغي الحديث عنه. لقد كانت خبيرة بمادة العلوم الطبيعية وكان لكلمتها بيننا حظوة لا يستهان بها. ولكنها كانت متعنتة في إصرارها على أن لا تفسر لنا ما هو الجنين؟ فكنت أبحث عن القضية. ترى هل أن لفظة جنين لفظة بذيئة؟ كلا! كان ذلك جواب زاهر زاعقاً. ترى هل الجنين جزء من أجزاء فرج المرأة؟ ولا هذا أيضاً! ترى هل هو أشد أجزاء اير الرجل ارتخاء؟ كانت سعيدة تجيب قائلة: ولا ذلك أيضاً! كانت تقولها فيحمر لذلك وجهها فيقول أخونا الأكبر: إنها كانت تتعمد الظهور على تلك الهيئة من الاحتشام تصنعاً ورياء إذ أن بها من الخلاعة ما ينعدم معه الحياء والخجل. (ألم يرها وهي تكشف عن فرجها تعرضه على أولاد أعمامها الواحد تلو الآخر مقابل قطعة من الحلوى). فكانت سعيدة تنصرف فتدعنا لشأننا طيلة اليوم لأن وجودها في الحقيقة لم يكن إلاَّ مدعاة لتعقيد الأمور. وإذن لم يكن أي واحد منا يعرف ما معنى الجنين وأما القاموس فقد كان تعريفه لذلك اللفظ مبهماً غاية الإبهام شأنه في ذلك شأنه في غالب الأحيان. فكان

كل ذلك يثبط هممنا فتخور عزائمنا. ترى ما الذي كان زاهر يريد قتله إذن؟

كانت الأيام الموالية ثقيلة تعيسة فكان الألم يخز أضلاعنا ويستولي على نفوسنا الندم. فقد عذبنا في حماقة وبلادة حيواناً صغيراً من محاسنه أنه يحسن الموسيقى مصفراً بجناحيه. وأما الوالد فرغم الفدية وحرقنا لعوضه فإنه لم تؤلمه رجلاه إذ لم نتمكن من إحراقها فعلاً. إن لأبي زوجتين شرعيتين وعدداً كبيراً من العشيقات. وهو يستيقظ على الساعة الرابعة صباحاً لأداء صلاة الفجر. وهو من القائلين بالحريم وإذا تحدث عن الهنود من السيوكس قال بهيئة رسمية في أبهة: إخواننا الهنود! فكان يعرف بذلك كيف يفطر أفئدتنا. ولكن اعتناقه لذلك المذهب كان لا يدوم طويلاً، وسرعان ما كان يعود إلى هيستيريته الأولى وينسى قصصه المعسولة وهنوده المقتلين وإلآهه الرحيم ويضربنا ويزأر حولنا زئيراً. وكان بين النوبة والنوبة يهدأ هدأة وقتية فنغتنم تلك الفرص لنضحي بجدجد أو صرار أو بنت وردان. لم نكن نفضل دويبة على أخرى بل كان اختيارنا موكلاً إلى الفصل الذي كنا فيه من السنة والأمر الوحيد الذي كان ذا أهمية هو اختيار اللون وكان لا بدّ لنا من دويبات سوداء اللون. وفي الواقع لم يكن يطيب لنا إراقة الدماء وكنا فيما يتعلق بطقوس العملية وشعائرها نقلد أعمال أمنا التي أصبحت خبيرة بفن السحر. وكانت محنة تلك الدويبات لا تدوم طويلاً بالنسبة إلى مدى ما كنا

نقاسيه في دكان سي زبير ذلك أن حصصه معنا كانت تدوم أحياناً يوماً كاملاً، كان يقوم خلاله بحركات تهريجية مضحكة فيخرج لنا لسانه احتقاراً أو يجيب عن أسئلته بنفسه وكان ينهار ويلطم جمجمته الصلعاء ويزأر زئيراً فلم نكن ندري هل كان فيلاً أم أسداً أم قطاً أم جملاً أم صراراً؟ وكنا من شدة تخميننا وافتراضاتنا في ذلك نفقد رشدنا. كان يتهمنا بالسرقة وكأن اتهاماته موافقة دائماً للحقيقة! ولم يكن لنا ما يسعفنا بظروف التخفيف وكان بذلك عليماً ولهذا يغتنم تلك الفرصة اغتناماً ويستغلها إلاَّ أنه كان يخشى الفضيحة فلا يتجرأ على الزج بنا في السجن. فشرف العشيرة كان معرضاً للخطر. ثم أنه كان يعيد الكرة فيقول إنه يعرف كل شيء وأنه متيقن من كل شيء. يعرف أن يما كانت تدس الدسائس وتحبك الأحابيل ضد سعادته وأنها كانت تمقت زبيدة وتريد سحرها. كان يتباكى لذلك عشقاً ويخرج عن طوره أمامنا بدون تحفظ. فكنا بذلك نصبح شركاء متواطئين معه في القضية. وتبرق عيناه ضياء فيصبح بينه وبين «نانا» قطة يما شبه وتماثل. كانت عيناه إذ ذاك كعيني القطة المذكورة إذا ما انتهت من ابتلاع أحد الجرذان أو من لحس أسافل بطن أمي. وعندها كانت حاله مما يرثى له حقاً، فيفقد نصيباً من بأسه وبطشه ويأخذ في التغنج والتدلل مثل سيدة القحاب العجوز، وتتقاطر عليه سيول الوجد والنشوة فيسيل سيلاناً ويحلم. كان ممن يسيرون ويتكلمون وهم نائمون فكانت علامات ملذات

الزواج تخترق وجهه المنتفخ الأرجواني. لشد ما كانت تلح علينا الرغبة في الانفجار ضحكاً عليه لشدة تلعثمه ولفرط سهوه عن الألفاظ التي يحتاج إليها ثم استرجاعها والغص بها بابتلاعها ابتلاعاً من حيث لا ينبغي. ولكننا كنا على حذر فكنا نحتاط كل الحيطة خوفاً من إعادته الكرة على حين غفلة وخشية أن يأتي بخديعة وأن يهجم علينا من جديد هجوم الإعصار. وكان يتعبنا في نهاية المطاف فيأخذنا الضجر والإعياء من المكوث وقوفاً ويدخل أرجلنا التنميل فنتوق إلى تحريكها بالمشي والصراخ. إلاّ أنه كان لا يتفهم وضعنا قط: لقد كنا له بمثابة الجمهور فكان يطيب له ويلذ أن يعصرنا عصراً. لقد كان ذميم الخلقة مثل الفأرة تموت فتنتفخ. وكان إذا انتهى من ذكر زبيدة ضرة أمنا ـ وقد انتهى بنا الأمر بالطبع إلى عشقها ـ يعود فيشرع من جديد في الاتهام ويرينا الملفات الضخمة التي كونها ضدنا. أف لقد تجاوز خوفنا جميع الحدود. فقد جن الوالد جنوناً! وأصبحنا نتصور أنفسنا وقد زج بنا في السجن. ولن تستطيع يما ولا حتى الاتيان لزيارتنا هناك، إذ أن الأعمام سيفعلون المستحيل لمنعها من ذلك. وكان أخشى ما نخشاه الحراس الكورسيكيون لا سيما أنه كان علينا منهم بالمعهد قيم كان يدخل الرعب في قلوبنا. لقد كان الواقع يتدحرج أمام أعيننا تدحرجاً، فكنا نغوص في الأحلام وتخدعنا آذاننا عديد الخدعات فلا نعود نفهم من الأمور شيئاً. مجنوناً كان أبونا. وكنا نريد أن نصرخ:

النجدة! النجدة! فلو أودعنا السجن لوجدنا العناكب تسعى. وكانت العناكب أخشى ما أخشاه. وكان القلق يأخذ من نفوسنا شر مأخذ ونأمل قدوم الآنسة «روش» لتخليصنا بأن تسرع في الاتيان لتلقين الوالد درسه في نحو الفرنسية فتكون الملامسات والمداعبات الفرنسية والمصاصات الفرنسية. فلو تمّ ذلك لغاص الوالد بين النهدين الأبيضين ولعض الفخذين الأسمرين بمفعول عرضهما على أشعة الشمس ولنجونا نحن فائزين بالحياة. أما الآن فقد كان نظرنا يسرح متنقلاً من عين أبينا إلى عينه الأخرى حتى يصيبنا حول أخرق. وأما هو فقد انقطع عن الأحلام وأخذ ينظر بعين حولاء موفراً لنا بذلك سبباً من أسباب الضحك. ولكن الصقر قد لاحظ تحول انتباهي الصامت فلطمني لطمة: طق! بظهر يده. واللّه لأعضنها تلك اليد في المرة المقبلة. لأعضنها إلى أن يسيل الدم منها فسحقاً لها من يد! إنها تغسل بالماء دائرة جلدة دبر سي زبير وتلامس البظر البثر في فروج عشيقاته الفاغرة وتشبع وجهي ضرباً فتخط فيه آثاراً قزحية الألوان. واللّه لأكدمنها في المرة المقبلة مهما بلغت من فساد وعفونة. إنها لقائحة لزجة غائطية مخاطية. وأما زاهر فقد كان في تلك الأثناء يتسكع وقد نديت أهدابه. وفي هذا المساء سيسكر إلى أن يفقد رشده. كانت علائم الغضب بادية على وجهه فكان يعالج الألفاظ كما تهيأ له بدون أي نظام ولا ترتيب على أنه أصبح لا يجرؤ على النظر إلي. فالجنين لم يكن إلاّ لغزاً

وأسطورة من أساطير الأولين فقد غالطنا زاهر جميعاً وعرقل سعينا للقيا الوالد التي بها تتم العودة إلى الدم. إن خلاصة الدم التي كانت تضيعها جميع النساء عند الحيض هي الجنين ذاته! إنه لشيء يبعث على التقزز والقرف! وانعدمت الثقة في نفسي. ولتعاسة حظنا البالغة كان الوالد يخرج لنا مصحفاً من صندوق ماله الفولاذي فيتلو علينا بعض آياته. كان صوته غليظاً وكان ينطق بالحركات نطق أهل الريف من الفلاحين. أي بالإفراط في فتحها. كان يرتدي نظارتيه ويفصل القراءة تفصيلاً، وكان يزيد من عنده بدون سبب ظاهر جملاً كاملة.

وفي خارج الدكان كان العملة يرقصون طرباً. وكان بعضهم يلمس بيده عورته. كانوا يتلذذون كلذة الفرج لرؤيتنا نتألم ويعلقون على الضربات واللكمات. لقد كانوا منحازين إلى جانب الأقوى، فكنت أتقزز منهم وأعاف فكوكهم التي شوه خلقها مضغ التبغ. كانت أسنانهم نتنة الرائحة وكانوا يتجمعون متراصين حول واجهات الدكان الزجاجية. وكان المتسكعون يتدخلون في القضية فكان ماسحو الأحذية الصغار يستسمجوننا ويستثقلون ظلنا. إنها والله لمهزلة بأتم معنى الكلمة. في خارج الدكان ثارت ثائرة الجموع ولكن الوالد كان يواصل تلاوته برباطة جأش غير عابئ بشدة الازدحام والغوغاء. كان يقص قصصاً واهية وكان يهمل قراءة الفقرات التي فيها مجون أو بذاءة فيتجاوزها. وعندها كنت أفكر في حماقة جنازات الجداجد البريئة. وكانت

الفوضى تتعاظم خارج الدكان فليس هناك أي وعي طبقي!
لا شيء من ذلك، غاية ما في الأمر التواطؤ مع القوة والتحالف معها. وكان يصيب الوالد الإعياء والضنك في النهاية فيأمرنا في احتقار بالرجوع إلى المنزل.

ترى أكانت تلك كوابيس أم أحلاماً. لقد كانت ليالي مليئة بالأسواط وبالعضيض. وكان رئيس القبيلة يبدو لي في المنام في صورة هيكل عظمي ولكن مع احتفاظه ببطنه البارز المترهل. وكان يجلدها جلداً ويكدمها كدماً وكانت عظامه تطقطق لما يبذله من جهد في ذلك. ثم أنه كان ينادينا فجأة فننحي عنه بطنه وعندها يصير ميتاً عادياً هادئاً ويأخذ في قضاء شؤونه في دكانه. كان الناس يوجهون له الخطاب إلاّ أنه كان عاجزاً عن الجواب بسبب شفتيه إذ كانتا كالرق المدبوغ دبغتهما آلاف من النساء كن يمتصصنهما إلى حد الفناء. وإذا ما استيقظنا استرجع زاهر زهوه وخيلاءه وانصرف باحثاً عن الجداجد السمينة.

إن أبي تاجر كبير وهو ينام في حيويته ومرحه المطمئنين لنفسه. وأمي امرأة طالق. وهي تتوصل إلى الحصول على لذة الفرج وحدها بواسطة يدها أو بمساعدة «نانا» قطتها. إن الأولياء الصالحين لفي تكاثر بمدينتنا. وإن العلاقات التي يخضع لها مجتمعنا علاقات إقطاعية فليس للنساء إلاّ حق واحد: أن يمتلكن عضواً تناسلياً وأن يتعهدنه بالرعاية. وإنني لصبي نضج قبل الأوان، أعلمتني بذلك إحدى الراقصات وكانت عشيقة من عشيقات سي زبير

فلم أفهم القضية حق الفهم ومع هذا فإني لم آت شراً. غاية ما في الأمر أنني نظرت إليها وهي تخلع ثيابها مقدراً أنها أقل جمالاً من زبيدة. لقد تركتني أنظر إليها ثم أضافت قائلة: «وهذا الشبل من ذاك الأسد» وهنا أيضاً لم أفهم ما لمحت إليه. كنت مع زاهر نختلف على المعهد وكنا بذلك مفخرة الأسرة. ولكن أعمامنا كانوا يكرهوننا بسبب تلك الترقية بالذات إذ كانت عربوناً على قطع الصلة قطعاً نهائياً مع طبقة الفلاحين الغنية نصف الاقطاعية. إن زوجة أبي لجميلة جداً ولكنني كنت أروج الشائعات بأنها جد ذميمة لأن ذلك يساعد أمي على الحياة. وفي كل صباح عند الساعة الرابعة أذهب إلى الكُتاب لحفظ «سورتي» اليومية وفي الساعة الثامنة أسرع إلى المعهد حيث أتمكن من الحلم قليلاً رغم ما يبديه «الزوال إلاَّ ربع» القيم العام الكورسيكي الأصل من احتراز تجاهي، وقد لقب بهذه الكنية لصدف في مشيته. إنني أكره الكتاب وأكره بالخصوص الشارع الذي هو فيه. فمنه تتضوع رائحة الثياب المغسولة والمرقاز المشوي على نار الفحم وهو حسب زوجات أعمامي مرقاز يتخذ من مصران القطط (لقد كنت وأنا طفل صغير آكل منه لكي أتقمص روح القطط..) فلا أموت لأن أمي كانت تقول وتكرر على الدوام بأن للقطط سبع أرواح. وفي الشارع المذكور يوجد حمام يدور فوق سطحه حمار معصب العينين دوراناً أبدياً حول بئر. وكان الحمار غير مكترث للأمر فيما يبدو ولما كانت الحمير لا

دين لها فإن من عادة صبيان الكتاب أن يرجموهم بالحجارة وكنت أشارك في هذه اللعبة غايتي الوحيدة من ذلك إرضاء المؤدب إذ هو يشك في تديني ويحسبني من الزنادقة بحكم تأثير أخي الذي تعلق قلبه منذ مدة بيهودي غريب الأطوار. إن هم الصبيان المشترك بهذا الكتاب هو النعاس. إن النعاس لفن وأي فن!. فالقضية تتمثل في عدم إغلاق الفم وفي التمايل مثل القرد الذيال. وبمجرد ما نتوقف عن الصراخ بالتلاوة تتحرك عصا المؤدب الطويلة ذات الرأس البحاث وتبدأ في العمل. إنها لعبة سوقية تشبه لعبة رمي الدمى بالكرات، يرقص فيها الأطفال وتتململ أرجلهم: ذلك أن لا تلاعب بالدين! وكم يطيب لي النعاس في فصل الشتاء ولا حول للمؤدب في الأمر ولا قوة لأني كنت أهدده بفضح أمره: لقد تقدم إلي في السنة الماضية طالباً مني المنكر فقبلت مطلبه لكي يدعني وشأني ويترك لي متسعاً من الوقت أحلم فيه بجسم زوجة أبي ضرة أمي اللدن. إن جميع الصبيان يقبلون مراودات مؤدب الكتاب. كان يداعب أفخاذنا خلسة وبسرعة ثم يلهب شيء صلب عصاعصنا. ذلك كل ما في الأمر! إني أعرف أن ذلك ليس أمراً خطيراً وكان أخي الأكبر بالمرصاد وأما الآباء فهم على علم بالأمر عادة لكنهم يغضون الطرف لكي لا يتهموا رجلاً يحمل في صدره كلام اللّه. ثم أنهم من المعتقدين في الخرافات والشعوذة ولذا فإنهم يؤثرون ألاّ يكونوا عرضة لأذى سحر المؤدب. وأما أختي فإنها تقول بأن ذلك

هو بقية من بقايا العصر الذهبي العربي. وفهمت فيما بعد أن الفقر هو الذي كان يحمل المؤدب على اللوط لأن المرء بمدينتنا إذا أراد الزواج تحتم عليه أن يكون له أموال طائلة. فالنساء يبعن بالأسواق العمومية وقد شددن بالسلاسل إلى البقر، وأما المواخير فلا قدرة لضعفاء الحال على دخولها.

إن أبواب الكُتاب مطلية باللون الأخضر والجدران بداخل الكُتاب حمراء قرمزية مثل دكاكين الجزارين التي تحمل اسم «مجزرة المستقبل»! إننا جالسون باستمرار على حصر بالية وألواحنا بين أيدينا وكنا إذا أردنا مضايقة المؤدب طفقنا نصرخ زاعقين كما لو كنا آلافاً مؤلفة فيغضب المؤدب ويضربنا على غير هدى. فتهوي عصاه الملعونة جارحة، لافحة الهواء والوجوه، محدثة صفيراً: ازفت.. ازفت! وكنا لا نجد حتى السبيل إلى البكاء! فننظم فترات من الصمت المفاجئ قصد الانتقام. فتوصد في وجه المؤدب الأبواب ولا يدري ماذا يفعل. وفجأة نطفق صارخين إلى حد البحاح، فيباغته ذلك ولا يعرف كيف يواري فرحه بالتوصل إلى قهرنا وإهانتنا فيأخذ في هز رأسه يميناً وشمالاً فرحاً وغبطة! وكنا أثناء حفظ سورنا نكتشف أموراً كثيرة يغيب عنا معناها الواضح ويبقى مبهماً غامضاً فمنها ما هو مضحك مسل ومنها ما فيه حزن وأسى (فيقول زاهر: هذه أساطير) وبأسافل الكتاب أي الشارع حيث العجائز المتوسلات قد وصلن بعد. وبعد حين

سيمزجن أصواتهن بأصواتنا فنصبح لا ندري هل علينا طلب الصدقة أم تكرير الآيات القرآنية. ونقع في حيص بيص وتختلط علينا الأمور فتطرب لذلك نفوس المتسولات طرباً شيطانياً وهن يستمعن إلينا نثغثغ ونتلعثم في التلاوة. وأما المؤدب فهو لا يحرك ساكناً لطرد المتسولات ذلك أنه في قبضتهن أيضاً إذ هو يطلب منهن المنكر على الدوام فيقبلن شريطة أن يدفع لهن نصيباً من المال.

إن المؤدب لرجل طاعن في السن، عيناه مستنقعان قد أكلهما الرمد والتراكوما وهو زنجي أو يكاد وأصله من الجنوب. كان فقيراً يحمل أطماراً قديمة على ظهره ولا ترى له أبداً أزراراً بفتحة سرواله إلاً أن المرء في الحقيقة لا يلحظ ايره أبداً. وكان أمرد قد غرق في برنس قديم يشبه صاحبه في بعض أيام النحس. وكان يجر أذياله وسط حلقتنا فرحاً بذلك مسروراً (أليست السلطة في الوسط!) وإذا ما راوده النوم قسا قسوة شديدة وانتهى به الأمر إلى النعاس. وعندها نتوقف عن التلاوة فوراً. إن المؤدب نائم. ونشعر فجأة بشيء من البرودة الناعمة ولكن الصمت يبعث في رؤوسنا الدوار فتكون الاختلاجات الدافئة والألعاب في كنف الأمن والسلام نلقاهما من جديد: وتكون الإيماءات والإشارات بالوجه وباليد وتكون المحاورات الصامتة. فنضحك داخل بطوننا مثل الثعابين تقرق قرقاً، ويأكلنا الخوف ويضفي الخطر، وهو على ما هو عليه من قرب منا، على هذياننا طعماً آخر. وننظم

عملية صيد وقنص نتصدى فيها للذباب فنتبعه بنظرنا طيلة ثوان جهنمية وننظر إليه يقع على أجفان الشيخ المتورمة وننتظر في قلق شديد أن يصبح في متناول أيدينا ثم هوب! طق! ونختطفها بحركة سريعة لطيفة. تلك خفة الأيدي لدى التلاميذ الكسالى! كان من المحتمل أن يستفيق المؤدب فينزل القلق لطيفاً رقيقاً في قلوبنا مثل مرارة الغلال التي لم تنضج. وعندما يحمى وطيس الصيد ويصبح أشد إثارة لعواطفنا نخاطر مخاطرة وننكر وجود أية سلطة قد تفصل بيننا وبين الذباب (هبه يستفيق فواللّه لو فعل لقذفناه بالمنجنيق ولقطعناه إرباً إرباً..) ولكن لو استيقظ فجأة مذعوراً لأنهال علينا ضرباً؟ وكانت المجزرة شنيعة نقتل فيها الذباب السمين ونعرضه طويلاً على العيان ونقارن بين بعضه وبعضه ونطلق ألقاباً أخاذة على تلك الحشرات (ألقاب الملوك والأباطرة لا غير) ثم نتظاهر بدفنها. وقبل أن نقتلها نحاول ترويضها وحملها على الصفير والزأزأة والصرير.. ولكن جهودنا تذهب أدراج الرياح! فإذا سئمنا لعبتنا تلك سلمنا الذباب إلى طفل أسود اللون (أهي العنصرية الكامنة فينا!) فيسفها سفاً لإثارة إعجابنا وليبتز منا بعض الدراهم، وعندها نستغل طربوش المؤدب لجمع الصدقات والتبرعات. ونصفق في صمت. وفجأة يتذكر سفاف الذباب أباه الذي أودى به جرثوم داء السفلس المولبي وقد أصابه في إحدى الحانات الفيتنامية المشبوه فيها فيأخذ في البكاء فنعطف عليه. وأما زاهر فيصمد ولا

يلين لذلك قائلاً «لم يكن للأب أن يشارك في حرب استعمارية إلى جانب فرنسا بالهند الصينية». إنه أول درس في التعاطف بين الشعوب والأمم! ولكن المؤدب قد استيقظ وصفرت عصاه في الهواء كأخلص ما يكون لسان الأفعى السامة! ليس هناك فترة انتقالية. فليس تدفق الأصوات الغزير بالأمر الشاذ. والعجائز المتسولات قد ألفن ذلك، أنهن يفهمن ما يجري من أمور ويأخذن في الهمهمة وفي توجيه الخطاب للمؤدب في سوقية وابتذال وإذا استيقظ المؤدب عادت إلى الذباب وقاحته وبرز من جديد جيشاً عرمرماً وتعنت في لدغ أعيننا وانصرف ليجرش العفونات الصافية على سطح الخراء لكي يجعلنا نصاب ببعض الأمراض المشبوه في أمرها. وأخيراً تحين ساعة الخلاص! فالواجب يقتضي منا الإسراع بالذهاب إلى المعهد. فالساعة تشير إلى السابعة صباحاً.

الساعة الحادية عشرة ليلاً. ورحى الزمان الجهنمية الصغيرة تمضي مسرعة في عجلتها المتحمسة ويما لا تعرف كيف تقرأ الوقت على الساعة.

ـ كم الساعة؟

ـ العاشرة.

فلا تثق بقولي. إنها دائماً لا تثق بالأقوال إذا ما تعلق الأمر بموضوع الوقت. فهي تخشى أن أكذبها القول. والوقت بالنسبة إليها لا وجود له. فترى كيف يجوز لها أن تكون قلقة محتارة إن كانت قد عدمت فكرة كنه الوقت ومروره؟ إن أمي يخامرها القلق على غرار البقرة أو الكلب. ليس أحد بنائم. وبقية القبيلة كانت لنا بالمرصاد. وأما الأعمام فلا بدَّ أنهم مجندون للعمل. الساعة ساعة متأخرة من الليل ولما يعد زاهر إلى المنزل. نحن في انتظاره أنا وأمي. كنت أتظاهر باللامبالاة والانشراح ولكنني كنت في قرارة نفسي خائفاً خوفاً شديداً فقد تدوسه إحدى السيارات فتقتله لأنه لم يصح من سكره المستمر منذ

أسبوع. وتتمتم يما. إنها تدعو وتبتهل في ارتعاد. ويبرز النور بوضوح الزغب الرقيق الذي يغشى شفتها العليا. لكأن لها شارباً. إنها لم تبك بعد لأنها تتطير من ذلك. وأما الكرسي فتبدو عليه هيئة وديعة هادئة في صلب التوتر المتناهي المتعاظم (كفاه ما تجشم من حمل أجسامنا!) إن السرير واسع جداً. إن تسقيفة السقف الخشبية متشعبة جداً، أصاب بالصداع إذا تأملت فيها. كل شيء في الغرفة يصبح ضخماً. الجص.. إني أحاول أن أسبح في الخيال وألاّ أفكر في شيء ولكن الحيرة تنتاب نفسي وتكبر فيها مثل الدودة البيضاء. إن مقبض الباب كروي الشكل أبيض اللون وهو بارد علاوة على ذلك. أفضل النظر فيها ولكن ليس ثمة شيء يستحق التفضيل.

ـ كم الساعة؟

ـ دائماً العاشرة يا يما.

ـ لا بدَّ أن تكون الساعة المنبهة قد توقفت..

ـ ألست تسمعين جيداً دقاتها تك، تك، تك، تك؟

حجة قوية واللّه. وأفتح أحد الكتب. وتصر سبحة أمي صريراً من جديد فأنزعج لذلك. وأقول في نفسي لو نظرت إلى سرتي دقيقة من الزمن لتيسر لي نسيان خوفي مدة ساعة. ولكن ذلك كان يحتم عليّ خلع ثيابي فتفشل المحاولة بسبب وجود أمي. إنها تتمتم بين شفتيها برطانة لا تفهم. وفجأة حسنت في عيني فإذا هي جميلة. إن بوجهها تجاعيد صغيرة على يمين ذقنها وبما أنني لا أستطيع النظر

إلى يسار ذقنها فقد قررت أنه ليس لها تجاعيد هناك. إنها تحسب خلسة مستعينة بأناملها (ترى هل تعلم أن في الدقيقة ستين ثانية؟) ها هي تحاول التثبت من صحة قولي ذاك. هيا هيا يجب أن أسبقها.

ـ الساعة الآن العاشرة والنصف.

فتتوقف فجأة عن الحساب. ولا تدري ما تقول فتزفر زفرة طويلة. الواقع أن الساعة الآن منتصف الليل وقد بدأ القلق يخامرني بصورة جدية فأحاول أن أحمل أمي على أن تتلفظ بكلمة أوحي بها إليها فأحاول أن أرشدها إلى الطريق ولكنني أخطئ المرمى، فيأخذني الهلع ويهيج أعصابي هذا الرجوع المباغت إلى التطير. فأنهض وأقصد النافذة. الشارع خال. بارد. قذر. الأقذار تلطخ الرصيف والأماكن الأخرى فأعود إلى الجلوس وتنهض أمي بدورها فتغادر الغرفة، فأتكهن بالاعتماد على هيئة مشيتها إنها ذاهبة لتبول. فأرهف السمع: السائل يلفح حوض المرحاض كالسوط فيحدث تستسة، تس! فإذا بفمي طعم هو كطعم الملح. ويأخذني العرق غزيراً (فهل سيصيبني توعك؟) إنني أتكهن وأتصور جميع حركاتها كما لو كنت بجانبها. أيعني ذلك أن بي استعداداً إلى التلصص للالتذاذ بالنظر إلى المشاهد الغرامية! وتدوم التستسة.! صوت غريب ذلك الذي يحدث عندما تقضي المرأة حاجتها. لقد كان صوتاً صاخباً. وتعود أمي من جديد. إن الغرفة ضيقة والفصل شتاء. الرأي عندي أن زاهر يبالغ. ترى لم يسكر؟ إنه يقول

دائماً أنه يشرب الخمر ليقوى إيمانه فلا أرى الصلة بين هذا وذاك البتة. إن أخي في السابعة عشرة من عمره وهو يختلف على الحانات المشبوه فيها بالمدينة منذ طلاق أمي. إنه يسكر بالحانات الإسبانية والإيطالية واليهودية الموجودة بها ويأخذ يما الهلع فتسرع في الابتهال والتوسل إلى النبي. النبي الذي كان أبي يتفانى في محبته وطاعته ويطيب له ويلذ أن يقص حياته إلاَّ أنه يغفل أن يقول إن إحدى نسائه لم تتجاوز الثانية عشرة عندما بنى بها. وهكذا فإن الوالد لما تزوج بزبيدة لم يعد أن اتبع سُنّة النبي. واللّه لأضربنه ولأشوهن خلقته بمجرد ما يعود إلى المنزل! سأغتنم فرصة كونه سكيراً سابقاً لآوانه. الصبي مصاب بداء الإدمان على الكحول! ولكنه سيقول في صلفه الهائج إن لفظة الكحول هي إحدى الألفاظ الفرنسية المتكاثرة التي من أصل عربي ولهذا فلا داعي إلى أن يحتقر الإنسان نفسه إذا أدمن على تناول الخمر والكحول. إنه خبير جداً بهذه المواضيع وأنا عاجز عن مباراته في هذا الميدان. إن زاهر تلميذ لامع وهو يختلف على معهد ثانوي فرنسي - عربي حيث لا ترى شيخ أوروبي يدور أبداً باستثناء رجل كورسيكي الأصل متحيز إلى الانشقاق عن فرنسا. إنه «زوالم إلاَّ ربع». وهو معقف الرجل ومن عاداته أن يقول: «إن نابليون لبعرة! والعرب بلداء أغبياء تحيا كورسيكا حرة مستقلة! سكوتاً!).

إن دقات الساعة تك! تك! تك لمضجرة متعبة ويما

جالسة أمام الساعة المنبهة تنظر إليها بدون انقطاع. إن في ذلك لضرباً من السحر ما زال متواصلاً. إنني خائف. لكأن مزلاج الباب قد تغير شكله، فأنهض وأمسه بيدي. إنه بارد وشكله من بعيد ليس كشكله من قريب فلا أستغرب ذلك فوق الحد: إن أمره كأمر ذقن أمي، بين صورته من بعيد وصورته من قريب فرق دائم. وتعود يما إلى عد الثواني ولكن لم يعد لزوم للقلق بالنسبة إليّ فهي لم تعد ملمة بالقضية. لقد انعدمت من المقصورة كل رائحة وليس فيها أيضاً رائحة المرأة. انقطعت منها تلك الرائحة منذ أن هجرتها أمي. وفي الحقيقة فقد أمست يما لا رائحة لها البتة. إن المرأة إذا رامت أن تكون لها رائحة لزمها الاقشعرار فإذا اقشعر جلدها فاحت منها رائحة الماء الأزرق. أمي لا تشتهيها النفس إلاً عندما تكون بصدد الوضوء فعندها يعلو الحبب بشرتها ويقيني أنها لا بدَّ أن تجذب الذكور بذلك. ترى ما العمل؟ فهل ينبغي عليّ أن أنزل وأذهب لأبحث عن زاهر؟ ولكن ترى أين سأجده؟ إن الإنسان يستطيع بمدينة الجزائر أن يشرب الخمر في حانات من جميع الجنسيات وفي عدد عديد من المواخير. فالبحث عنه فيها يؤدي إلى زيارة عدد من المواضع فوق طاقتي!

كم الساعة؟

ـ الساعة الواحدة صباحاً.

وأهم بأن أتدارك أمري ولكن قد فات الأوان فتشعر يما بغتة بالوقت وتبرز من خلال آلامها كمن به مس من

جنون فتذهب وتجيء بالمبخرة تهيج الأموات وتنادي الأجداد وتطلب منهم بصورة رسمية أن ينجوا ابنها. وأهرع إلى الدرج فأنزله جرياً وقد عقدت العزم على العثور على السكير أينما كان، فإذا بأخي بأسافل الدرج وقد انكمش على نفسه ووضع رأسه على الدرجة الأولى من السلم.

ـ لم أستطع الصعود..

إن رائحته منتنة وهو يتلوى. وتتنبأ يما بوجوده فتنزل ونتعاون عليه فنحمله معاً إلى فراشه. وتنصرف الأم تاركة إيانا في الظلام. فينطق زاهر بكلام غير منسجم ولكنه حافظ على جلاء ذهنه.

«لقد عقدت العزم على قتل الوالد.. فذهبت إلى «الفيلا» ولكني لم أستطع تنفيذ فعلتي لأن زبيدة كانت نائمة في السرير الكبير مع سي زبير ولأن الجنين كان نائماً في زبيدة.. بل ولقد ذهبت فاقترضت من الشيخ عمار سكينه. وفي غار الشيخ عمار كانت الأزهار تنبت في قوارير الجعة وسط الخشخاش والكيف وبه أصوات فيها بحة وأقمصة باهتة اللون. لم يكن وحده لقد ضحك رفاقه من ارتباكي وشمل الظلام مشروعي من كل جانب حائلاً دوني ودونه.. وكانت نوبات السعال غارقة في نور ضبابي يشع من قنديل. وكان على عين سائس الخيل السمين اليسرىَ ودقة بيضاء مليئة بالثآليل. كان الحصان حاضراً هناك ولكنه كان لا يحدث أي صوت. كان المحل نظيفاً وهاجاً هناك قد بيضوه بالكلس. وكان في نيتي أن أطلب منه مديته ذات

فرضة التوقيت وأنصرف قاصداً ليلتي الهائلة. . ميمماً نحو «الفيلا» الخاصة بزبيدة قصد القضاء نهائياً على الوالد وعلى الجنين. ولكن الجماعة عرضوا عليّ الشراب فخلتني قد رفضت ولكن أصحاب الشيخ ألحّوا عليّ في الشراب الحاحاً قبلت معه في آخر الأمر. ولست أتذكر إلاً أغانيهم الغبية (مثل غرد القمري. .!) والفلفل الذي التهمته. ولقد أرادوا بي التقزز والاشمئزاز فشرعوا في سحق بعض الديدان وفي اشتمامها بمناخيرهم ففعلت مثلهم على الفور. . وصلت في النهاية إلى «الفيلا» ولكن الهلع.امتلكني هناك. فعدت أدراجي متوجهاً إلى الخمارات حيث شربت الخمر إلى أن طردوني».

كان زاهر كثير المرض وكان إذا لزم الفراش عالج قعر حلقه بأصابعه في غير نظام محاولاً بذلك أن يتوصل إلى القيء. وكان يقول إنه في الواقع كان ينقب عن روحه ليحاول التخلص منها. ونادارأ ما كان يصل إلى بغيته. فكان يظل الأيام الطوال جامداً لا حراك به (كان يقول ويردد: «إنني أتعاطى مذهب الأتاركسيا اليونانية لأنني عربي مزيف» (تلك كانت الجملة التي كثيراً ما كان يرددها). فكنت لا أفهم دائماً كلامه ولم يكن لي متسع من الوقت لمحاولة الفهم لأنني كنت أسعى في نفس ذلك الوقت إلى إغراء زوجة أبي. وسعياً إلى ذلك الهدف كنت أحاول أن أتملق الوالد قصد تهدئته والوصول إلى غايتي وأن أنال ثقته. وأما زاهر فإنه لم يكن ممن يحبون النساء بل كان

عاشقاً لأستاذه في علم الفيزياء وكان يهودياً ذا عينين زرقتهما شديدة وقصر بصرهما شديد. كان يختلف كثيراً على دارنا رغم عداء أمي له عداء واضحاً. وفي بداية الأمر كنت أحسب أن اللواط علامة على التفوق والامتياز لأن اليهودي كان فائق الجمال وذا صوت رقيق لطيف ولأنه كان سريع البكاء. وكلما حاولت أن أفهم كنه العلاقات التي كانت تصل أخي بأستاذه كان زاهر يغضب ويغتاظ فيصيح قائلاً: «عليك ببنات أعمامك فاذهب وتشمم رائحة أفخاذهن». وكانا إذا أرادا التخاطب بحضور الغير استعملا مجموعة من الرموز المعقدة جداً ابتكراها ابتكاراً. وكان اليهودي كثيراً ما يردد قوله بأنه «هيماتلوس» ولما كنت لا أفقه لتلك اللفظة معنى كانت أعصابي تتشنج إلى درجة أنني كنت أدخل المرحاض فأجلد فيه عميرة. وكان «هيماتلوس» غنياً جداً لأن أباه كان من أكبر أطباء العيون بمدينتنا وكان إخلاصه لمهنته قد بلغ به مبلغاً صار معه أعمى. وكانت أمي تلعن اليهود وأما عصابة الأعمام فكانوا يقاطعوننا مقاطعة من أجل نوعية صداقات زاهر المشبوه فيها من ناحيتين. وكانت أمي بمجرد ما ينصرف الأستاذ اليهودي تفتح أبواب الغرف وشبابيكها ليدخلها الهواء وتغسل الكؤوس التي شرب منها ذلك الكافر وتتلو الرقي والتعاويذ. فيتركها أخي تفعل ذلك ويبقى هادئ الأعصاب. وكان لا يريد أن يفسر لي أي شيء من تلك القضية في حين أنني كنت أتلهف رغبة في الاستزادة من التفاصيل عن

تلك القصة الغريبة. وكان يقيء أحياناً قيئة هامة ويرفع ملاحف السرير إلى أن تبلغ ذقنه ثم يأخذ في التحديق فينا بعينين شاخصتين ويظل على تلك الحال الأيام الطوال دون أن ينبس ببنت شفة.

(من كناشة زاهر وقد عثر عليها بأحد الجارورات بعد موته).

عند التقيء أشعر دائماً بنفس الشعور الوخيم المتعفن الذي شعرت به في أول مرة رأيت فيها دم الأنثى. كان يسيل على فخذ أمي فخلتني أشرفت على الهلاك لذلك. أنا لا أستسيغ القيء ولكنني ما أن أفكر في الدم حتى تنقلب أمعائي فتصعد إلى فمي. إنني لا أتظاهر بأي شيء. فأنا مريض حقاً. كانت يما جالسة وكان الدم يسيل من فخذها الأيسر وسرعان ما تكونت منه ساقية على الأرض. كان الفصل صيفاً وكانت الحرارة شديدة ولم يكن أحد ينطق بشيء. كان الفصل صيفاً وكانت على وشك قضاء نحبها ولكنها نهضت مسرعة وانصرفت وهي تصيح. إن «هيماتلوس» مثلي في ذلك: فهو لا يحب دم النساء ولهذا السبب أحبني وأحببته. وفي الواقع فإن هذه الحاجة إلى التقيؤ ليس مردها الغثيان بل سببها الأصلي هو عدم الفهم: فإذا لم أفهم الأمور بوضوح تقيأت. وميض يجلف كالبرق ذاكرتي ها أنا أجد من جديد سبباً أقدم لتوعكي، إنه انطباع اللون الأصفر البرتقالي. كان عمري ثماني سنوات عندما اكتشفت وراء باب المطبخ خرقاً مبللة بدم مسود اللون.

الرائحة كريهة منتنة وبين كل قطعة وقطعة نسيج هلامي دبق. وكانت أشعة الشمس تهوي في هيئة صفائح تغشي البصر على ذلك الكدس الفظيع الشنيع. وفاجأتني إحدى زوجات أعمامي هناك فصفعتني على خدي ولكنه لم يكن في إمكاني الانصراف لأن إحدى كرياتي كانت محصورة تحت الخرق الدامية. وفي ذلك اليوم أدركت أن ذلك دم نساء فتقيأت لأول مرة. وكنت في صباي أرى في المنام أكداساً جامدة من القذارة يقصدها عدد عديد من الذباب والدويبات المتعطشة إلى دم الأنثى. وكنت أرى في منامي كذلك أن جميع النساء قد متن وأنهن قد ذهبن فلم يخلفن أي أثر عن وجودهن عدا تلك النتونة. ومنذ أن التقيت هكذا ببواطن الأنثى صرت أعتبر النساء كائنات على حدة تحمل كلوماً مريعة تجذب إليها الخنافس وبنات وردان وراء أبواب المطابخ. ومع هذا فقد كان يتفق لي أن أشعر بانجذاب عارم مريع نحو تلك السيول الخاثرة الكريهة الرائحة التي كنت أراها تنبع من بين أفخاذ بنات أعمامي عندما كن يسمحن لنا بالوصول إلى حفرتهن التي دأبن على نتف شعرها فوق السطوح عند قيظ الهاجرة. كانت الأشكال إذ ذاك تبعث في نفسي الجنون والخبل. فأتقهقر لائذاً بالفرار مؤثراً النظر من بعيد إلى لطف انفراج ما بين الفخذين المبهم.

«إن رشيد لمنزعج باطلاً. وكان لعبي مع «هيماتلوس» لا يتعدى طور الملامسات على أنه هو الذي كان يرفض

تجاوز ذلك الحد. لقد كان أحياناً غريب الأطوار. ونحن الآن بيننا جفوة لأن هذا اليهودي الملحد يزعم أن التوراة هي أجمل قصيدة شعرية كتبها البشر. ووضعت حداً لتحمسه هذا بأن ادعيت أن القرآن أجمل من التوراة بكثير. وهو الآن قد هجر علم الفيزياء ليتفرغ إلى تعلم اللغة العربية حتى يتسنى له المقارنة بين الكتابين. أكبر الظن أن أمي لا تفهم نوعية علاقاتنا حق الفهم ولا فائدة في أن أطلعها على القضية، فلو أخبرت يوماً بالحقيقة لتعاظمت سلعة عنقها وابتلعت وجهها الجميل. وكما أنه من الممكن أن ترد الفعل بأن تضاجع أحد الأولياء الصالحين الذين تعودت الذهاب لاستشارتهم في أموزها بصحبة رشيد أليسوا يراودونها عن نفسها منذ عديد السنوات؟».

(من كناشة لرشيد عثر عليها زاهر فحفظها من الضياع).

«المغازة واسعة. خالية. منتصف النهار في عنفوانه. ينصرف سي زبير ليقيل قائلة طويلة. وأبقى وحدي، ليس هناك أي حريف. الفصل شتاء، البرد قارس. القائلة تلائم صحة أبي المصاب بارتفاع ضغط الدم، سبب ذلك على حد قول الأطباء تكثيره من المهيجات. الانتظار. الأمل في حصول شيء ولكن لا شيء يحدث. فراغ أبيض في رأسي. وأمي كذلك تقيل في قلب الشتاء. تلك طريقة من طرق قضاء الوقت. كل الأمور قذرة وسخة في هذا المحل. دفاتر الحسابات والفاتورات ورائحة الحبر

والخشب. اليوم يوم أحد: إنه يوم عطلة بالنسبة إلى المعمرين. أنا في انتظار امرأة. شبق. أعضائي جامدة. الأمور تجري ببطء وتؤدة. النساء. أحياناً تدخل الدكان إحداهن. وداخل المغازة يشعرن بأنهن في مأمن إذ يجدن أنفسهن أمام صبي أمرد فلا يترددن في إزالة الحجاب عن وجوههن. ألامس ذكري وأداعبه من وراء المكتب. المرأة تتكلم. شعور باللذة. إنها تطلب بعض السلع. أنعاظ. أتصنع عدم الفهم وأمدد في فترة المقابلة. إنه لحضور الأنثى العارض العابر على مشارف الكوابيس الملتهبة الملتوية. الأرض جافة: لا وجود حتى لأي طيف من الرطوبة. إن التوق إلى اغتصاب حتى أقبحهن منظراً وأطعنهن سناً ليس إلاّ تعلة لظهور ذلك الغيظ المتدلي من كرتي فلقتي عيني اللتين قلصتهما الشهوة الخداعة: انحطاط ذريع فادح! ويدوم استمنائي طيلة فترة ما بعد الظهر كاملة. القوى خائرة. إن الالتذاذ بلا امرأة يجعل صورة ضرة أمي أقرب إلى متناول آفة هذياني المشؤوم. كلما تدفق المني تركني تدفقه تائهاً زائغاً. الدخول في موت بطيء. الانتظار المحموم. ولكن لا يحدث شيء. القلق نفسه الذي أشعر به كلما رأيت أمي نائمة: إنها تتنفس تنفساً غريباً من جراء الانتفاخ. إن الحفرة هناك فلا فائدة في البحث عنها في مكان آخر. جانب جدار أبيض وجرس في رأسي. إنها الوحدة نفسها. فقدان الذاكرة الكامن المتربص. إنه عبث الأمور نكررها. إنها تهيئة بدون طائل لأفعال وحركات

وألفاظ قد لمحتها بعد في بعض الأماكن وأحطت بها بجميع حواسي. يا للعبث! استيقاظ كئيب في الصباح. قضاء حاجات زبيدة. كل صباح كنت أطبق جفوني لكي أنظر في شهوة أكبر إلى فخذها الصقيل اللماع اللحم وأحلم بعانة خضراء مثل كلاء الساحة الشرفية بالمعهد. آه من عانة زبيدة! ويتكون صف أمام بائع الفطائر. إنه تونسي. فأغتنم تلك الفرصة لتدفئة يدي فوق قدر زيته الجائش وهو يرمي فيه بعجينه بحركات أنيقة رغم ما برأسه من قرع كان يأكل جلدة دماغه. وما أن يوجه لي بائع الفطائر الخطاب حتى تتشنج أعصابي. إنه اللواط الكامن الخفي. فجميع الناس على علم بأن له علاقات فاجرة مع أخي. فيفهم الأقرع ولا يلح. انصرف بالفطائر التي اشتريتها لزبيدة. أنظر إليها وهي تأكل. إنها أحاسيس لا أشعر بها إلاّ في فصل الشتاء: الزيت الساخن والنشارة والشاي بالنعناع يشربه الصناع الأعوان. الضنى والتهالك. اصبعان في الفم... أخيت! أخ! التقيؤ. شعور بوخزة في أنفي، الدرج الحلزوني. الفيلا. البذخ والأريحية. تعفن الدم. البطن الزنبقي. ها هي وقد اتكأت على الجدار تلمس بطنها وتصقله. بنت الحرام! هل كانت تأتي ذلك لمغص في أمعائها أم بسبب الحيض؟» إنها ساكتة. الصمت مخيم بيننا (ترى هل كان الماء يسير من الصنبور؟ دائماً هذا الخوف من الصنابير التي لا تنغلق كما ينبغي). الماء يتقاطر في الحوض المتوهج ضياء بمفعول شمس الخريف. ومع ذلك

فهناك شعور بالهدوء والطمأنينة. يداي مشبعتان زيتاً. انطلقت تضحك. إنها التورية (الزيت تورية عن الفازلين والفازلين عن النكاح) كانت ترقص يديها الرقيقتين أمام ناظري فلا أطيق لذلك احتمالاً. فينتابني التلعثم في الوقت نفسه بالضبط الذي ينبغي فيه أخذ القرارات. إنني أحلم واقفاً في اليقظة (أحلم بالقحبة ذات التبان الأصفر. إنه رفيق في المعهد لجلاج كان من عادته الهروب من دروس العربية لارتياد الماخور. وهو يقص علينا ذلك، ويشنج أعصابنا لأنه يلجلج في كلامه في أشد مواقف القصة إثارة. وكنّا نطالبه بالتفاصيل ونلح عليه في ذلك. لماذا لا تخلع هذه القحبة تبانها الأصفر؟ لا يدري. هل نهداها كبيران؟ إنهما ضخمان جداً! وهو يعرف أيضاً المرهم اللزج الذي تضعه في الشيء الضخم. كان لا يجرؤ على التلفظ باسمه. ويخر على مقعده ويلتذ جنسياً من جديد أمامنا فيذهب عنا حب العمل فلا نفكر إلاً في الذهاب جماعة للتحديق في تلك الفتاة في شبق وللتثبت من صحة أقوال مزاعم رفيقنا اللجاج... المغازة. منتصف النهار دائماً. القائلة. الطعام. أنا آكل كسكسياً متوبلاً على كرسي. الفلفل كثير. النار تلتهب في فمي. إن التغوط للتخلص منه سيكون أشد وأعسر. أنا مهدد بمرض الباسور الأحمر كبواسير أعمامي. افتح فاي فوق الصنبور. صوت عب الماء: غرغر... إنني ارتجي امرأة في عصر يوم كئيب من أيام الشتاء. ها هي ذي امرأة تدخل وتخرج. جلد عميرة. الجيئة والذهاب؟ أنا

ألمح من خلال زجاج واجهة الدكان المصقولة ملامح أجسام المارة وقد صغرت وتقلصت. يلصق أحد الأطفال وجهه على الزجاج ويخرج لي لسانه إهانة فأخاف خوفاً شديداً: هناك ثقبان مكان العينين. ذهاب الانتفاخ. إن فكرة الموت لا تنفك تنمو في دماغي. والشبق ما زال كاملاً رغم تعب عضوي. إنه الضجر ضجر البذخ والأبهة: واتثاءب. لا وجود لطيف حريف. هل أنام قليلاً أم أتظاهر بنوبة عصبية فأستثير بذلك جميع الحي فأخرج الوالد من فراشه. لو تظاهرت بالمرض لربما كان لي أب. السعال. وخارج الدكان كان الطقس أقل برودة قليلاً. دخل الدكان رجل مسن أحدب. ابتسامة فقيرة معوزة. الأنف يسعى سابحاً نحو الأذن الضخمة. كان يجر وراءه صبياً هزيلاً بلغ به الهزال درجة كان يمكن لأبيه أن يدخله في جيبه ويخرجه منه! ولو فعل ذلك لسلاني ذلك لحظة! الطفل ينفنف بأنفه بدون انقطاع ولكن من غير أن يخرج الأب من طوره. هل اختفى تحت المكتب وأعج في وجهه صائحاً: طي طي! ولكن الخطر هو أن الطفل قد يأخذ في النباح كالجرو ونقع في مأزق لا خروج منه. لا! فقد يقتضي صرف انتباهه إلى شيء آخر قلب عربات الترام... فالطفل متخلف ذهنياً فلا بدَّ أن يكون أبوه وهو يكونه قد ارتكب جريمة شنعاء بدون أن يغادر الفرج المقدس، فرج المرأة المباركة. لقد علت شفتيه برطمة كان يحاول أن يجعلها حلوة عذبة. أنا أعرف زوجته: وهي سيدة ذات جمال، تصرفه كما يحلو

لها. صدرها خصب سخي يكفي لإرضاع جميع قطط الحي. وحمائل رافعة نهديها الوردية اللون تنغرز في لحمها الناصع البياض. أفي ذلك دعوة إلى الشبق والفسق؟ رائقة هذه الزوجة! يجب الاعتراف بذلك. وإني لأتصور ذلك الرجل الشنيع وهو يسيل في قعر فيها لعابه اللزج الخاثر. كان يحمل عمامة. وكانت لحيته تنبثق كالزايدة الفحلية في ذلك الوجه الطري المسترخي. أما بقية جسمه فغارقة في ما لا اسم له. وأما لحيته فقد كان يتعهدها بالرعاية! هو بورجوازي من رقاق البورجوازية. يحمل جبة فضفافة من حرير خام. يداه مثل أيدي قبار ومهنته شماع يبيع الشموع. وتجارته نافقة جداً لأن المدينة زاخرة بالأولياء والصالحين. كانت المزاحمة شديدة بين أولئك الصالحين ولهذا فهم يرفعون شكواهم إلى السلطة الاستعمارية ويطالبون بمزيد من الإعانة والمنح. وكان صاحبنا يملك حانوتاً صغيراً جداً. هي خليط جليط من الأشياء إلاّ أنها كانت تعجبني كثيراً. وكان يخدم مصالح الفرنسيين فيعرقل تطور النساء. ها هو ذا يدخل المغازة متلطفاً مدارياً... هل أقول قولاً لطيفاً؟ لا! إن الغلام لقادر على قذفي ببعض البذاءات. ولو فعل لشعر أبوه بوجوب إخراج سبحته لطلب المغفرة من اللّه ولوقعنا في مأزق لا مخرج منه البتة... هل أصمت؟ إن الصمت طريقة استراتيجية بدائية! ولكن عليَّ أن استعمل تلك الطريقة على أية حال. إن الرجل من أكبر أنصار سي زبير وهو معجب به إعجاباً لكثرة عدد عشيقاته. أما هو

فمن عادته الاقتناع بخادمات المنازل الطاعنات في السن.
هل أهش وأبش؟ الطفل نظيف. في نظافته شيء من التكلف. مسكينة أمه! لا بدَّ أنها تقضي وقتها في غسله وصقله ولكنه كان يحمل بلهه كما يحمل الأعمى عصاه البيضاء: فعطف الناس على الطفل. عليَّ أن أراقب هذا الغلام فلا أرفع عيني عنه! فهو مفتون بالتليفون. (لا ينبغي أن أنسى أبداً أن أمي مريضة بتضخم غدتها الدرقية وأنه كان من الممكن أن أولد أبله) ماذا عساني أقول للرجل؟ أأقول إن أبي نائم؟ لا! أأقول إنه الآن يدلل عشيقته لا! أم أقول إن أبي الآن يحاول إرقاد أمي المتألمة بغدتها تألماً حاداً؟ لا! لا ينبغي أن أقول شيئاً وبالأخص هذا الكلام! يجب ألا يعرف هذه الجزئية. يا له من انحلال وتدهور. لكأنه ينظر إليَّ نظرة شاذة (فهل يتكهن بأفكاري؟) يا له من مهذار له نفوذ الشموع وشر حفار القبور. هيئة وجهه كهيئة سيدي عمر الملهمة وهو ولي من أولياء تونس ذاع صيته في كامل المغرب الكبير. وتزعم يما أن المسلمين يأتون من الهند لزيارته. وقد سافرنا مرة أنا وأمي حتى بلغنا تونس لنطلب منه إعانتي على التحصيل على الشهادة الابتدائية، وخلافاً للعادة لم يعارض الوالد في ذلك بلا شك بسبب خطورة القضية. إن هذا الولي في الواقع ليس إلاَّ رجلاً مشلولاً شللاً عاماً ضحية مرض الزهري، وكان مسجوناً دائماً في قفص عظيم من تلك الأقفاص الخاصة بالأطفال الصغار يرتع فيه عارياً كالدودة. إن بطنه أضخم من بطن

أبي بثلاث مرات وهو شيخ طاعن في السن ينتابه النعاس فيغفو في أغلب أوقاته وهو لا ينظر إلى أحد وليس على هيئته ما يدل على أنه مرح جذلان. وليس حوله إلاً النساء، وكان يطلق من حين إلى آخر صرخة حربية صغيرة. ويقضي حاجته الطبيعية أمام الناس وعندها يضحك مثلما يضحك الأطفال الصغار تماماً. وكلمته يما فلم يصغِ إليها حتى مجرد الإصغاء. ولقد أثرت أسرة هذا الدرويش بعرضه هكذا على العموم في تمام براءته الطبيعية، وشجعت الإدارة الاستعمارية القضية بصورة خفية. وكان أشد الخلق سعادة به هم النساء: فهن يعشقنه ويتخمنه بالحلاويات التركية وكان يحبها حباً جماً، وعلى الزائرين قبل الانصراف أن يدفعوا ثمناً باهظاً جداً. فانصرفنا منسلين..

لا لم يتكهن صاحبنا بأفكاري. ولو فعل لتجاوز الأمر الحد المحتمل! يجب ألا يعرف أن أمي مريضة بغدتها: ففي الحديث عن عنق المرأة من الإثارة الجنسية ما قد يؤدي إلى ما لا تحمد عقباه (آه من زبيدة!.. الاصطدامات) لقد حكم عليَّ بألا أكون إلاً لاحس شقوق مستطيلة (إني أشعر دائماً بطعم الملح هذا عندما أجامع امرأة أو أسمع أمي تبول أو عندما تتركني بنات أعمامي أنظر إليهن وهن يبلن) لقد خارت قواي (ألست مراهقاً عاشقاً؟) ونصيبي من الهدوء والاطمئنان أين هو! إن النساء مسجونات وراء الجدران وهن راضيات بذلك. ولهذا فلا ينبغي لهن أن يؤججن شهوة الذكور الأبرياء. الرجوع من

الحمام. إحمرار في العقر. الفرج مغسول محلوق معطر ولهذا فلن أكلمه عن أمي. يقول الناس عني إنني غريب الأطوار ولكن الحقيقة أن الشمس قد رعنتني مرة. ويقبل الشيخ عليَّ متظاهراً باللطف وتبدو على وجه ابنه فجأة هيئة لا عهد لي بها من قبل. ومع هذا فإني أعرف هذا الصبي حق المعرفة. ترى ماذا يريد الشيخ مني. بقيت لي التذاذة جنسية يجب اجتلابها؟ (هل أفكر في زبيدة وهي تلبس جورباً وتدخله في رجلها. ولكن ألم أستوحِ هذه الصورة من السينما؟) عليَّ أن أقول شيئاً ما كأن أسرد بصورة آلية بعض العبارات المألوفة الجاهزة. ينبغي أن أحذر زلات اللسان! والرجل قد انتصب هناك تائه النظر. واضح إنه يتألم.

ـ صباح الخير...

ونزل على رأسي وابل من الدعاء والتسليم. وكان صاحبنا فخوراً بزوجته وبابنه وعلاوة على ذلك فهو فخور بامتلاك جميع العلوم الدينية، وكان يطيب له أن يتصدر الاجتماعات السياسية والدينية التي تعقد في مكتب الوالد. وهو يكره ابن رشد فيبصق على الأرض تنديداً صائحاً «إنه رجل ملحد». وبعد ذلك بطفق أبي يعتز ويفخر بإظهار قصر باعنا في مجال الفقه الإسلامي فنحن لا نعرف عن ذلك شيئاً. إنه الجهل المطبق. فتكون الدروس الدينية تلقن لنا بواسطة الضرب واللطم بالمضمونات والمجموعات. وبدخول صاحبنا المغازة تدخل معه رائحة لطيفة هي رائحة الكافور والعنبر المحروق. إنه القبار وهو يجلس جلسة

قبار. ويسأل عن أبي. فأشتم رائحة الفخ وأتركه يتكلم كما لو كان لا يعرف أين أبي! فجميع الناس بالمدينة في علم بالقضية. أأقول له إن أبي يراجع الآن درسه في النحو الفرنسي؟ ولو فعلت لكان من المحتمل أن يقهقه قهقهة قد تؤدي به إلى الغص والاختناق (لشدة ما به من هزال). ترى هل يود أن أفصّل له الحديث؟ إن عينيه تشتعلان ثم تنطفئان كما على مضض، ثم تستقران ثانية في العالم المحيط بهما. يا لنظرتهما الباهتة! ووددت لو رأيته يضحك. ولو ضحك لبدا مثل شموعه. لقد اعتدت أن أزور دكانه: وذلك مجرد تعلة لاختراق الأسواق. فها هو سوق النحاس ومرارة الشوارع السخنة المضمخة بماء زهر البرتقال. وها هو «سوق العطارين» إن دكانه هناك. ها هو ذا وقد بدا أضخم من عادته واثقاً من عظمته، بعيداً عن الحمالة الوردية لرافعة نهدي زوجته وعن جموع ذراريه المتخلفين ذهنياً. إن عينيه أشد صفاء مما في العادة. ويخيم الصمت بيننا فأتركه يتواصل (لكل امرئ الصمت الذي هو جدير به). لا ينبغي أن أقدم له قهوة. إذ لو فعلت لجاز أن يستسلم فيسارني ببعض الأسرار وأنا لا أريد أن يكون لي مع هذا النذل أية ألفة أو دالة. وها هو الابن يضرب الهواء، برجليه الهزيلتين على غرار الجراد. إنه يختنق.

ـ ربنا هب لنا من علمك نصيب يومنا.

فلا أجيب شيئاً لئلا أهيجه. فيشرع في التلفظ بجملة ولكنه يلمح ما يلوح على هيئتي من تهكم وسخرية واضحين فيعدل عن جملته وينكص فجأة ثم يحرد ويظهر الاستياء. إنه يبدو لطيفاً في الظاهر ولكنه هو الذي يشجع رئيس

العشيرة على أن يطرح علينا أسئلة ملؤها الخديعة والغدر عن الحضارة الإسلامية (من نوع: يا رشيد هل تعرف كم كان ثمة من حمام في عهد الهيمنة العربية بمدينة قرطبة وحدها؟ فأترددِ قبل الجواب!... يجب ربح الوقت. واتخذ هيئة من به الهام لكي أتمكن من التفكير ملياً ثم اختار التملق. يجب أن أكون سخياً. فأجيب برقم هائل فيضحك الوالد ضحكاً يجمدني هلعاً. ويبتسم بائع الشموع ابتسامة الرحمة والغفران، غفران الكبار لبلادة الصغار...) أما الآن فقد بدت عليه علائم الضجر ونفاذ الصبر. ولم تسعفه سبحته البتة. سأجعله يشمئز!

يقول:

ـ إن الذباب...

فأجيب:

ـ... آ!

وألوح بيدي فأشير بهما إشارات مبهمة وأتصور في قرارة نفسي ذبابة تسف قطاً في بقعة ما من الأرض. وأطفق ضاحكاً، وأكتشف في تلك اللحظة بالذات أن لي يدين تابعتين لي (عجباً واللّه! ما أغربهما!) وأما صاحبنا فهو يهيء نفسه للخروج من تحفظه. سأحاول إثارة اهتمامه. وأسمعه يتململ ويشرع في بعض حركاته ثم يعدل عن ذلك. ثم يرمقني ويخرج في آخر الأمر مصحفاً من جيبه.

ـ هل يمكن أن أتلو بصوت مرتفع؟.. إنها العادة. وأنت تدرك.. إن في سؤاله مكراً ودهاء. كان يرتاب في

ويحسبني من أتباع ستالين! على أنه لم ينتظر جوابي بل شرع في التلاوة (صوت جميل).

ـ لا! لا!

أتعمد مقاطعته. فينقطع ويتساءل في نفسه صامتاً. ثم ينغمس من جديد في التلاوة. إن التعب سرعان ما سيصيبه. وفجأة يزعزع نفسي قلق شديد. لعل ذلك كان دسيسة حبك خيوطها أبي. ترى أي فخ كانوا ينصبون لي؟ يجب أن أجد أسباب زيارة هذا الرجل. وأخيراً أفهم القضية: فهو لم يأتِ إلاّ ليغفو غفوة القائلة مفتوح العينين مرتعش الصوت كالعنز فأرمقه. ها هو ذا قد نام الآن! وأما الصبي فقد جلس أمام التليفون يتأمله بعينين مثل عيني الكلب (بإمكانك أن تعول على هذا). لقد فهمت. لا بد أن تكون زوجته قد طردته من المنزل. فهي المشاجرة الزوجية وأنا الملاذ! يا له من ابتهاج عظيم. وأتخيلها وهي تعيد حمائلها إلى مكانيهما. ليقل قائلته ولينصرف!

بعد حين سيعود أبي مشرقاً متهللاً رغم دمامة خلقته مرتدياً جبة من حرير أصفر منتعلاً نعلين مغربيين، جميل الهيئة. وآنذاك سيلزمني أن أذهب لأحضر له الشاي بالنعناع الطري والماء المبرد بالثلج في إناء ضخم من فخار. إنها الطقوس التقليدية. وستقطع رائحة النعناع المغموس في ذلك الشراب المحرق صوت القبار المعسول وقد بوغت فبرز من قائلته الندية المضطربة في هيئة يرثى لها أمام هيبة سي زبير وبهجته. إنه الحلم قد شرق به وغص. ثم يكون

مجيء أول باعة الياسمين في ضوضائهم وصخبهم. أما الآن فإن صاحبنا نائم نوماً ثقيلاً فاغر الفم وقد سقط المصحف على الأرض بجانبه. وأما الطفل فهو لا يحاول استفزازي ولن يلبث أن ينام بدوره. وفيا لسحر التليفون وفتنته على الطفل.

كنت مصراً على حبي لزبيدة وكانت تدرك نواياي في ذلك. وقد ساءت حالي واخلولقت حتى أصبحت مثل الخرقة ولم تفهم أمي انتكاصي المفاجئ الجذري. كنت أقلد السائرين المتكلمين في المنام وكنت سابحاً في حيرة وتردد. وكنت لا آبه بتوبيخات الوالد (لا ينبغي تعكير الجو!) كنت الذكر الوحيد الذي كان مسموحاً له بالحوم حول ضرة أمي وكان عليَّ أن أحافظ على ثقة ذلك التاجر الكبير. وكانت تبدو على هيئتي وأنا في المعهد علائم الاندهاش إلى حد كبير حتى أنني أصبحت فريسة مستساغة لشر القيم المكنى «الزوال إلاَّ ربع». وكان حبي قد وافق فترة يقظة مشاعري السياسية فكنت أنفث مذاهبي في أنفس رفاقي بالمدرسة وأنشدهم أناشيد عمر الشاعر. لقد أتت تعاليم سي زبير القومية أكلها وأصبحت متصلباً في أفكاري لا أتنازل عنها قيد أنملة! فقد خرجت من جلدي وقد ضقت به ذرعاً فأصبحت لدوداً لا أقبل المصالحة مع أحد: وكانت تشكيات بنات أعمامي وتذمراتهن تنغص عليَّ

حياتي، فكنت أركل القطط والسلاحف وعصافير السطح والحمام وأحتقر جميع الناس شامخاً زاهياً ماحقاً إياهم، فأدهشت النساء من تصرفاتي النزقة. ومع طول الأمد انتهى بهن الأمر إلى العدول عن محاولة كسر قشرتي والتطلع إلى تحتها. وأصبح زاهر أكثر إدماناً على الخمر من ذي قبل. وكان يجمع مالاً كثيراً بتعاطي التجارة. وكنت أترك أمي تحمله كل ليلة من أسافل الدرج إلى غرفته وانقطعت عن النظر إلى نفسي في المرآة كما كنت أفعل في الزمان الغابر، إذ كنت أجدني شديد الدمامة فلم أكن أحب أن تثبط عزيمتي أمام تلك الحقيقة. وكنت وأنا أتوق إلى إثارة إعجاب الرعاع أسب الدين وأجدف على اللّٰه أكثر من سائر الناس وتتصاعد من إبطي رائحة قوية. كان الجو مدلهماً من كل جهة وصوب حول عشقي.

يا لزبيدة من ضرة خارقة للعادة! كل نهد من نهديها بدر في تمامه. والعينان دعوة دائمة إلى الشبق الفياض الفعلي والبطن واسع عريض والشعر غزير ثقيل. لقد كان يلذ لها أن تفسد على أرباب العائلات الذين يعترضونها كل شهر وهي في طريقها إلى الحمام لياليهم الكافرة. يا لها من أنوثة حادة! ترى هل كانت وحشية شرودة؟ أجل. فمن من الناس يستطيع الدنو منها بدون أن يثابر على القيام بعمليات تمهيدية طويلة صابرة. كانت تجهلني أو بالأحرى تتجاهلني. لقد كنت أقضي حوائجها وأزحف بين يديها ذلاً واستكانة. إنه العمى مزج اندهاشاً وذهولاً. يا للألم ألمي!

كانت تستفزني فتبدو عارية أمامي أو كالعارية عند خروجها من الحمام وقد فاحت منها تلك الرائحة الخاصة بالماء الموسخ. لقد زاد في جمالها كونها وضعت مولوداً فأصبحت أماً. وكنت فريسة للألم والعذاب المبرح فنسيت الوالد. وكانت أحياناً تتناول وجهي بين يديها وتنشدني من شعر عمر قوله « ..يا ربي هل يرضيك هذا الظمأ والماء ينساب أمامي زلالاً..» فكنت أقاطعها وانصرف وقد أخذني الفزع مما كان سيحدث. لقد كنت بين نارين نار الوالد المنيع الحصين ونار زوجته المنفرجة (لقد كان اتصال بشرتي ببشرة أخرى أمراً حيوياً بالنسبة إليَّ فكنت ألتمس بنفس الحمية والحماس صفعات الوالد وملامسات الضرة. وكان ذلك في الواقع طريقة من الطرق الممكنة التي استعملتها للخلاص من الشعور بالذنب. وكنت بالطريقة نفسها أترك الرائحة المقيتة المتصاعدة من رئيس الأسرة، والشذا اللطيف المتضوع من سبيته يختلطان في دماغي ويمتزجان. بل إنه كان يتفق لزبيدة أن ترفع أمري إلى رئيس القبيلة فتبلغه خبر بعض الهفوات التي ارتكبتها؛ كانت تشي بي إلى رئيس تلك القبيلة التي برزت من جديد على سطح الأرض بمعجزة لا أعرف لها كنهاً وذلك بعد أن قتلت تقتيلاً وأبيدت في زمن مقاومة الأمير. ولقد استغربنا جميعاً حدوث تلك العودة التي لم يعد يتوقعها أحد. وكان أطعن أعضاء العشيرة سناً يعتبرون أبي المنقذ الأخير الذي نجى القبيلة المبعثرة في كل فج وصقع.

وكان سي زبير مجبولاً على روح الصراع والنضال وكان أصله البدوي قد غرز فيه تعنتاً مخيفاً وجشعاً تحزن له النفوس. كان يهتم بكل شيء وكان العلم يفتن لبه فوق كل شيء وقد اهتدى إلى حذق التكلم بعدة لغات بدون أن تطأ قدمه أرض مدرسة قط. فكان في نظرنا محاطاً بهالة هي هالة العلامة. كانت جيوبه مكتظة على الدوام بالكتب والمجلات يقرؤها أنى أتفق له ذلك. وكان يتفق له أحياناً أن يعلق أمامنا على بعض الكتب التاريخية حتى إذا ما اتسعت الحلقة المحيطة به استشهد بنا في الموضوع (أليس كذلك أيها الأطفال؟) فكنا نهز رؤوسنا بقوة علامة على الموافقة وقد شعرنا بشيء من السعادة إذ قد أنزلنا ولو لمرة منزلة الأبناء (ذلك إنما هو الرجوع رجوعاً عابراً وبصورة انتقالية إلى الأبوة المضنية!) كانت زبيدة تبعث القلق في نفسي بسبب ذلك الطيف الزاحف الذي كنت أراه يبرز من خلال قماش الحرير الخفيف عند حد ثنية فخذيها. وكانت إذا أفاقت من نومها بدت عيناها تائهتين وقد بلغ الغموض منهما حداً كنت أتساءل معه في نفسي هل كان حبها لي قد أعمى بصيرتها فكنت أقع بسهولة في فخ الغرور، غرور الذكر الذي لم ينضج بعد. فتتوتر علاقاتنا توتراً شديداً. كنت أريد ركوبها وهي تترنم بصوت خافت بقول عمر الشاعر: «يا ربي! هل يرضيك هذا الظمأ والماء ينساب أمامي زلالاً..».

كانت ترضع ابنتها كاشفة عن ثديها أمامي فكان

امتصاص الرضيعة يبعث في نفسي شهوة جنونية. فيذكر دمي عمليات الإبادة التي حدثت في الزمن الماضي، واسترجع الطبيعة الحيوانية، إلاّ أن الشهوة كانت ترخي أعصابي فكانت القضية بأكملها تؤول إلى نهاية يرثى لها. كانت وقد أخرجت نهداً واحداً من نهديها تبدو كأنها قد زلت بها القدم فسقطت في اتجاه منحرف وعثرت بها رجلها على مجردات واضحة وضاءة. ترى هل ستتحقق وساوس زاهر في يوم من الأيام؟ إن التكهن تخميناً بدون فهم الموضوع قد جعل من القضية أمراً مشكوكاً في صحته. فكنت أتوسل إلى الروائح المتصاعدة أن توضح لي سر الدم والظل. ولكن هذه العلامات كانت تحتفظ بصمتها ولم يكن لي في أمي أي عون على ذلك. فكنت أعيش إذن عيشة الوحدة والانعزال. كان زاهر كثير الأسفار وكنت أنا اختلف إلى الحانات المشبوه فيها باحثاً عن امرأة قد تشبه زبيدة. ولكن بدون جدوى! وعبثاً كانت ربات تلك الحانات يبحثن ويبحثن إذ لم يجدن لي قط امرأة تكون مثيلة لتلك التي كنت أحمل صورتها معي على الدوام. أما هي فقط كانت في تلك الأثناء تعاني السآمة والملل وتعيش سجينة في الفيلا الخاصة بها: لقد حرَّم عليها كل شيء حتى النزول إلى الحديقة التي استولى عليها نبات الحريق وأحاط بها حزام من ألواح الخشب العالية في حين أن منحدر تلك الحديقة الصغيرة كان ينتهي سهلاً إلى حد البحر.

وبعد ذلك وفي يوم من الأيام وبدون أدنى توقع

لحدوث الأمر قررت زبيدة أن تعشقني وتهيم بي فتلعثمت العبارات في حلقي اعترافاً مني بالجميل. السرير من حديد مطروق أخضر. والزرابي بيضاء والشمعدان الكبير ذو فروع. كان لا قوة لي ولا حول على تحويل نظري عن القط السمين. وكان كأنه مبهور بهرة البذخ وصدر العشيقة الزنبقي البياض وقد امتدت على عرض الفراش. كانت على هيئتها تلك توهم الناظر بأنها نائمة. وكان جسدها ممتداً إلى ما لا نهاية له ولحمها متراكماً. وكان الجزء الأسافل من جسدها منعكساً في المرآة: السرة كفرج ثانٍ أشد غموضاً وأعظم جهنمية من الفرج بكثير. والحزمة بين الفخذين. وإذا ما تمَّ السفاد كنا نمكث هناك ونلزم الصمت وقد وخزنا الألم وخارت قوانا. وكنت إذ ذاك أتردد بين طلب النعاس والخوف من البرد. وفي نهاية الأمر كنت أبقى بين الأمرين دون أن أبت في أحدهما: الفرج ندي مخضل. البذخ والأبهة. النتوءات تعميني. النوم في صلب المرأة التي طمعت فيها مدة أعوام، والسعي إلى الاتصال بالجنين المحاط بالألغاز.. وتنغلق ضرة أمي على نفسها وقد وضعت يديها بين فخذيها. فأطفق أتحسس كالأعمى بحثاً عن الألفاظ أغذي بها هذياني. وتبكي الوليدة في الغرفة الأخرى فتنصرف عارية وتقدم لها ثدياً ما زال مرضوضاً بملامساتي، مبللاً بريقي. ثم ترجع يتقاطر منها ذلك السائل اللبني الذي كانت تحاول عبثاً أن توقفه. فأتذكر نهدي بنت عمي الصغيرة الهزيلين فيتحقق خوفي

المقيت من اللبن. ونظل صامتين ويعجز جميع القطن الذي كانت تستعمله عن إيقاف ذلك النزيف الأبيض. ضقنا بالأمر ذرعاً لأن اللبن قد أفسد علينا كل شيء وجعله محل سؤال ونظر. (ترى هل ينبغي أن نقتل وليدة سي زبير لوضع حد لهذه الكارثة؟). كان الوقت ما بعد ظهر يوم دبق لزج من أيام نهاية صيف عفن فيه شهر سبتمبر المدينة. وكان البحر هائجاً مائجاً. وكانت الأيدي والوجوه لزجة دبقة من شدة الحر. ورغم كل ذلك كنت أشعر بالبرد. لا بدَّ أن الوالد كان بصدد قضاء القائلة عند إحدى عشيقاته. ولم يعد هناك أي حيلة للخلاص! كيف السبيل إلى حبه وقد زحف عليَّ الدم واللبن المتنبأ بهما زحفاً ما انفك يقوى ويشتد. والألفاظ الباهتة المرتخية على تخوم الاستيقاظات المشبوه في أمرها. وكنت من حين إلى آخر أغفو غفوات قصيرة جداً. وإذا تكلمت كان وقع صوتي يطرق أذني كئيباً ملؤه الكرب والهموم. وكنا إذ نواجه الفعلة العظمى نتردد في ملازمة لذتنا الصاخبة القلائية. ترى هل انتهى بها الأمر إلى التراخي والفتور؟ من يدري؟ كنا في تعاطينا الحب كالأعميين يعبر جسميهما النور. كانت تطلق الزفرات وتحملني بذلك على منتهى الاغتباط. وفعلاً فقد كنت أطالبها بمزيد من التستر والكتمان وأنا أبحث عن ذلك النسل المأسوي. كنت أخترق أحشاءها اختراقاً فتخصب تحت بشرتي وتهب نفسها بدون تحفظ. كانت الغرفة جميلة صغيرة جداً والجدران بيضاء (إنها دائماً فكرة المصحة.

ولكن ترى ما العلاقة؟ ما العلاقة؟) وإذا نامت أظل وحدي في حالة نعاس مضطرب في ظل ذلك الفرج الغريب الكريه الرائحة. كان هناك رسوم هيفاء ممشوقة: إنها جدرانيات «تاسيلي» على الحيطان. ولكن الغرابة كانت تفسد عليَّ كل شيء. إنه الشعور العميق بالاستنكار تجاه قدرتي على التعلق بهذا الشيء الفوضوي المشقوق بأعجوبة فظيعة من أعاجيب الطبيعة. التعلق بهذا الينبوع من الحرارة! مثله مثل الحصبة تسخنها شمس الشطوط وتخربش عليها الرموز. ومع ذلك ففيه تكمن النشوة العظمى.

كنت إذن أضاجع. ترى هل كان سبب ذلك صلة الرحم المهانة طيلة قرن كامل من العنف والنار؟ لقد كان إرث السلف يحرك خوفي لأنني كنت لا أريد أن يكون سلوكي كسلوك رئيس العشيرة. وكانت القطيعة واضحة جلية. وأما سي زبير فقد كان مصراً في صرامة على رفضه. فكان لا يفوته قط أن يوقفنا دائماً عند حدنا فكنا نتعلق بجلده مثل البق العنيد: إن التلميح إلى الدم كان جلياً ولم يكن حبي الآثم لزوجة أبي إلاَّ مرحلة من مراحل الكفاح. وأما الوالد فقد كان يتركنا نتشبث وقد أطل علينا من أعلى مرارته وسويدائه في جو من التناغم المشبوه فيه. كان لا يأبه باضطراباتنا ولكنه كان فخوراً بجوعنا المتلهف. فلم يبقَ لنا ملجأ نركن إليه سوى النهب والزنا بالمحارم والخمر: فإذا ما اتفق له أن يرتكب خطأ تبلبلت نفوسنا لذلك فيغتنم تلك الفرصة ليرفع عنا ما كانت تفرضه علينا

عشيقاته اللائي كن يشحذن أظفارهن طوال النهار للتمكن من تحسين عزفهن على القانون. لقد كان يحبسهن هن الأخريات أيضاً فكن يقضين أوقاتهن في تلحين شعر شاعر يدعى عمر لا يعرفه أحد في المدينة سواهن لقد كن فيما مضى من المنضمات إلى دور الزنا فأخذن هناك عن المغنين اليهود من مدينة قسنطينة أبدع الموشحات الأندلسية. وكنت عند الاستفاقة من النوم أتناول العشيقة سالمة كاملة فأنقب بأصابعي في أدخل طياتها وأخفاها باحثاً عن خال كنت فخوراً بأنني أول من اكتشف وجوده إلاً أن ذلك لم يكن قميناً بأن يهدئ من قلقي. لكأن لقلقي رأس جرادة ضاغبة. القط! كان مستمراً في اندهاشه من فخامة أشكال جسد زبيدة. وكنت إذ أراه يسير بهيئة متصلبة أتنبأ بأنه كان يشتهي رفع رجله والبول على سروال الضرة القصير وقد ترك سهواً تحت حراسة ذلك السنور فكان يتشممه بدون انفكاك (كان لون السروال وردياً باهتاً كلون قطع الحلوى يعبّر عن ذوق سمج). ولكن هذا القط العنيد كان لا يتجرأ على البول لأنه كان حسن التربية وكان له وعاء يبول فيه في الحديقة. وكان وهو على تلك الهيئة ينظر إلى البحر الساعات الطوال: إنه لافتتان الضيون! كانت تدلله وتتملقه. كانت حركاتها تدخل الهدوء في نفسي: فيزول عني الخوف: كنت كأنني قد مت بعد وظل فكري يتنقل جيئة وذهاباً داخل رأسي وجثتي المنهوكة. كانت يما لا تحب زبيدة. القط السمين ذلك هو العدو الحقيقي! كان

من اللازم أن أحوله عن عشيقتي وكنت أستعمل لذلك «نانا» قطة أمي. وإلاَّ لوجب خصاؤه! يا له من انحراف جنسي عند الحيوان. كانت زبيدة نائحة كالكدس النابض، شاهرة فرجها المكشرد والمتراكم. رائحة تتصاعد رخصة لدنة. كنت أريد أن يزداد تعفني داخلها قليلاً وأن أستعيد تلك الحالة من الفراغ الثري بالقوة وبالهذيان. كنت أثناء انتجاعي أنقّب بأصبعي باحثاً عن بعض الفجوات غير المنيعة التي من شأنها أن تمحو ذنوبي بصورة نهائية. وكنت وأنا في حالة التراخي واللامبالاة قلما أجد منفذاً لسوء حظي الذي فاقت فيه المغالاة وجه الحقيقة. وعندئذ كنت أسلك من جديد الطريق الوعرة فأنتهي إلى نفس الوسواس من نساء مزقزقات إلى رجال في حالة غضب على صهوات جيادهم إلى حيوانات لا تغيب البتة عن مثل هذه الحالات الحلمية.

ترى هل كانت تضحك ساخرة من خيبتي؟.

أجل كانت تلك العشيقة العجيبة تضحك وهي منتصبة بالضبط على الحدود الفاصلة بين الحلم والواقع اليومي. وكانت كذلك خبيرة بأنشودة الماء فتجعله يختلج عند مساس جسمها. كنا نستحم معاً بغرفة الاستحمام الخضراء الفيروزية اللون الخاصة بالزوج المداس العرض والذي كان في ذلك الوقت يفقد جميع الصلات التي كانت تربط بيني وبينه. لقد كانت تفهم بالفطرة كيف كنت قد عنفت في ضميري وأحرقت كالجص في أحاسيسي ومشاعري فكنت

مسحوقاً ممحوقاً مثل السرفة ذات البصيرة الثاقبة بإفراط. فكنا نبقى حبيسين لتبلد ذهننا تجاه عالم كانت رموزه الهيروغليفية المغلقة تعذبنا بوخزاتها إلى حد الانهزام ثم بعد الهزيمة إلى حد الرضى والموافقة. أجل كانت تضحك. ترى هل كانت شاعرة واعية بذلك الانذهال الذي كنا نعيش فيه في انتفاش وفيضان وافر؟ وكنت أطالبها ملحاً بأن تسيطر على الوضع عوض أن نتكهن به حدساً. كنا ننام ونستيقظ وقد وفقت إلى إبعاد رتابة الحياة اليومية عن هوانا. وكانت الألفاظ وقد خلت من كل فائدة في حالة الصمت تتمزق فتفقد كل مادة وقوام. إنه البكم نستهلكه بصورة ناسخة فاسخة. ترى هل أن الرخويات في الخارج لاصقة بغبار الشوارع الملتهبة حرارة؟ ترى هل تجازف بالسطو على زبائن المقاهي العربية الذين كانوا يحتسون الشاي في ظل الأقواس الباردة؟ لم تكن تدري الجواب عن كل ذلك.

كانت تقول: بل انظر إلى هنا، أنا يطيب لي أن أحدق في ظل فرجي الهجين على ملحفة الفراش البيضاء، أنظر لكأنه علجوم أشعر بالذات!

كنت أتركها تتكلم فكانت تلتف على نفسها ويغمى عليها من فرط اللذة. وتغتسل وترجع فتخر على الفراش. إنه حقاً لضفدع أشعر قادر على إفراز جميع أنواع اللعاب والرطوبة. وكنت أمرر عليه يدي مرة وأخرى وعندئذ بدا القط كأنه يضحك ضحكاً بلغ حداً اختلجت له شعرات

شاربه (كان يشبه قط معلمتنا الفرنسية العجوز التي كانت تنفق وقتها في النظر إلى البحر. لقد كانت تفرض علينا أن نجيء لها بنصيب من السمك لدرس العلوم الطبيعية وكانت تقدم السمك لسيدها الضيون. ومهما كانت الحيوانات والنباتات التي كنا ندرسها فقد كانت دائماً وأبداً لا تطالبنا إلاً بالسمك. وفي يوم من الأيام عقدنا العزم على وضع حد لذلك النزيف المالي الذي كان يحدثه تعهد ذلك القط بالقوت في ميزانية عائلاتنا فقررنا أن نضع القط في كيس وقذفنا به في البحر. فماتت المعلمة كمداً. فانقطع بذلك مقتها للعرب!) رائحة إبطي الأنثى. شعور بالأسف والأسى.. انفتاحة ضئيلة. لقد كانت لذة قتل الوالد فاغرة فاها. ينبغي قتل القط بل جميع القطط. كانت تقول: بل ابتلاع البحر أفضل عندي! وكنت إزاء رفضها ذاك أظهر لها السخط فكانت تخاف لذلك وترتاع. إنه دبيب النمل في رأسينا. إن أبي ما زال تاجراً كبيراً محترماً جداً وعندما يمر بجانب المسجد يقطع المؤذن أذانه ليسأله من أعلى الصومعة عن أحوال صحته. يا له من صوت جميل صوت صاحبنا المؤذن ويا له من إفراط في الزلفى والتذلل! وأسألها: هل كان أبي يكثر من المجامعة فتقول مستغربة: ترى هل يجوز أن تغار من أبيك؟). كانت خبيرة بعصر وجهها وعجنه عجناً وخصوصاً بالتحكم في تلك الخصلات التي كانت تتيه فتصل إلى ملتقى ركني شفتيها وإزعاجها على جبينها. وكنت أقصد إلى جعل زوجها بغيضاً في

نظرها فكنت أقص عليها بكثير من الحق قصة إخوتي الذين كانوا يربون في صحون الديار العربية. فلم تفاجئها قصتي تلك. كل ما في الأمر أنها استغربت عبقرية رئيس الأسرة وقوته على النسل الكثير. «وانكحوا ما طاب لكم من النساء..» كانت تعرف نتفاً من القرآن وكان يلذ لها أن تعرض على الملأ معارفها القرآنية القليلة. وبالعكس فإن أمها كانت متضلعة جداً في الدين راسخة القدم في الشعر. أن زبيدة لما اشتراها أبي في سن الخامسة عشرة كانت بصدد الاكتشاف بأن لها استعداداً فطرياً للغرام.. هل كانت كاذبة في ذلك؟ لقد كنت أظن ذلك منها بسبب ذلك القط وكانت تفرض عليَّ وجوده أثناء رتعاتنا الغرامية. يا له من أمر يدعو إلى الضحك ومن هيئات ووضعيات جسدية غريبة تدعو إلى السخرية. وكانت المرآة تفتننا وتسحر ألبابنا أكثر من جسمينا. لقد كنت أعبدها ولعل مرد ذلك إلى أنها كانت أول امرأة امتلكتها جنسياً حقاً.. فقبلها هي، كنت قد باشرت بنات أعمامي ولكن لم يتعد الأمر معهن حد الملامسات الخبيثة على تخوم المناطق المثيرة للذة. لكم تشنجت أعصابي لذلك! لقد كان الألم يضني خصيتي من جراء ذلك. وكنا أحياناً نحضر عملية النتف الجماعي، ينتف فيها عدد من الصبايا البالغات فروجهن الهزيلة ويعرضن في كآبة وأسى عاناتهن وقد جزت نصف جز. وكذلك كنت قد مارست مع أولئك النساء اللائي لا أعرفهن واللائي كنت ألقاهن في حفلات الأعراس فيدخلن معي

مراحيض الديار العربية. ويختلين بي هناك. ولكن كثيراً كان لهن وليد من واجبهن إرضاعه (إنه دائماً التنبؤ بالحليب) فكن يسرعن في العملية إسراعاً مفرطاً. فيأتين عمليات خرقاء.

هل كان يطيب لها الاستماع إلى هذياني؟

أجل كان يطيب لها ذلك. وفي الواقع كان ذلك طريقتي الوحيدة لإثارة إعجابها. كنت أحس بها وهي تدخل في صلبي وتمتزج فتستوي في أنغامي المجهورة القاطعة. فيتضبب الفضاء ويخرق الزمن خرقاً لولبياً وهو حي، فكنا نسبح ونتيه مع التيار. وكلما زاد الهذيان انتظاماً زاد اعتناؤها بالتفنن في الغرام. لقد كانت لا تستعمل جسمها فحسب بل تستعمل أيضاً حيلاً أخرى إما طويلة مسهبة أو قصيرة موجزة: لقد كانت توفق إلى إضفاء حلة شعرية على العالم المحيط بها بواسطة مجرد نتف من الصور ونتف من أبيات الشعر وكانت رغم حياتها حياة المرأة السجينة تتقن التقبيل مثل الفراشة فتبوسني وأهدابها تخفق فوق شفتي خفقاناً. وخلاصة القول إنها كانت مستسلمة استسلاماً تاماً إلى فنها، فن المرأة التي خلقت لتعبد العشيق ولتغيب عن الدنيا وتنسى الواقع. ترى هل كانت تتقن العزف على القانون مثل بقية زوجات سي زبير؟ لا بل إنها كانت مبتدئة تعزف بدون مهارة فكانت أظفارها لا تقوى على الصمود في وجه وصلة من الموسيقى الأندلسية فكانت لا تهتدي قط إلى جعل الآلة تنطق بالنغمة المنشودة. فأصبحت الآلة

بذلك مجرد قطعة يتزين بها. وكنت أفضل الاستماع إلى الاسطوانات فكنت أذهب فأجتلبها من عند بعض صعاليك الخمارة التي كان أخي يختلف عليها. وكان ناسها لا يحبونني ولكن زاهر - وكان في نظرهم راسخ القدم في العلم - كان له من الهيمنة عليهم ما كان يجعلهم لا يتجاسرون على رفض قضاء حاجتي. وأما أنا فلم أكن أحبهم أيضاً وذلك لأني كنت لا أشرب الخمر ولا أدخن «الكيف» فكنت كلما زرتهم شعرت بأنهم يعتبرونني مخلوقاً من المخلوقات الأحادية الخلية قد أشرف على الضلال وسط عرينهم.

كانت تقص قصة زواجها بأبي فتقول: زواجي إنما هو تتويج لصفقة تجارية لا أكثر ولا أقل. وكانت أمها رغم تضلعها في نربات الموسيقى الأندلسية وفي أغاني الحب والغرام قد وقعت في قبضة سي زبير فكانت علاقتهما علاقة غامضة بل ومريبة لأن ذلك الزواج قد تسبب في مساومات خارقة للعادة: ذلك أن أم زبيدة كانت في حاجة إلى المال. وعلمت عند ذلك أن أمها كانت على علم بعلاقة ابنتها بي وأنها كانت تشجع على ذلك وتحث عليه لاعتقادها أن سي زبير في الحقيقة ليس إلاَّ شيخاً هرماً أضعفته المؤنة وعشيقاته العديدات. كان الجو حاراً. وكان القط مستمراً في عدم تجرئه على البول وكان يكبت رغبته في ذلك كبتاً بلغ حداً صار معه يظلع في مشيته. وكان مع ذلك يغفو من وقت إلى آخر غفوة قصيرة ثم يستفيق. أهو

حب الكسب والربح؟ أهو الطمع واللهفة على الانتفاع؟ إنها الرغبة في القضاء على عادات أجدادي المانوية واسترجاع الأبوة المستلبة. وزبيدة علامة الزنا بالمحارم الزاخر، هنا في متناول يدي. فتنتابني الشهوة من جديد ومن جديد ألجها. اقتحمها طفلاً سيداً.

حمارة القيظ سائدة بالخارج ولا بدَّ أن يكون الناس قد أثقلتهم قائلتهم الندية، وكان الشيوخ يلعبون بلعبة الدومينو في المقاهي الزنجة. الزنا بالمحارم. كنت إذ ذاك دفعاً للتخاذل انتحل هيئات كهيئة الطفل وقد انكمش على نهد العشيقة السخية التي كانت تبدو لي في المنام في صورة قزم. الرجوع إلى الجنين المبهم المعالم اللزج المتقاطر. ولكنه مع ذلك وثيق الارتباط بأحشاء الأم ذات الغدة الدرقية المريضة. كنت أخلط في فترة قمة التلذاذ الجنسي التي يسيطر عليها الاختيال المجرد بين زوجة أبي وأمي: يما نقيض الزنا بالمحارم تماماً! يما ذلك الخنوع الذليل الدائم الصادر عن امرأة مصابة بداء الخزب. وكان هذياني لا ينفك يتفاقم مثله مثل الجرح القائح على أديم اللاوعي مباشرة وقد كشط كشطاً واغتصب اغتصاباً. ولا يبقى بعد هذا المد إلاَّ إحساس باللون الأحمر يخطف الأبصار له أصداء تنتشر حتى تدرك أذني وقد بهرهما كمال تلك الدائرات الأهليجية الصاخبة الحامية. الشعور متفاقم عظمه الجنون المترصد. الهزات والانتفاضات. المعدة معقودة. وكان الخوف يستولي على نفسي عند مستوى السطح من

وعاء بول زبيدة المبرقش باللون الأمغر، المستشفى. المرضى مصففون على الكرسي وفي أيديهم القطط وعلى هيئتهم علائم من ينتظر القطار. ترى هل كان ذلك مصحة خاصة أم محطة قطار؟ وهمزت العشيقة ملحاً عليها أن تفسر لي سر ذلك. فكانت تطمئنني قائلة:

أجل إنها مصحة خاصة بعلاج حالات الإدمان على الحكول. فأقول:

وهل رافقت إليها زاهر؟

كانت لا تدري. فكنت أصبح لا أفهم شيئاً. في البداية كنت لا أريد دخول المكان وبعد ذلك أصبحت لا أريد الخروج منه. وكانت زبيدة تلخص كامل القصة قائلة:

إن ما يستهلك نفسك إنما هو العشق والعبادة!

وكنت أنصرف بسرعة. كانت فترة ما بعد الظهر مشرفة على الانتهاء والحر ما يزال شديداً. وكانت هي تنظر إليَّ وأنا أرتدي ثيابي وأركل القط برجلي قبل أن أنصرف. أكانت ترتضي وجودي اجتناباً للمصاعب؟ أجل ودون أي شك لأنها كانت لا تخفي عليَّ إعجابها بزاهر بينما كان زاهر يبغضها بغض العدو اللدود. وفي الخارج كانت الحرارة خانقة وهي علاوة على ذلك اختلاجية. وكانت الشموس العنكبوتية تبدو كأنها تزحف من خلال السحب ذات اللون الواحد. وكانت الشوارع ثقيلة الوطأة متهيئة تماماً لتلقي عارض من المطر كان يتباطأ في النزول لتطهيرها من غبارها وتوترها. بل كان من المتحتم أن يأمل

المرء نزول طوفان كامل لشدة ما كان الجفاف يقبض النفوس ويغمها غماً. وكان غشاء السماء المعادي يدخل التقزز والنفور في قلوب المارة القلائل. الحرارة خانقة.. واقتحمتها. وأحسست بالدفء بملامسة ذلك الجو الهلامي الأخوي. ولاقيت الرجال من جديد بلهفة لا مثيل لها: كنت خارجاً من الكابوس.

كان عدد النساء قليلاً: وكن يسرن ملتصقات بالجدران كالجرادات المطلية بالكلس الأبيض. وكن مترددات في مشيتهن كما لو كن في بحث دائم عن توازنهن الذي كان في الواقع غير ثابت جداً. وكانت الدكاكين والمغازات كأنها منهارة. وكانت أبوابها وقد أغلقت نصف إغلاق تبدو كأنها وجوه رجال عنيدة مشقوقة. وكان للكلاب لهاث منظم بدقة وإتقان كان من العسير على المرء ألاّ يقلده. الصنابير العمومية نضب ماؤها. وكان الأطفال يكدون ويجتهدون في حلبها. وبعد حين ستأتي بشائر البرودة. وكانت المدينة تنتفش انتفاشاً ملؤه تهافت الأنين العديم الجدوى، لم يعد في استطاعة جرأة المتسكعين العاطلين أن يوقفوا تقدمه. وكانت النساء ـ الجرادات يتركن من جديد محارمهن فينسين انقطاع حيضهن ويترصدن بفارغ الصبر باعة الماء البارد ذي طعم القطران (يا لها من مرارة عزيزة على النفس) وزهر البرتقال. ويبتهل القوم إلى بعض الآلهة المخرقة خرقتها البرودة. وكان الذباب المرح المبتهج في دندنته يرتع ويجيش على الطبخات الحمراء الضخمة وقد

شطرت شطرين لإثارة جشع الشعب الذي كان لعابه يسيل لرؤيتها وذلك رغم السلح الذي باضه الذباب في قعر تلك الثمرة الحمراء. إن سكان عاصمة الجزائر لا يتصدقون إلاً مرة في الأسبوع وذلك يوم الجمعة. وبين الجمعة والجمعة لا يهتم أحد بالمتسولين الذين كانوا يسبون الجلالة في سائر الأيام، ويستفزون رجالات الدين غير الآبهين بما هم فيه من ضيق وشدة. ولكن هؤلاء المتسولين إذا ما اعتراهم الخوف من وعيد المشايخ انقلبوا إلى مردة أشرار كريهي الرائحة وأخذوا في جوبان شوارع المدينة في شراسة وفظاظة. وكان جميع الناس يخافونهم ويجتنبونهم. أما هم فقد كانوا يضحكون بصوت خافت ساخرين من سلطتهم هذه التي لا جدوى لها ولكنها كذلك لا نزاع فيها. كانوا يحترمون النظام القائم ولا يهجمون على المساجد إلاً يوم الجمعة بعد صلاة الظهر. وكان المصلون يسخرون منهم ويغالطونهم فكان الفقراء يطاوعونهم في ذلك لأنه كان يطيب لهم أن يثمروا أموال الأغنياء بالدعاء لهم بالبركة.

رائحة الصوف المحروق.. تهدأ الحرارة قليلاً بقرب الأسواق فتترك المجال لتحل محلها شبه ظلمة عتيقة منطوية في عقر الأزقة المتشابكة الواحد في الآخر والتي كانت تشرف جميعاً على البحر. إن الذهاب لزيارة ذلك «القبار» في دكانه المكتظ بآيات من العجائب والغرائب لإغراء خطير يجب على المرء أن يدفعه بسرعة: إذ كنت أخشى أن أفاجئه في حالة غير لائقة ولو حصل ذلك لكانت تفسيراته

وتعليلاته طويلة معقدة. كنت إذ أمر بالمقاهي العربية استنشق رائحة الشاي بالنعناع التي كانت تنغرز حتى داخل منخري. فتتحرك لها أجفاني حركات لاإرادية لا أكاد أتحملها. كان الفضاء أمامي مجرد تناوبات بين العمى والانهيار كانا يتعاقبان بحسب هيئة الأماكن التي كنت فيها. وبدأت برودة الجو تبعث الحياة في خلائق العباد والحيوانات وقد بدأوا يتهيؤون للخروج من سباتهم الذي كان في الواقع سباتاً لذيذاً. وزادت البرودة بسرعة خاطفة في عدد المتنزهين الذين كانوا يجتهدون كادين في التمتع بها أطول وقت ممكن. ومع ذلك فقد كنت أحلم «بدوش» بارد صاخب وذلك لكي استبدل جلدي بجلد آخر جديد ولكي أمحو آثار بصمات زبيدة! (ترى هل كانت لا تمحي؟) الترنح عند تذكر القصفة التي مرت. صدمة النهود وأثرهما في حيوية الإبطين الفحميين. شبق حركة جموع الخلائق الخصبة التي كانت تحبس هندسة الأشكال المكورة لمناضد الباعة الخرقاء المضحكة. ركام من سقط المتاع ذو نتوءات تخترقه زوايا حادة وتلينه دوائر ذات لونين (لون المغرة ولون الدم الأحمر). وغدت المنازل مجرد فوهات براكين مقعورة في الهواء الطلق. كنت سعيداً وأنا أخترق الزحام المخنق حيث كنت أشعر بأنني إنسان خاص على حدة، وأنني رجل يدمر هذه الأمة التي أحرقها كما يحرق الجص زناي بالمحارم الذي كنت أجره في دخيلتي. وكدت في تكالبي على اجتناب الوحدة، كلفني ذلك ما كلفني،

أمنع حلقة الخلائق من أن تلفظني فكنت أسعى جاهداً إلى البقاء على اتصال بالجماهير التي كنت أضيق بها ذرعاً فأزعزع من حين إلى آخر خدرها وسباتها المعديين (ترى هل خطر على بال هذا الجمهور على الأقل وجود رائحة عشيقتي على بشرتي؟) ومع ذلك فقد لزمت الصمت حتى لا أجعل من هؤلاء المارة اللامبالين مجموعة من الطغاة المتعسفين، وكانت الوحدة.

ـ ليس في إرادتك أخذي إلى المستشفى أي جدوى.

فسأهرب منه وأذهب لمشاهدة الفظائع التي يقترفها زوج سعيدة (أليس يتسلى بحرق بطون أطفاله بطرف سيجارته المتأجج؟) إن مشروعك محكوم عليه بالفشل! ولن أذهب إلى هذه المصحة التي مدحت لي مرافقها وطرقها الثورية في العلاج. وترى لم أذهب إليها؟ الأولى أن تدعني أقص عليك القصة، علنا نتمكن بالتعاون معاً من تعيين مكان الداء ومن استئصاله. سأغمض عيني وأعتبرك غير موجودة هنا كأنك لم تدس قدمك قط أرض هذه الغرفة الحقيرة. هل أنت خائفة؟

ـ نعم بالتأكيد.

ـ أنت لا تريدين أن تكلميني كما يكلم الناس المرضى. فأنت تحذرين حساسيتي. وأما المستشفى فلن يجدي نفعاً. فقد عقدت العزم على الفرار منه.

ـ لن تكون هذه المرة الأولى. . .

ـ لست أدري. لعلي قد فررت في الماضي من أحد السجون.

ـ من سجن... أو من محتشد...

ـ نعم.

وحنقت سعيدة عليَّ من أجل ذلك حنقاً شديداً.

أعرف ذلك.

لقد كنت طفلاً ـ شرطياً أمنع الذكور من الاقتراب منهن واشتمام رائحتهن.

إنها رائحة الشرف العائلي الخاصة الدفينة في قرارة النفس.

لقد وهبتني العشيرة ثقتها.

فتهت تيهاً وعجباً بأهميتي، أنا زباني الزبانية.

كنت رئيس القوافل. وكنت الخصي المغتر بخيلائه أحرس باب الحريم الثرثار. كنت الحارس الواقف على باب أمي التي كان يترصدها خيانة زوجها وتتربص بها الساحرات العجائز اللائي كن يختلسن المواليد ويبعنهم للنساء العاقرات ويبحثن عن الأرامل ليستغللنهن في ملتقيات القصف والمجون التي يمكن أن تقام.

(وكنت أحياناً أحس بعطف وحنان كان ينبغي عليهن توقعهما. يا للأسف! لقد كن مستعدات للتحرر من ربقتنا وربقة عصابة الأعمام وللانصراف إلى أي مكان من الأرض حتى ولو قادهن ذلك إلى غبي يبول، وقد بلغ سن الأربعين، في فراشه، وظل متعلقاً بأمه المهيمنة التي كانت تدلله وتغدق عليه المرطبات التركية. وكانت سعيدة تمقتنا.

ولكن مفعول العادة سرعان ما أباد في نفسها كل ثورة.
ولم يكن رفضها للكفاح إلاّ تعريضاً: فهي قد دخلت بعد
في الشقاء. وكانت كل يوم تغيِّر ملاحف الفراش الزوجي.
ترى كم وضعت من طفل قد نجا في آخر لحظة من داء
الاغتراب. لقد أقلعت عن عادتها القديمة عندما كانت
تكشف عن صدرها من وراء الشبابيك المشرفة على دكان
حلاّق باهت اللون كان أصحاب زاهر يأتون إليه بين
عمليتين من عمليات تدخين غلايين الحشيش لإعادة ربط
الصلة بالواقع. (ولكن لماذا الحديث عن زاهر؟ ألم يمت؟)
خلاصة القول إذن إنها حياة امرأة جزائرية طويلة! الشرف،
البخور، عمليات الختان، المؤن المخزونة من الكسكسي
والطماطم المجففة والقديد، وصلوات المغرب والعشاء
وأشهر الصيام التي لا تنتهي والأضاحي.. وكانت هي
أيضاً قد تعودت على استعمال سبحة العنبر التي أحضرها
لها حموها من مكة حيث سيحج بعد زمن قليل حجته
السابعة. فكانت تفرط في عرك خرزاتها بدل أن تمررها
حبة حبة بين أصابعها بصبر واحتمال على غرار العجائز
المتورعات. وكان لا يزال لديها متسع من الوقت لكي
تنسج في بطنها مني مجنون. كان الوضع يقع كل تسعة
أشهر في جو من الاحتفال مثل الحفلات الخيرية: كان
جميع القوم يصرخون، وكانت سعيدة تبتهل إلى جميع
الأولياء الصالحين متوسلة إليهم بالإسراع في خلاصها.
الحمد لله! واستنشاق تلك الرائحة الحادة الثقيلة لم

يخنقها، وتطفق الزنجيات في الزغردة للتبشير بنزول وحش جديد).

وكنت إذا فكرت في ذلك أخذني الأرق. إنها أخلاط زاخرة كانت تتركني في شبه ذهول وقد توهجت أحاسيسي من جراء السهر ودخلت في الاحتضار.

السجائر لا يحصى لها عدد.

المدينة خضراء كالنحلة الطنانة الضخمة تصر صريراً.

وكذلك حدة صرير الجراد وقد جننه نور القمر الساطع. أود أن أضع نومة على عرض جلدك.

وأن أجـ ـ و ـ لها إلى أن أصل إلى استيقاظة مدينة القصدير؟

إن جنوني ليبرز عند مستوى وعاء بول ليلي قرمزي مصبوغ بالفوة لونه لون السياط. أكان وعاء بول لمحته في غرفة أمي؟ أم وعاء لزبيدة؟ (كانت كسولة لا تريد مغادرة غرفتها وكانت قد حاولت أن تفعل كما يفعل الرجل بأن تبول في «اللافابو» ولكنها منيت بالفشل فحنقت عليَّ بسبب تفوقي عليها في تلك القضية) أم هل كان مجرد وعاء القط المتسكع في الحديقة التي اكتسحتها الأعشاب الطفيلية؟

إرادة حملي إلى المستشفى غلطة كبيرة.

الغليونات تهشمت، والسجائر نفذت.

كمون عانة، مثلثة الأضلاع.

وكنت وقد دخلتك من جديد تستنجدين بالابتهال إلى الشبق الماكر، شبق أحد المتاجرين بدويبة الخلد.

وكان خضاب جفونك يسيل على نصف اسطوانة كنت أجتهد في إعادة وضعها على الإكتروفون الذي استعرناه من إحدى صديقاتك.

ترى أين لاقيتها هذه الفتاة الأوروبية.

لم أكن أعرف أي شيء عن ذلك الموضوع.

كنت في غرفتنا الحقيرة المنحنية السقف أقص عليها حياتي وكنت في ذلك كمن يرحي القهوة (وفي الواقع فقد كانت سائمة).

كانت أحشائي ملتصقة بجوانب دبر لم يغسل كما ينبغي (كنت أسلك طريق الدبر وذلك اجتناباً للحمل).

إنها الضرورة ضرورة تبليغك متحركاً قابلاً للانعكاس، وهو والحق يُقال متحرك ثقيل الوطأة، وضرورة الاستمرار في مسكك هكذا طيلة الليل بدون انقطاع. كان الواجب عدم الغش ولقد كان لزاماً عليَّ إذ كنت ترغبين في أن أدخل فيك سم تلك القارورة من الجنون التي تباع في الساحات العمومية وفي الدواوير بجهة «عين بيضاء» و«سدراتة».

وهكذا فقد كنت أنقل إليك أنت ـ أيتها الأوروبية الساقطة من قارة لا يعلمها إلاَّ اللَّه ـ عالماً ملؤه في نظرك الإفراط والمبالغة.

ستبرز المدينة من جديد. خفش البصر بسبب الخطوط التي تحدث فوهات براكين على القمر.

وستكون لك هالات ملء فيك.

ويبرق فرحي العالق العنيد وقد عضه فك عربة من عربات الترام كانت تقل بائع اللبن تحمله إلى غرفتنا الحقيرة حيث كنت أحبسك لكي أقص عليك كيف كانت أخواتي يحبسن.

ياسمينة (كانت وقد أوشكت على الاندهاش قد خاطت لي سروالاً مضحكاً يوم انصرافها إلى السجن الآخر وقد زودت بمهندس فلاحي ـ سجان).

السعال الموشم.

يصدر من حلق أحد عملة الرصيف وقد انصرف باحثاً عمن يشغله وقد ملئ «كيفاً» يسد الثغرات الصاعدة إلى مستوى فراغ الحلم مباشرة بدون أي فرقعة ولا انفجار.

إنه داء الشرث (وتتحول النساء الغربان ـ نساء مقابر مدينة قسنطينة ـ إلى طيور نورس بيضاء وهن يهيئن الكسكسي في منازل البورجوازية وفي مساكن من حظوا بالترقية الاجتماعية من أفراد «التعاون الفني» من المتعاقدين الأجانب).

التفاهة.

تريد سيجارة؟

ـ نم الآن.

ـ لست في حاجة إلى النوم...

غداً أقص عليك. إنه تناعس يجب ملامسته من جديد.

وستكذب يقيناً عندما ستحاول أن تجعل من العانة المثلثة الخضراء منبعاً من منابع اللامبالاة.

وكنت لا أحب المعادلات وذلك لأن التعزيمة العتيقة تعزيمة الأم ـ الأخت ـ العشيقة ـ المريضة بغدتها الدرقية (ترى ما العلاقة بينك وبين هذا؟) ما تزال بمثابة مأزق مرصع بالإلماس يقطع الحلوق الحامزة الحرشاء.

مجنونتان هاتان البيضتان المخلصتان النديتان في حين أن المدينة باردة. باردة مثل سحور بمستودع الجثث المجهولة الهوية.

ثقبته أوراق العنب الرفيعة التي كان يستعملها للسحر زنجي كنا أنا وأمي نذهب إليه لإستشارته بدون علم أبي، وكان «يتخمر» ويدخل في نوبة جنونية بعد أن يشد على رأسه بمنديل متعدد الألوان. كان مقامقاً، مهنته رفع القذارات بالشوارع ويستعمل قائلاته لسلب أموال النساء واعداً إياهن برجوع الزوج الضائع. ترى ماذا كنت تصنعين؟

شعور بالحاجة إلى النوم. كنت تقولين ذلك (ولكنك لا تفعلين شيئاً).

كنت تحاولين في الليل الأليل البهيم لا يطفو إلاً بصيص من النور الأحمر يحيط بطرف سيجارتك المتأجج، تحاولين تبيّن معالم هذه القصة الغامضة التي ورثتها عني مذ عرفتني والتي بدأت تميزين ثقلها ولاواقعيتها. وكانت النجوم (ولم يبقَ منها في السماء إلاً القليل لأن ضوء الفجر يوشك بعد حين أن يلامس كتفك الفرنسي) كانت تبدو كأنها أشد حيوية.

أن نمنع السلاحف من أن تدب دبيبها بمثل ذلك البطء وأن نطرد جميع اليعاسيب ذات الأجنحة المثقوبة ثقبتها عثث خزانة ملابسنا البائسة. لعل بعض الكلمات قادرة على إخراجي من قميص المجانين.

باللّه قولي لي: ترى من هو المجنون في الواقع!

كنت إذ ذاك أتركك وأذهب فأقف في الصف على أبواب المواخير المليئة بالبق وبيدي قرص من أقراص التليفون (عارية كانت الغرفة وكان بها كانون محمر الجمرات كان يسخن عليه شيء من الماء مجعول لغسل الزبائن ولتدفئة تلك الغرفة الباردة كالثلج، وكانت على الجدران صور لبعض النساء العاريات قصت من بعض المجلات المختصة بمذهب العري. وكان هناك حوض لغسل الآنية وسرير وكذلك كرسي كانوا يضعون عليه الثياب لانعدام معلاق. وكان العرق يتقاطر من جسمي رغم البرد القارس وكان على الفراش منشفة ملطخة بالأدران مبسوطة عرضاً. ترى أيمكن تجنب النظر إلى حوض الاغتسال؟ لكنه كان الشيء الوحيد الذي كان يلصف في تلك الغرفة: إنه أداة عمل تعهدت بالرعاية والتنظيف، وكانت تفتتني مثل المقصلة. وكانت القحبة تجلس عليها مفرشخة رجليها وكنت أشعر شعوراً واضحاً وهي تغتسل ببقبقة الماء بين يديها وفرجها. ثم اضطجعت بعد ذلك على الفراش وقد وضعت إليتيها فوق المنشفة المبسوطة بالضبط ثم رفعت ساقيها. وفجأة وبدون أي فترة انتقالية كان الفرج الضخم

يبرز محزماً بسيور لحماته المسترخية الغائرة ومشققاً بالشعرات والطيات. وكانت تخرج نهداً منهوكاً. وكنت دائماً أخلع ثيابي... ثم أنظر بين ساقي تلك المرأة العمومية وكانت مصرة على رفعهما في الهواء. وكان في أعلى الفخذين وبقرب عضو الشهوة صفيحتان من اللحم الأسود كان بينهما وبين بياض الساقين السمينتين جداً تنافر في اللون. انقطعت إذ ذاك عن الرغبة في الفعلة وعدلت عنها. مشكلة رباط حذائي الذي لم أوفق في حلّ عقده! فكنت أجتهد في ذلك بدون جدوى إلى حد الشعور بالألم في أظفاري. وكانت تلك المرأة البدينة تتململ وقد فرغ صبرها من تحت ساقيها وهي ما زالت رافعة إياهما في الهواء ولم أتجاسر على أن أطلب منها خفضهما ولا على أن أقول لها إن وضعها على تلك الهيئة كان يبعث في رأسي الدوار إذ كنت أخشى إهانتها بذلك. كان من المتعذر عليَّ أن أخلع حذائي الأيسر وكنت أشعر بالخجل بسبب عريي وعرقي المتصبب. وأصبحت تلك المرأة العمومية تحتج احتجاجاً سافراً. وكان الزبائن في الخارج يتململون من نفاذ الصبر. وكانت تقول: «أف لك أيها الشقي ألف أف!» ثم تأتي لنجدتي فتقرر الذهاب للبحث عن مقص وتأخذ في نبش جاروراتها بأصابعها وقد تدلى منها ضرع مسترخ. فكنت أغتنم تلك الفرصة فأرتدي ثيابي من جديد بسرعة وأعتذر لديها وأدفع لها الثمن وانصرف. لم تكن تفهم من ذلك شيئاً!).

كنت بيديك الملتهبتين تبعثين الحياة في تلك القوة المجعولة لاقتحام الأبواب.

ترى ما العمل!

كنت دفعاً لارتكاب الخطيئة مع زوجة الأب أقهقه وسط تلك التلميحات الصباحية المكررة التي كانت توافق فترة الصلوات الهذيانية عندما كان الرجال يتظاهرون بكونهم صردين وذلك لإخفاء غمهم وأساهم. وبعد حين وبمجرد ما يطلع الصباح ينبغي أن تصحبيني إلى المستشفى (إذ يجب أن نرفع هذا الالتباس). ترى كم كان عددنا؟ لقد كنا قبيلة عملاقة تشتتت فيما بعد ذلك ولم يعد في قدرة أحد أن يعيد ائتلافها! وقد مات زاهر ومرّ على موته قرون وقرون بعد. وأما ياسمينة فهي تحتضر الآن في مستشفى آخر. وما زالت الدار الكبيرة في حوزة سي زبير ولا بدَّ أنها تؤوي عماً من أعمامي قد عاد ناجياً من الحرب.

وفي الواقع أنت خائفة مني. واعترافك بذلك لن يكون فيه حلٌ للمشكلة ولن يخفف من احترازك مني. إن الذي تريدينه هو حبسي داخل هذا المرض الخرافي الذي اختلقته اختلاقاً لكي تتمكني من التخلص مني ومن وقاحتي: لقد كنت أخفيت جميع شفرات الحلاقة ومدية المطبخ الوحيدة وانقطعت عن ارتداء جوارب النيلون. ولكنني لم أفكر في خنق نفسي لأول مرة إلاَّ عندما رأيت ساقيك عاريتين بدون جوارب (ترى بماذا كنت تريدين أن توحي إليَّ بالضبط؟) يا لك من أضحوكة وأنت تنظمين مثل هذا الإخراج المسرحي لدفعي إلى الانتحار!

ـ لم يكن ذلك في الخلاصة إلاَّ وسواساً في صدر من ارتكب الخطيئة مع زوجة أبيه؟

ـ لا لم يكن حتى ذلك، إذ لم يكن هوساً حقيقياً ولكن رأسي كان يتضاءل ويتضاءل إلى أن صار مثل النقطة المضيئة الكثيفة الحرشاء.

الماء عكر «أصبحت لا أتجاسر على الاغتسال به خوفاً من أن أطفئ كل شيء». إنه الألم الكثيف ينبع من منفجر ماء كريه الرائحة. خرطوم فيل. فكنت أجتنب حدائق الحيوانات والحدائق العمومية فأمر بجانبها حتى لا أصادف قرداً سيئ الحلاقة (إذ لو حصل ذلك لكان من العسير أن أرفع الشعور بالتشابه بيني وبينه. وبالتالي أن أجتنب معانقته!). إن الاستمرار في الحوار شيء عقيم لأنك ستقولين لي وأنا فريسة لهوسي المثير الغليظ إنني لا أفعل شيئاً سوى الهذيان ومناجاة النفس وأنا ملتصق بطرف بطانية تشيكية الأصل قد بدت لحمتها من شدة بلاها (إنها قصيرة جداً هذه البطانية ذات لون الحرير الخام والتي اجتلبت من المحتشد)؛ كنا نشعر بالبرد يلسع أرجلنا بدون انقطاع. أنت لا تحبين هذه الصورة صورة الأرجل المقطوعة: والواقع أن الغرفة هي الباردة كالجليد: إن زجاج الشباك الأيمن قد تهشم فأصلحته بأن ألصقت قطعة من الورق المقوى بشريط من السكوتش. ولم يثبت طرفه كما ينبغي بسبب الرطوبة. إنك تنتظرين دائماً فصل الصيف ولا تصدقين بقساوة فصول الشتاء بالجزائر. إنها فكرة أخرى من الأفكار المسبقة

المتحجرة! إن بلساني تشنجاً أحدثه هذا الصراخ العالي الذي أحاول بواسطته أن أقص عليك الوقائع المضحكة في حياة عائلة بورجوازية ظلت عالقة بألفاظ القرآن التي كانت تهدهد طفولتي المقلوبة رأساً على عقب. كنا ننهض من الفراش على الساعة الرابعة صباحاً فنذهب لنغفو في غرفة صغيرة هي حجرة سيدنا؛ ذلك السيد المصاب بحمى المستنقعات، ونبول على حصر كانت تجرح أفخاذنا وذلك تجنباً لطلب إذن بالخروج كنا نشك في نيله فلا يسعنا إلاّ أن نتمدد على الجناح الأزرق جناح طائر الخرافة الميت. فكنا عند ذاك نطفق في القهقهة والهذيان إلى أن يبرز احمرار نقطة أفقية كانت تبشرنا بساعة الخلاص. إنني أكرر وأكرر قصتي وأمنعك بهذا التكرار من أن تعلقي بأهداب النوم الرخصة ومن أن تتيهي وقد هدهدتك هدهدة حلوة الحماقات والمآزق الكامنة في صوتي وقد صار ذا نبرات مرتعشة كصوت العنز من جراء الأرق (وأزيد في تدخين السجائر. . .) لقد أريتك يوماً صور ياسمينة وكنت جالسة بقرب السرير فتربعت وتأملت فيها طيلة ساعات. فتانة أختي! لقد ذهبت في سيارة مزينة بالشرائط الملونة زعاقة الأبواق، كانت المدينة بأكملها على علم بالأمر. يا لحماقة هذه الأعراس البورجوازية. إن أبواق السيارات كانت تنبئ بافتضاض البكارة الدامي! وفي المقاهي كان الناس يقفون ليحكموا النظر إلى الركب في زحفه نحو ليلة الصدق، ستبكي أختي أثناءها وتنتحب وسيضيع دمها. ورغم ذلك

كنت في انبهاري الصبياني أتمنى وضع حراسة مشددة عليها: كانت ياسمينة رائعة الجمال وكنت أخشى على العشيرة من العين (لقد كنت تقولين معجبة: ما أروع عينيها). ولم يقم في حراستها زوجها بل حماتها. كانت حارسة بإحدى مستشفيات المجانين فاكتشفت فوراً عند ياسمينة نزعة إلى تعاطي السحر وإلى التظاهر والتصنع فاعتبرتها مريضة ولم تكلمها إلاّ وقد ارتدت بلوزة بيضاء ووضعت على رأسها طاقية الممرضات.

ـ والزوج ماذا كان يقول؟

ـ في الحقيقة لم أكن أعرف عن ذلك شيئاً. إلاّ أنني كنت أظنه متواطئاً مع أمه وذلك لأن عملية إزالة بكارة أختي قد أتعبته تعباً كبيراً فساعدته أمه طيلة شهرين حاول فيهما محاولات باءت بالفشل. ونصحته حماته. وكان أصدقاء العائلة مفجوعين كمن أصابتهم كارثة؛ وتحدث الأعداء همساً فعزوا الأمر إلى قصور الزوج. وأما يما فقد كانت تخشى شر أذية فذهبت لإستشارة عدد لا بأس به من المشعوذين المريضين بالأعصاب ولكن بدون جدوى. وقررت الحماتان أن تخضخضا الماء في مهراس كتبت عليه سورة من سور القرآن ولكن القضية كانت تحتاج إلى ليلة يكون بدرها في تمامه. ولما كانت أحوال الطقس فاسدة باستمرار فقد عدل الجماعة عن تلك الطريقة وركنوا إلى أختها: أن يبولوا العروس الجديد على سيف متأجج ناراً يملكه أحد الأولياء الصالحين. وفي نهاية الشهر الثالث

حدثت المعجزة. فأقيمت احتفالات جديدة وعرضوا على رؤوس الملأ قميصاً ملطخاً بدم بشري. وكانت ياسمينة قد أصبحت ممتقعة اللون شاحبته. يجب تسخين ما بقي من القهوة من جديد. آه من بلادة هذه البطانية! الأرجل جامدة من البرد. وأخذ ياسمينة الهزال: إنها الأحلام الثخينة. كانت خائفة. وألقت عليها حماتها «لالا عائشة» سحرها المؤذي فضربها مس من الجنون فحبسوها في قسم من المستشفى كانت حماتها تعمل به وكانت ياسمينة تمقت العصا التي كانت حماتها تسيرها بها. وراسلتني أختي فقالت:

«إنه لسيل من الدماء. إنهِ الزنبور في أبدع معالم الزينة لونها لون النار. إنني لأجول جولاناً وسط نشوات لم تكن في الحسبان قط. لقد اغتصبوني على الكرسي وهم يجرون عليَّ عملية الصدم الكهربائي فهدأ غيظي. إنه التبر. إنه الجحيم خلال الفخذين عرضاً. وعوض أن أموت من الخجل اخترت الرقاد وسط كدس من اللحم المسترخي، لحم ممرضي الدميم الفظيع البطين. كان من أصل تونسي يتقن العزف على العود إلى حد الإبداع. تلاقينا خلسة في إحدى الليالي. نهدان سليمان كان يعشق عركهما وليال من الندم الفظيع. قل لي يا رشيد ترى ما العمل؟. لقد عشقته وهمت به ففغرت جسمي من جميع حواسه وكان يغمى عليَّ من شدة الحب بمجرد ما أسمع وقع خطى ممرضي الحبيب.».

إنها أخت مسخت مسخاً. وكنت لا أريد أن أصدق ذلك لأنها كانت في السابق دائمة الخجل والعفة. وفي يوم من الأيام غادرت المستشفى ورجعت إلى دار يما لأن زوجها لم يعد يرغب في تلك المجنونة السحارة. وقضت فترة في النقاهة والإبلال فشحذ ذلك من رهافة حسها. ولكنها نسيت جميع أسماء آلات الموسيقى ولم تكن قصة الممرض في الواقع إلاّ محض خيال.

ـ وهل كان لها عشاق خرافيون آخرون؟

ـ لا، وانتكسها المرض فاستبدلت عشيقها بعشيق آخر (إن ملايين من البغايا يردن الدخولِ في بطني. إنني خائفة. ينبغي أن يدخل البحر من جديد في فرجي حتى يخفق ماؤه). وشفيت مرة ثانية وأوت بصورة نهائية إلى دارنا حيث ماتت فيها بمرض الخياطة (وكانت تمقت الخياطة مقتاً) وبحمى الأمعاء ولم تعش أكثر من واحد وعشرين ربيعاً.

المستشفى. أشجار البغونية في الحديقة. النوافذ مفتوحة. الممرضات المصابات بنتوء عروق السيقان يتجولن تائهات ويحذرن المرضى والعقارب الهائجة المائجة تحت الأسرّة. إنهن خائفات ولكن كان الأولى بهن ألاّ تكون لهن سيقان على الإطلاق بدل أن يشنجن أعصاب المرضى بانزلاقات خطاهم المختلسة. ترى ما الغاية من هذا الذهاب والإياب في رفق منافق متكلف؟ إن نشاطهن لا جدوى فيه لا سيما أنهن في مأمن من كل خطر: فإذا وقع أي حادث تدخل رجال متوارون وراء الأبواب وأخمدوا كل محاولة انتفاض. ها هو ذا يترنح: إنه مريض داخل وكأنه ناسك قد أفاق من تخميرته. وإذا ما مددوه على الفراش فإن هذا المريض الجديد يفقد كل أهمية بالنسبة إلينا فلا يبقى لنا إلاّ البحث عن شيء آخر يشد انتباهنا. أشجار البغونية؟ إنها تبدو ذات موقف سلبي. العقارب؟ إنها لا تنفك تدور وتدور في حلقة مفرغة ولا يمكن للصوت الذي تحدثه عند اصطدام بعضها ببعض أن تدركه

إلاَّ أُذن خبيرة. وتصدر طبق مليء غلالاً على الخوان الصغير المشدود بالبراغي إلى سريري: إذن فقد جاءت. أن أضبط بالتدقيق ساعة قدومها أو ساعة انصرافها أمر فوق طاقتي. أن أتذكر ما قالت لي أمر يتطلب مني جهداً من شأنه أن يتركني مرهقاً منهوك القوى طيلة الأسبوع. البشرة تتلصق. والشعور بأنني قد غيرت جلدي باستعمال دواء ملين من المحتمل أن يكون الطبيب قد أعطانيه خفية لأن القانون يحظر مثل تلك الطرق من العلاج: كأن تبدل جلدك. لا فائدة في أن أتذكر ساعة قدومها ولا لون فستانها. أنا لا أعرف اسمها وهو «سيلين». وكذلك أعرف رقم سيارتها وهو رقم خاص جداً. إنها كثيراً ما تعودني. وكان الطبيب يرخص لي في الانصراف معها لقضاء نهاية الأسبوع. وعند ذاك نأوي من جديد إلى الغرفة الدميمة ونستعيد البطانة المخلوقة. وسرعان ما أشعر بالحاجة إلى الرجوع إلى المارستان وذلك رغم أنني قد قضيت الليلة مردداً أنني لا أريد العودة إليه. لم يكن بالقسم الذي أنا فيه أقمصة جبرية ولم يكن أحد من المرضى يصرخ. ولا شيء سوى الممرضات ينغصن علينا لذتنا وراحتنا. إنهن دميمات الخلقة ودأبهن الدائب المستهجن تجفيف مناديل مخاطهن على حافات شبابيك القاعة العامة الكبرى، وعلى وجوههن عجرة تضفي عليهن هيئة ثابتة من المناعة والصرامة. إنهن مرعبات حولاوات قرديات الهيئة هزيلات كالأفراس. وكن يعتبرن أنفسهن شهيدات لأنهن كن يعالجن

جماعة من المجانين. كان بين إحداهن وبين «لالا عائشة» حماة الفقيدة أختي شبه غريب. إنها تجتنب النظر إليّ، وكنت أفعل كفعلها. إن إبنها قد تزوج من جديد منذ عهد قريب (كيف علمت ذلك؟ لا أدري واللّه!) الارتعاد.. والاختلاجات.. والعرق يا أماه! وكانت المدينة تصل إلينا في صورة ضرب من الضجة لا تدرك باللمس مفرطة في القوة. وأما الصيف فقد كان متأبداً صادراً عن البحر وأما نحن فلم نعد ندري ماذا نصنع. يا «سيلين» أذكري لي بتأن اسم المدينة التي أنا بها واسم البحر الذي يحيط بها... إن الأطباء يرفضون أن يخبروني بذلك تعلتهم أنني أتصنع الجنون. اليوم هو «يوم الكراسي» يراها الرائي تبرز كما لو انبثقت من الأرض. إنها كالحة الهيئة مرتبة في صفوفها أحسن ترتيب ملتصقة تماماً بذلك الجدار الجموح الذي سيستعمله المرضى بعد حين لحك ظهورهم وللقهقهة قهقهة لا تنتهي. إن ذلك يخرجني من طوري بنفس القدر الذي يثير به غيظي ذلك الطبيب الذي له عينان لا تشبهان عيون سائر البشر. (بل قل أتراه له عينان؟ اللّه ورسوله أعلم! إنه يخفي عينيه وراء نظارتيه ذات الزجاج الباهر الذي يعكس صورة كل شيء موجود بالغرفة التي نحن فيها (المكتب والمنضدة والأرائك والجدران والألوان والنباتات واللوحات الخ). وفي خضم ذلك الخليط المنظم القاسي تخزني صورتي الشفافة، (كان الموضوع آنذاك أن نتصرف باحثين عن شرذمة من الناس قد مزقهم الترحال وكرات المدافع

فتواروا وراء أخدود هائل عجيب في فج مقفر كانت الأمارة الوحيدة عليه نفقاً سوده الدخان وحظر على الارتال المرور به وتتيه فيه ذاكرتي. كنا كامنين متسترين ثم لا نلبث أن نبرز بسرعة فنستوي قائمين نفعل ذلك كله لاهثين في هذيان جنوني ملؤه الزعرور والحصى. وكانت البنادق ترصع مسيرتي وكذلك رائحة الدم الكثيف الهرهار المتدفق خطاً مائلاً من حلق لعله حلق أحد حراس الغابات الكورسيكيين. وإذا ابتل زادنا وتلطخ حرمنا من الأكل مدة أيام وأيام لا لانعدام الغذاء وإنما الذنب ذنب ذلك الفقيد الكورسيكي ذي الشارب الغليظ والذي كان بطنه السمين الزغب لا ينفك يناوش كوابيسنا ويعفن حتى جو المغارات التي كنا مستترين بها. ولن يستقر لنا قرار حتى نقتله عشر مرات بل عشرين مرة. إلاّ أنه يبرز إلى الوجود من جديد عشر مرات بل عشرين مرة من أعماق تعنته التليد، ويرسل وراءنا سيلاً من الأفاعي ودود الأرض فيضر بحدباتنا التي أضحت لا تطاق ونحن على جنبات الهضاب حيث كان الرجال الورديو اللون يطفقون مقهقهين ساخرين من لامبالاتنا المتصنعة. وكنا بدورنا نتقاطر دماً لا ننفك عن تحريض جماعة بنات آوى إلى حد أن سوء التفاهم المتكرر كان شيء من الشمس يتساقط من حدود الخراب الحادة وكانت على حدتها تجلب معها ذلك الإبهام والغموض الضروريين لبقائنا على قيد الحياة، وإذا ذاك يشمل الليل الهضاب وتصير الحصوات الملساء باردة رغم الحيات

القرناء التي كانت تديم إلى الأبد مداعباتها الغرامية المنحرفة والتي كان يلذ لنا على كل حال انقطاعها. وفي تلك اللحظة لم يكن أي انعكاس لذلك العدم الخاطف الضارب إلى الزرقة يبلغ إلينا، إلاَّ أننا كنا متيقنين من قرب البحر الذي سنتمكن بعد حين من أن نريح على شاطئه أرجلنا التي أدمتها مسيرتنا المرهقة).

الارتعادات... الآلام. اليوم المشؤوم. الكراسي! لم كل هذه الكراسي؟ وكنا على كل حال فخورين معجبين في قرارة أنفسنا بسبب هذا الإشهار الذي كنا محلاً له. هل كانوا من الطلبة؟ أم من الصحافيين؟ لم يكن لاعتزازنا حدود، ولكن العرق كان يغرق راحة أكفنا ويزيد في حيرتنا وبلبلتنا ذلك لأن في الأمر اعتداء على ضمائرنا التي بقيت في حالة خدر وقد رسخت في بدائيتنا المهلسة. وفي ذلك اليوم كان على كل واحد منا أن يغتسل اغتسالاً كبيراً فكنا نتهاتف ونحن نزخرف أنفسنا، وأما الممرضات فكن يحرجلن في مشيتهن خلال الممرات الفاصلة بين أسرَّتنا وذلك لاجتناب الوقوع في الحب من أول نظرة، ولو حصل ذلك لما استفادت به فروجهن في شيء قطعاً بعد أن شاخت تلك الفروج وتعطشت لفكرة الموت الداهم العنيف، فقد كنا عاجزين عن الجماع وكن بذلك عارفات حق المعرفة وقد أتخمتنا بمادة البروميير. وكان الحفل يجري على أحسن وجه. ولم تكن الكراسي لتكفي فكانوا يضطرون إلى الذهاب لاحضار كراسٍ أخرى. فكنا نغتنم

تلك الفرصة فنتيه في متاهات الأروقة ونذهب للنظر إلى أنفسنا في المرايا إذ قد لاحظنا منذ حين وجود بعض الصبايا المكتنزات اللحم وقد تراءت لنا طيات أفخاذهن السمينة المغلفة بالنيلون. وعندئذ تبدأ اللعبة: كانت الغاية تسلية جمهور متحمس، فكنا وقد شحذ عزائمنا اهتمامهم بنا نطفق في هذيان شبيه بالحلم لا يخطر على البال. وعبثاً كان الطبيب قد حذر تلامذته بأننا كنا نبالغ ونزيد عمداً. فلم يكن ذلك ليضايقنا مضايقة مفرطة، بل كنا بالعكس نشعر بفرح لا يفنى لأننا أدخلنا في أذهان الجالسين على الكراسي بعض الشكوك المؤذية في قيمة أستاذهم الحقيقة ولأننا نقلنا إليهم عدوى قلقنا الذي سيظل عالقاً بهم مدى الحياة. وكان الجو داخل القاعة شبيهاً بجو الحفلات الخيرية. وكان يبلغ ذروته عندما يشرع الحاضرون في إلقاء أسئلتهم علينا. وعندئذ كانت نقاشات طويلة تجري على سطح عري تفكيرنا مباشرة على أننا كنا نود لو كان تفكيرنا تفكيراً معقداً لا معقولاً. فكان مخاطبونا يصيبهم الإرهاق. وأما نحن فقد كنا في مستوى المسغبة التي أخذت تنخر رؤوسنا: كان من اللازم أن نقحم من جديد في كل واحد منهم بضع قطرات من الجنون مقترين في ذلك تقتيراً. وكان الضجيج ودخان السجائر ووجه الطبيب النفساني العديم التعبير واضطراب الممرضين المحموم وقد اشتد بهم الغيظ إذ رأونا نعرض أنفسنا فرجة للمتفرجين وأوجه الطلبة الغبية الحمقاء والشبق الكامن الذي كان يرصع ما بين بعض

النماذج الجميلة من المرضى وبعض الفتيات المتعاطفات من علاقات، كان كل ذلك يمكننا من التحليق كما لو كانت لنا أجنحة فكنا لا ننفك ننظر في شموخ من أعلى شذوذنا، وهو شذوذ أثرى وأغنى بكثير، إلى هؤلاء الخنافس ذوي اللعاب السائل الذين جاؤوا يتكسبون على حسابنا بضعة أحلام معصورة بين الواقع والإبهام وذلك ليتحصلوا على بعض الديبلومات الخزعبلات. ولم يغب ذلك عن الطبيب فقد حدد تلك الحصص بساعتين في الأسبوع!

الأروقة الفارغة. والفضاءات المزورة بعنف على بلاطات الأرض. والأوجه المتحمسة. لقد قطعت الصلات نهائياً. أذكري لي في غير عجل اسم المدينة التي أنا بها. وكانت الأيام الموالية ليوم الكراسي عسيرة كأداء: بعضنا كان لا ينهض طيلة اليوم. وأما المصابون بالسوداء فكانوا ينتحرون الواحد تلو الآخر. وأما الممرضات فكن يطاوعن خانقيهن فيخنقن بدون أية مقاومة. وأما أنا فكنت أنتظر قدوم الفتاة الفرنسية التي كانت تجيء لي بباقة من الزهور في كل مرة تزورني فيها وتقدمها لي على مرأى ومسمع من الفلاحين الريفيين فكانوا يتضاحكون لذلك طيلة الأسبوع بدون انقطاع. كنت أنتظرها لكي أعرف اسم المدينة واسم الشارع الذي به ذلك الكوخ الحقير الزاخر بالكتب والمزين بصورة تمثل شخصي مرتدياً زياً عسكرياً أخضر كلون الزيتون. كان من الضروري أن أعرف ذلك لأنني كنت

أشعر بصلة أخذت تنبثق من قرارة نفسي، صلة عسيرة التأكيد بين دخولي ذلك المستشفى وبين تلك المسيرات المرهقة التي سرتها في سالف الزمن بحثاً عن مكمن أو مورد ماء أو كوخ من شأن أهله أن يقروني بكثير من التردد والتحفظ.

لقد جاءت، لقد ذهبت بدون أن تستطيع مدي بأقل علامة أهتدي بها. وكنت أظن احتمالاً أنها تعرف كل شيء وأنها متواطئة مع الطبيب الذي كان لا يؤمن بصدقي. وبدأت أيضاً في التساؤل لمعرفة هل أنني لم أقتل أحد أولئك الرجال الورديين، حينما كان مجتهداً في نظم الشعر، عن نية وقصد. إن هذه الصورة لمضحكة، صورتي التي اقتحمتها بيديك في حزة تلك المرآة المعلقة فوق المدفأة! فكانت تجيب قائلة: ومضحك أيضاً منظرك بهذه العقبة الادغالية التي تحملها في هذه الصورة! (كان دأبها إهمال ذكر الدقائق والتفاصيل). وكانت الليمونات التي جاءتني بها تنتفخ بمفعول الحرارة وتخطط عيوننا وجفوننا. وكنت قد لاحظت على بشرتها تلك السمرة التي يحدثها البحر على الجلد. وكانت تجيبني بأنها كانت ترتاد كل يوم تلك الشروم الصغيرة التي كنت قد عرفتها بها وأنها كانت تتمكن هناك من الاستمرار في الشمس ومن برنزة جسمها كاملاً بدون أن تتعرض إلى مضايقة أي مولع بالنظر إلى النساء عاريات. فكنت أهمهم معبراً عن توقي إلى الذهاب إلى تلك الأماكن من جديد لكي ألتهم جسدها فكانت

تصوت لذلك وتقوق مثل الدجاجة من اللذة. وفجأة كنت ألفيها في نفس الوقت سوقية ليس لها قدر كافٍ من الشبق والشهوانية. لماذا كانت تضحك هازئة؟ لقد كانت تبعث في نفسي حنقاً لا يطاق. فهل كانت تضحك لأنها كانت لا تتصورني على شاطئ أحد شروم البحر بعد الخروج من الضوء الأكبر؟ المستشفى. المجيء والذهاب. الليل الكئيب. حشرجة الحلوق. صوت دفاقة ماء المرحاض. أضوات الممرضين الكامنة وقد أرجعتهم رقة المساء إلى النظر إلى الأمور نظراً أشد هدوءاً ووداعة. أشجار البغونية. الريح بالحديقة الكبيرة. كلب بالفيلا المجاورة. كانت الأضواء زرقاء معلقة في السقف. أنين بعض المرضى المساكين: من المستحيل أن أركز تفكيري!

لقد قالت لي اسم إحدى المدن. فعلت ذلك خلسة وكادت تفعله مع ذرة من الحياء في صوتها. ترى هل كان ذلك بسبب زلزال يقال إنه دمرها منذ بضع سنوات؟ لم تهتد إلى جواب ولكي تخفي ارتباكها أخذت في الضحك مثل الحية غير المؤذية. وعندما انفجر أحد رفاقي وبخها بشموخ وأمرها بالسكوت. فقالت ويدها تبربش في شعرها كما لو كانت تبحث عن مساك شعر مفكوك: «يا لكم من مهوسين!». وكان أغلب المرضى يجهلون الفرنسية ولكنهم كانوا كلهم يضحكون من انفعال عشيقتي الفرنسية التي كانت تعودني وتأتيني بالأزهار والثمار وبمقتطفات للكاتب الفرنسي «آندريه جيد» يتحدث فيها عن مدينة بسكرة وقد

خربشتها على صفحة ورقة كراس تلميذ من المبتدئين. كانت تحدثني عن الصورة، لم يكن بقفاها تاريخ التقاطها (كانت تقول: الأمر بسيط فقد شاركت في الحرب في مكان ما وفي زمن ما ولكن الحرب قد انتهت!) فما قولك في السجن إذن؟ وفي المحتشد؟ فكانت تقول وتكرر بدون انقطاع: أنت تخلط بين الأمور. فكنت أخرج من طوري وأطردها. وكان روعها يهدأ فجأة فتتركني في مرارة اغتياظي وتبتسم لي كما فعلت ذلك أول مرة وكان بأحد المقاهي التي لا تقدم فيها الخمور والكحول. أين كان ذلك؟ كانت تقول إنني أعرف الجواب حق المعرفة. هل كان ذلك في تونس؟ أم في الرباط؟ أم في قسنطينة؟ فكانت تصيح متعجبة: «ها أنك تعرف الجواب أحسن مني». كان ذلك بتونس! يا للعجب لقد كان جسمي يتصبب لذلك عرقاً بارداً. هل كان في وسعها أن تفسر لي أمر المحتشد ثم أمر السجن بعد الاستقلال بكثير؟ لا لم تكن تعرف شيئاً عن ذلك الموضوع.

لقد جاءت ثم رجعت بدون أن تمدني بما كانت حالتي تتطلبه من يقين الأمور، حالتي العقلية التي كانت مع ذلك هادئة. كنت أعد نبضات قلب شيخ كان يحتضر بجانب سريري. لعل الأمر يقتضي استحضار الطبيب... ترى لمَ لم أنبس ببنت شفة قط بشأن ليلى أختي اليهودية من أبي؟ كان النوم أمراً مستحيلاً. وأنى لي أن أنام وقد اقتحمت القبيلة علينا فجأة هذه الغرفة القذرة من غرف المستشفى

وسط رائحة مناديل المخاط الجافة على حافات الشبابيك المفتوحة على ليل المدينة المتلألئة، بأسافل وهدة «المرأة الوحشية»؟ ترى إلى أين انتجعت هذه القبيلة لكي تنتظر آخر لحظة قبل إطلاق سراحي فتأتي لمحاسبتي؟ يا له من بدر منير في بذخ وأبهة! كانت أجسام أصدقائي النحيلة الرقيقة تلصف في الظلمة الخافتة ظلمة هذا القدر العظيم من الضيق الذي تعطل بصورة وقتية.

وصلت ليلى إلى دارنا بعد جنازة ياسمينة بزمن قصير. كانت بنتاً غير شرعية أنجبها سي زبير من امرأة يهودية كانت تشتغل خياطة. لم يكن أحد على علم بوجودها. قال لي أبي: «هذه أختك» بدون أن يضيف أي تعليق آخر. وكلفت بالاعتناء بهذه الملتحقة وبتلقينها مبادئ الحسابيات. وأما أمي فقد رفضت اقتبالها رفضاً باتاً. ولكننا أنا وزاهر ألححنا عليها لكي تستبقي ليلى معنا فنزلت عند رغبتنا في النهاية. أما زاهر فقد فعل ذلك بسبب نسب ليلى اليهودي وأما أنا فقد فعلته بسبب جمالها الخارق للعادة. وكنت ألقنها الدروس صباحاً. وأما فترة ما بعد الظهر فقد كنا نقضيها في التساؤل حول شؤون الوالد، وكانت ليلى لا تعرفه إلاً قليلاً. كانت تضحك بدون انقطاع فتهيج نساء الدار ويتسارعن إلى المكان لكي يرين عن كثب هذه الفتاة المتوحشة التي نقلت كالنبات من تربة الحي اليهودي إلى هذه الدار التي كان الإسلام يمثل فيها التعلة الدائمة. ولكنني كنت أعرف كيف أطردهن وذلك لأن سلطتي على نساء أعمامي وبناتهم ما فتئت تتعاظم. وكنت أعرف عند

الاقتضاء كيف أقرض أصابعهن سهواً بصفق الباب فجأة بعنف. ترى أي سحر بل أية رقية مؤذية كانا يستأثران بي بغتة؟ لم يكن الدفاع عنها أمراً كافياً بل كان من اللازم أيضاً التذرع برحمتنا وقد أذهلهما ذلك الأمر الشاذ الذي كان أئمة الإسلام وأحبار اليهود متعنتين في تأكيده وإبرازه. الملامسات... كنت أطردتها من غرفتي عندما كانت دندنة حاستي الجنسية تنذرني بدنو ذلك التبذير المحتوم المشتق من الوالد المنسل، وذلك لأن ليلى كانت تأتي كل ما في وسعها لكي تهيج مشاعري وتتواطأ معي في الخطيئة. وكان من اللازم مخاطبة الطبيب في تلك القضية: ترى هل اغتصبت أختي من أبي؟ إذ لو فعلت لكان في ذلك تعليل لتدخل القبيلة الشيطانية في هذياني وقد خرت ترتجف شوقاً إلى التلاقي من جديد وإلى انضمام أشلائها انضماماً تاماً وذلك لأن استقلال البلاد قد جاء فجاءت معه تصفيات الحسابات والثأر والاحتفالات وعمليات الإثراء الجديد بلا حياء ولا خجل.

لم يكن استيقاظنا بالمستشفى ليجري بدون تنازع بغليظ القول بين الممرضات والمرضى وهم ما زالوا متعلقين تعلقاً واهياً بشلي من أشلاء كابوس من كوابيسهم. كانوا يجتهدون كادين في فهم معناها. هباط ومباط. الصدمة الكهربائية. أشجار البغونية. الشبابيك المفتوحة. الممرضات بلا سيقان. مناديل المخاط. العروق الناتئة على السيقان. ترى أي أنواع الضحك، وأي سعادة يمكن تعليقها على وجوههن التائهة الشاحبة شحوب الشمع؟ وكان الأمر ينتهي بي إلى الغفوة عند مطلع الفجر الجليدي.

وبعد التلمس كالأعمى جاءت المرارة. ولم يكن ثمة أي شيء من شأنه أن يجعلني مستعداً لتحمل مسؤولية موت، حتى ولو كان موت زاهر، ولذلك فقد وجب أن أترك حومي ولفي حول أمي وزوجة أبي وبنات أعمامي والقطط والأعمام والوالد وأخيراً حول ليلى، وأن أستقر نهائياً بين أحضان النقمة والحقد. كان كل شيء غارقاً في عالم سيصبح فيه دور الوالد لغزاً تاماً ولم يعد هناك شيء نبحث عنه لأن زاهر قد مات بدون أن يهتدي إلى توضيح لغز الجنين ولا تصرفات زوجة الوالد الشبقة التي أفلتت من وسط الحريم وأخذت تتفنن في خلع سروالها التركي في تلك الغرفة الصغيرة حيث كانت القطط تأتي إليها لتلحس بمحضري اللبن الذي كانت تقدمه لها بضغط أحد نهديها على الآخر، نهديها الرائعين العجيبين كعجيب أساطير الأولين. ولم يكن يبقى لي إلاّ مركن واحد ألجأ إليه: أن أتعثر على تناقضاتي وأن أعجنها عجناً وأسيء معاملتها حتى أصل إلى استحضار عالم كنت أشعر شعوراً ملحاً بأنني قد

أحسست به من قبل، أو إلى تصور كلمة يقطعها جرس إحدى عربات الترامفاي وأخالني قد سمعتها من قبل في نفس الظروف. وهكذا فقد كان كل شيء في تدحرج وانقلاب؛ ومرة أخرى كان أولئك التجار الكبار على حق وكانت سبحاتهم التي كانوا يفركون حباتها بين أصابعهم بسرعة جنونية تبعث في الرأس الدوار وتقنعني راسخ الإقناع بأنهم كانوا على حق. كانوا يرفعون حواجبهم ويرخون شفاههم المسترخية المبللة للتعبير عن أن موت زاهر لم يكن شيئاً عرضياً بتاتاً لأنهم كانوا يعرفون منذ زمن بعيد أن ذلك سيحدث لا محالة. وكانوا يبرزون للناظر وجوهاً عطوفة زائفة ومناديل للمخاط جديدة يستعملونها لتجفيف دمعة مختلسة تنزلت إلى حافة العين سهواً. ولكن الأسى الحقيقي كان كله من نصيب النساء، ذلك أن النساء وحدهن كن يعرفن كنه الحب والمودة وكن لا ينقطعن طيلة الأسابيع عن إطلاق صرخاتهن المشنجة للأعصاب ويجمعن بصراخهن سائر نساء الأحياء المجاورة فيهرعن للنجدة وإغاثة المستغيث فيقطعن ثيابهن ويمزقن وجوههن حتى تسيل دماؤهن وذلك بمجرد ما تجتاز قدمهن عتبة الدار ويزبدن من شدة الألم ويتمرغن على الأرض. وأما الوالد فقد كان يرقص حول خزنة ماله الفولاذية الخالدة وقد تبدلت ملامح وجهه فرحاً. ذلك أنه كان يمقت ابنه الأكبر منذ حدوث الطلاق، تلك العلة التي لم يبل منها واحد منا قط: لا يما وقد هيمن عليها هيمنة تامة جماعة السحرة

المشعوذين ولم تنل منهم شيئاً، ولا الوالد الذي كانت زوجته تخونه بسبب ذلك القط المحجوز في تلك الحديقة المهملة التابعة «لفيلا» حي «البيار» وهو قط مفتون بالبحر فتنة بلغت به مبلغاً جعل مشيته مشية عرجاء ملؤها الارتجاج، ولا زوجة الوالد ضرة أمي وقد شدت إلى قيد حلمها العملاقي الذي تحقق حول حماقات سكير لم تشف غليلها منه قط، الذنب في ذلك ذنب رجل مدمن على تعاطي اللواط يعشق ذكور اليهود ويدخن الكيف مات في بلد أجنبي بعيداً عن الأرض المدمرة وعن القبيلة التي كانت لا تميل كثيراً إلى تصرفاته التي بلغت ذلك الحد من الشبهة والريبة، ولا أنا في النهاية وقد دأبت على تكريس عمليات الزنا بما حرم اللّه وذلك بسبب يدي الاثنتين الصردتين اللتين كنت أحاول سدى أن أدفئهما على ذلك الجسد المتأجج ذي اللحم الأحرش المكسو شعراً والذي كان منبعاً تتضوع منه روائح لا تطاق وتنبثق عنه تجديفات غاضبة خانقة كان الذكر ينتهي به الأمر دائماً إلى ترك روحه الملعونة فيه. لم يكن موت أخي سوى نتيجة طبيعية لأعمال القبيلة التي بدأت بعد في الاستعداد للأخذ بثأر طالما انتظرته ولم يكن زاهر إلاَّ ضحية قدمت طلباً للغفران والتكفير عن عنف إجباري كان سينصب على البلاد فلا يسلم منه أحد، فالكحول مثل الدم كانت ضرورية لهذه الأرض التي انكشف عنها الطوفان والتي قلبت أوضاعها طيلة هدنة طويلة لا تحتمل.

إن زاهر لم يكن له أب قط ولن يمكنه تنكره في صورة جثة نتنة الرائحة في حالة متقدمة من التعفن من أن يكون له أب. فقد كاد ذلك التاجر الكبير يطير ابتهاجاً في دوي وصخب وكان لا يخفي فرحه بتغلبه في النهاية على ذلك الابن القليل الكلام الذي كان سي زبير يخافه ويخشاه دائماً أكثر من خوفه من أي إنسان آخر. وفعلاً فإن علمنا بتصرفات الوالد كان عظيماً جداً وكان ذلك يجعل شيخ القبيلة الحذر يزبد ويرغي فينتقم منا بأن يجعلنا مسخرة في نظر تلك الكائنات الجنينية في السابق والتي بلغت بضرب من خارق المعجزات سن الطفولة وذلك رغم اللبن المسموم الذي سممه ريح فم ذلك الضيون الأعرج، ورغم جميع الجداجد التي ضحينا بها وبترنا أعضاءها فاضطربت اضطراب المتخمرين، ورغم الزنا بزوجة الأب الذي لم نقنع فيه بفراش الوالد بل انتقلنا به إلى حوض الاستحمام حيث كان الماء لا يزال دافئاً دفأه وضوء الزوج صباحاً قبل أن ينصرف مبكراً ليصلي بعض الصلوات العاجلة. ولم يكن سي زبير وحده فرحاً منشرحاً بموت أخي. بل أن أغلب أعمامي كانوا سعداء، أسعدتهم تلك الغنيمة العارضة غير المنتظرة وذلك لأن زاهر كان يبعث في نفوسهم الرعب والإرهاب على الدوام. وأما بنات أعمامي فأنهن كن لا يغفرن ما كان يبذيه لهن من احتقار واستصغار. وكانت زبيدة الشخص الوحيد الذي شاركنا ألمنا حق المشاركة فقد فوجئ جميع القوم بذلك الحماس العنيد الذي أظهرته في

تمزيق خديها وفي عض شفتيها. أما أنا فقد كنت أعرف منها ذلك الحماس في الصراخ وذلك لأنها كانت تتصرف نفس التصرف عندما كانت تشعر باللهفة الجنسية تدخلها وعندما كانت تتدحرج معي في أعماق الفراش وقد ساء خلقها لاعتقادها أنها ستقتنص الخلود الشعشعاني من خلال أسافل بطنها وقد تفرقع بألف عنف جنسي وعنف كانت كلها مكبوتة في حضور زوجها المترهل الشحم الهرم. وكان انتظارنا لوصول جثة زاهر قد زاد على ثقل وطأة الجو ثقلاً آخر. وكانت النساء من حين إلى آخر تصيبهن نوبات من الصمت المريع كنا نخشى معها أن يكن قد فقدن توازنهن العقلي. وكانت النائحات المحترفات القادمات من مدينة قسنطينة يدرن المأتم بحكمة ودراية فيرفعن عقيرتهن بالدعوات والابتهالات، وكانت المجموعة الصوتية النسائية تكررها بعدهن. ولئن حدث لهن أن يلطمن خدودهن فأنهن كن يفعلن ذلك بأقل إيمان وصدق من أمي أو زوجة أبي. فترى كيف سيكون الأمر عندما سيأتون بالجثة إلى الدار الكبيرة! لم يكن الأمر في تلك الفترة إلاّ مجرد مقدمات تمهيدية للمأتم. وكان المنزل قد زحف عليه الناس من كل فج وصوب فاكتظ بهم اكتظاظاً. وكانت النائحات يصلن ويجلن حاكمات مقننات، يغمزن بأعينهن قراء القرآن الذين كانوا يلعبون لعبة الورق ريثما يتهيأ لهم الشروع في نشاطهم. رائحة البخور مرة أخرى! وكان القوم يأكلون الكسكسي الذي غصت به الغرف وكان الأمر يؤول بهم في

النهاية إلى اعطائه إلى المتسولين الذين كانوا يهرعون إلى المكان بسرعة في مثل هذه الظروف. ويطول الانتظار ويتأبد وتنتقل الأسرة وقد عيل صبرها من حالة الخدر العقلي إلى حالة من الاستيقاظ ترجع بها فجأة إلى طور الصياح والعويل والعنف والتألم.

وبطول المدة غدا نواح النائحات مجرد خلفية صوتية تنعكس عليها زقزقة النساء المثرثرات بدون أي تحفظ. فقد كن يعتبرن أنهن قد قمن بما فيه الكفاية من أعمال في تلك المرحلة فأخذن في الاستراحة لكي يكن قادرات على الاضطلاع بالواجب أحسن اضطلاع يوم الجنازة. وكان الوالد قد سافر منذ أسبوع إلى فرنسا ليعود بجثة الميت. وكان يقول في التليفون إن الجثة قد بقيت على حالها بفضل الوسائل التقنية المحكمة المستعملة في بيت الموتى النموذجي الذي كان من حسن حظ الميت أن نقل إليه. كنا في شهر جوان وكانت الحرارة مخنقة ولم أتجاسر على حلق لحيتي خوفاً من أن أقدم للقيل والقال فرصة سانحة للتفاقم والتكاثر. وقد زاد انزعاجي وتحرجي لا سيما أن هيماتلوس (صديق أخي اليهودي) أصبح بعد عودته منذ زمن قريب من إسرائيل لا يغادر غرفتي خوفاً من أن تكتشفه أمي فلا تقبل وجود هذا اليهودي في دار الميت. وكنا نكاد لا نوجه الخطاب لبعضنا بعض، وكان ذلك الأستاذ يقضي أوقاته في حل مشاكل من علم الفيزياء وفي إنشاد بعض القصائد الشعرية بصوت مرتفع، وكان يقطع انشاده من حين

إلى آخر ويسعل سعالاً خفيفاً ويسألني إن كان فعله ذلك يشوش عليّ راحتي فوق الحد أم لا. وكان أحياناً يغرق بلهفة في قراءة التوراة مرمرماً: «قراءة التوراة تهدئ أعصابي..» وكان ينتهي به الأمر إلى إخراجي من جلدي فألح عليه ولا أتركه حتى يقبل أخذي معه في سيارته إلى إحدى خليجات «تيبازا» فكنا نعوم هناك ويكتسي موت أخي أبعاداً أعجوبية كان جبل الشنوة في تغيراته الأبدية يعززها إلى حد الابتهاج المحلق. وكان اليهودي يتعمد تعهد ذلك الابتهاج بانشاد قصائد من شعر المدرسة الحرفية وكنا نركض على الحصى الأملس وعلى الصخور ريثما تغيب الشمس فتتجرد الأشكال تجرداً غريباً يكاد يكون معمياً للبصر. وكنت وقد تشنجت أعصابي فوق الاحتمال بسبب سعة أوهامي السرابية أطفق في صب وابل حقدي على ذلك الأستاذ فلا أنفك أتهمه بأن لواطه لواط مزور فلم يكن له إذ ذاك من حيلة يركن إليها إلاّ ضربي وإسكاتي قسراً. فكنت وأنا مهزوم ألتمس تضاريس حادة أقطع بها رأسه، ولكنني كنت، وقد ثارت ثائرتي رغبة في تلطيخ كل شيء، تضيق أنفاسي فأخر على الرمل الملتهب لأطفئ بذلك تلهفي على القتل والإجرام. كان الماء الجليدي الأزرق اللون يدفع بي في دوار قوامه التقطع وأشلاء الأسنان التي كنت ألمح بياضها الجنوني عند متناول يدي. فتبدو لي كأنها ذكرى باهتة لم تبرز من أعماق سوء نية كئيبة بل كنت ألعقها في حرارة بلساني فتغشيه فوراً بثور قلاعية تبقع داخل

الفم وتغطي مرارته الأولى. وإذ ذاك يبدأ شيء كأنه بداية الموت في الاستيلاء على نفسي. وكان ذلك الأستاذ الفظيع الذي يرثى لحاله لا يحول عني بصره مقلباً في ضميره وعلى مختلف وجوهه بعض الخطط الشاملة التي لم تكن حماقتها لتخفى على نفاذ بصيرتي. وكان الماء يمتلئ فجأة بقنافذ البحر فتضفي عليه لونها الأحمر وتمنع السابحين من ولوجه. وإذ ذاك لم يبق حق لنا إلاّ في رشاش من ماء البحر كانت تقشعر له جلودنا اقشعراراً لذيذاً صرداً وتزبئر شعراتها وتنتفش انتفاشاً وكانت وخزاته في الهواء الساخن تبعث في نفوسنا لذات لا نظير لها. وكنا أنا و «هيماتلوس» وقد استسلمنا إلى تفتح قنافذ البحر وإلى دمار التربة الحمراء التي كانت تشرف على الآثار الرومانية لا يسعنا إلاّ التصالح ريثما ترجع جثة الأخ (بيد أنه كان من الضروري بالخصوص ألاّ يمس اليهودي ذلك الجسم المسترخي، جسم أخي الذي سيصب عليه شيخ العشيرة وابلاً من الآيات القرآنية ملؤها الغضب والاغتياظ) وكنا نقضي على الشاطئ أياماً كاملة، وكثيراً ما كان يخيم علينا فيها صمت يبلغ حداً كنا نسمع معه خرخرة الجو حولنا التي لم يكن يقطعها في حمارة قيظ الظهر الحانقة بين الفينة والفينة سوى وصول بعض بائعات الفخار الصغيرات خفية، قد جاءت لتتبرد من حرارة غبار الطريق. فتدخل الماء بدون أن تخلع فستانها الطويل. فكان ثوبها يقولب جسمها عند خروجها من استحمامها في البحر فترجع إلينا بتلك الشهوة رغم

انتظارنا الطويل الممل الذي كان يشدنا شداً إلى ذلك الشرم حيث كان هيماتلوس يحاول سدى عقد شعور الصبيات المبتلة. وكان الاهتياج الجنسي يخرق نفوسنا بسهامه ويجعلنا نزقين محمومين في آن وكنا بين المشاجرات وذكر الصبيات نجد دائماً متسعاً من الوقت لنغفو غفوات لا تطاق بسبب جسمينا الملتهبين ولحيتنا وقد سال منها رمل دقيق لم نوفق إلى إزالته قط. وكان يقبل علينا أحياناً حمار وحشي قد انفصل عن القطيع باحثاً عن الأشنان الكثيفة وقد بهرته اختلاجات الهواء، فكنا نطارده لمنعه من تلويث ذلك المكان الجليل. ولكن ما أن ينصرف ذلك الحيوان حتى ننهمك من جديد في المطالعة فنستعملها كالأمارات ننطلق منها للتأمل في وسواس الموت وقد تصورناه من خلال تابوت مضحك عجيب آت من وراء البحار. ولم يكن في موت زاهر أية أبهة لا سيما أن مصيره كان معلقاً برافعة أثقال ستضعه على الأرض عند إرساء الباخرة بالميناء كما تضع بعض الآلات المعقدة أو كيساً بسيطاً من أكياس الفول. وكان صديقه يقول ويكرر: إنهم قد خانوه وإن الأحرى به أن يترك الدود يلتهمه وذلك ليتجنب مراسم موكب النواح والنديب وليجنب بنفس الفعلة أمه أن تقف منه موقفاً مزيفاً لا مناص من أن يكون قائماً على اللامبالاة أو الاستفزاز اللذين من شأنهما أن يذهلاه. وفعلاً فإن إهانة النفس كانت المنفذ الوحيد للرجوع إلى صلب الألوهية وقد أغضبها هذا العدد العديد من الأعمال الخرقاء

التي تراكمت في غضون خمس وعشرين سنة من حياة ملؤها المغامرة. وكنا إذا ما أعيانا الانتظار يبلغ بنا الأمر مبلغاً يجعلنا لا نتحمل أبهة ذلك الشاطئ الصغير الذي قد يناسب قط زبيدة، فلو أتاه لتأمل قنافذ البحر تتلألأ في الماء الأخضر خضرته حشائش البحر ولأخذ يضلع في مشيته ما طاب له ذلك ليتخلص في النهاية من تلك الرغبة الملحة التي كانت تمزق أحشاءه. علينا أن نعجل بالانصراف قبل أن يبلغ بنا الخيال مستوى الهلواس المدهش العجيب الذي سيلازمني أياماً طوالاً كاملة ويفرغني من حدادي، وهو حداد عالق ملح زاد في علوقه ارتباطه بهجرة لا نهاية لها كنا جميعاً مرغمين على القيام بها وبترحال خارج أرض الجدود المخربة المخدوشة المطموثة البكارة والتي لا قدرة لها على منحنا أدنى مدفن حتى ولو كان حقيراً أقيم خلسة على ضوء الشموس في بقعة كالحة من الأرض على تخوم الصحراء حيث يصبح الصخر غير قابل لتشرب السوائل ويتحول إلى كتلة حجرية طويلة سلهبة كنت أذكر أنا واليهودي حدتها. وكانت الخيانة خيانة عظمى لا سيما أن الأرض المجففة كانت في حاجة إلى جثث طرية لتمكين القبيلة من الاستمرار في الحياة. ترى ما عسانا نصنع بميت قد فقد جميع نسغه وطعمه في مدفن تحت الأرض مكيف الهواء بإحدى المدن الفرنسية ولم تتح للدود الفرصة ليأكل منه فيسمن؟ ذلك الدود المنكمش على نفسه جوعاً وعطشاً وقد أخذه دوار غريب

في انتظار المأدبة التي وعد بها منذ زمن بعيد والتي تأخرت عن موعدها. وإذن فقد كنا متواطئين مع الديدان والسرفات وكان جميع الناس في دار يما يرون لنا وجوهاً شيطانية الملامح لا سيما بسبب لحيتينا اللتين كادتا تنقلبان مظهراً من مظاهر التنكر. وكان الأمر ينتهي بنا إلى مغادرة الخليج والانصراف في الليل راجين بجبن واضح، أن لا نتمكن من اجتناب بعض أشجار الدلب التي تكون أشد ضياء من غيرها فنتحطم عليها ونستجيب بذلك إلى داعي ميلنا الانتقامي. وكانت نفوسنا تزخر بنفس تلك الضروب من القلق عندما كنا ننغمس في مياه «تيبازا» العميقة وذلك لنتعلم الموت ولنشعر بآذاننا تختلج عند تهالك الشمس الاهليجي وقد بلغت منتهى عظمتها.

وكنت متى تمكنت من التخلص من اليهودي أعود إلى الدار فأجد النائحات وقد أمضين خمسة عشر يوماً في الانتظار علانية بين أحضان قراء القرآن وقد خارت قواهم وترهلت ملامحهم من جراء مثل ذلك العدد الكبير من السهرات ودفقات المني. كانت الحالة في تدهور متفاقم. وكانت الغرف تفوح برائحة زنخة هي رائحة فروج النساء المنقوعة في الخل تحت حرارة شهر جويليه ورائحة شلح الحيوانات المصابة بالقبض. كانت تلوث بشلحها في فترات منتظمة ثياب رئيس جوقة القراء الأعمى الذي كان مصراً على بعث نواح متكلف من شأنه أن يبلي جسمه وجسم امرأة شابة لا أعرف اسمها ولا أصلها، كانت مثقلة بالعنبر

ومخرقة بالخال بمقرب من ثنية فخذها الواسعة السخية (حسب قول بنات أعمامي وقد رأيتها تتعرى من ثيابها) وكانت هيئتها تشعرك بأنها قادمة من أوروبا الوسطى وذلك لأنها كانت تلمح إلى مخاطبيها بأن الحرارة كانت تتعبها أكثر من سائر النساء. ترى هل كانت عشيقة زاهر في حياته؟ لم يكن في استطاعة أحد الجواب عن هذا السؤال. حتى أمي كانت عاجزة عن ذلك وقد طعنت في صميم خيبة آمالها. وكان الأعمام يتجولون هنا وهناك ويغتنمون فرصة الهدأة المؤقتة فيملؤون الدار بوجودهم الكريه الرائحة المتعثر في أذياله. لقد استرجعوا لمدة بضعة أيام أخرى بسبب تغيب الوالد بفرنسا سلطة أخذوا يبذرونها في السعي إلى الفصل بين النائحات والقراء وفي مراقبة حسن تدبير شؤون المطبخ ليجلب لهم ذلك بعض الأرباح المالية المريبة. وكان بعض النسوة ينصرفن إلى دورهن ليقضي بهن أزواجهن الهائجون جنسياً وطرهم ثم سرعان ما يرجعن إلى دار الميت فيتركن شرذمة أولاد الأعمام النهمين يداعبون نهودهن وقد كانوا بالمرصاد يترصدون بعض ضروب الترفيه الخسيسة التي من شأنها على كل حال أن تملأ نفوسهم انشراحاً. وتغشي المسكن مادة لزجة مثل الطيسل الذي يغشى الثمار فيصير المكان كالثمرة أزعجها قرب ايناعها، وتتفاقم الفوضى. وأما يما فكانت كلما خرجت من خدرها تطلبني وتطالبني بأن يكون سلوكي سلوكاً مثالياً يقتدى به. ورغم كل ما أقدمه لها من وعود فقد كان الأمر ينتهي بها

إلى التعلق بي فتمسكني بشدة وتأخذ في الصراخ والولولة. فكانت الجوقة وقد فوجئت في فترة من فترات تخاذلها وتوانيها الحقير تأخذ من جديد وفي غير نظام محكم في النواح والأنين وقد شحذ همتها صوت زوجة الوالد الرائع، وكانت لا تعرف الكلل ولا تنفذ لها حيلة قط، فترفع عقيرتها وسط ذلك الخليط المشوش بصرخات حادة كان لها على الحاضرين وقع الشفرات والبرق، وتخرج ذلك الرهط الضاري الناعس من حالة التلذذ العابر إلى حالة «التخميرة» الأساسية. وعندئذ كان الزبد يعلو شفتي عشيقتي فأصالحها رغم جميع القططة التي كانت تفصل بيننا. وفي آخر اليوم السادس عشر أرسل سي زبير برقية أخبرنا فيها بوصول التابوت. وما شاع الخبر وانتشر حتى هبت ريح من النظافة على الدوار فلكأن النساء قد رششن بالماء البارد: ومرة أخرى عادت طقوس الماء. ولم يمض يوم واحد حتى أخذ المنزل الذي جفت مياهه من قبل وابلاً لم يعرف مثله قط. ونظمت زوجات الأعمام الولائم حتى لكأن القوم قد رجعوا إلى الزمن الغابر زمن حفل زفاف شيخ العائلة. ولم تبق إلاّ يما وحدها ـ بالإضافة إلى زبيدة التي قلدتها في ذلك ـ على حالة من الجمود التام. وخاف القوم على ذاكرتها من التلف وذلك لأنها أخذت منذ وقت قصير تطلق على الأشياء والكائنات أسماء قد تنم عن موهبة وبراعة إلاّ أنها كانت أسماء خاطئة باطلة تماماً. وكانت بمجرد ما تتردد وتختلط عليها الأمور في جملة من الجمل تعدل عنها

وتقيل قائلة طويلة لا تخرج منها إلاَّ لتنطلق باحثة عني في جميع أركان الدار. ولما كنت لا أريد أن تصادف «هيماتلوس» كنت أغلق باب الغرفة غلقاً محكماً وأبقى معه داخلها. فكان من شأن ذلك أن يشنج أعصابها فوق المستطاع، ولكن جميع الناس كانوا خائري القوى وكان شهر جويليه يثقب بأنيابه المدينة التي كانت تتموج باحثة عن شيء من النسيم العليل المشكوك في حدوثه وذلك حول بائع شاي زنجي كان خبيراً بأمور مهنته فكان يقدم للناس مشروباً محرقاً معطراً كان النعناع المنقوع فيه يزيد على مرارته مرارة أخرى.

يوم الأربعاء الساعة العاشرة صباحاً. الميناء رازح تحت وطأة عدد هائل من الأقلاس والمحالات ذات الهيئة الأسطورية بسبب محاورتها لعرض البحر. وكانت الصور والأشكال بالميناء ذات معالم بلغت من الحدة درجة اضطرتنا إلى وضع نظارات سوداء على أعيننا. فكنا مثل جماعة من القتلة المتنكرين. كان على الرصيف خلق عظيم: عصابة الأعمام وقد ارتدوا كسوات أوروبية مضحكة وربطات عنق رغم حرارة الجو البالغة، وعمال سي زبير والأعيان والقضاة المتواطئون مع الوالد. وكان (هيماتلوس) متستراً بلبسة مستعارة قليلة الاحتشام وذلك لكي لا يتفطن إلى هويته جماعة المرتلين الذين كانوا ينشدون بأصوات جميلة أناشيد تصف ويل يوم القيامة لم يكن موضوعها إلاَّ الحديث عن الكبريت الأصفر وعن آلات حادة تبقر بطون

الكفار وبطون المنافقين. فكنت لذلك أشعر بالقلق وأخاف على الميت وهو في وحدته أمام البحر الخالد وقد اخترقه في حركة ترنحية مشدوهاً مثل العداء يجري مسابقاً فينتهشه عنف حركاته. ومن البحر الذي لا ينفذ من البحر الأدغم جاءنا النذير المفجع وقد تلخص في صيحة عاوية من صفارة الباخرة. ولم يكن في وسعي أن أترك اليهودي وأبتعد عنه لأنني كنت أخشى خطر الوقوع بين الحين والآخر في كمين المرتلين إذ سيجتمعون متراصين حولي لتشريكي على أحسن وجه في اذانة ذلك الجسم المسترخي المتعفن الذي سنرى عما قريب تابوته يبرز من الباخرة معلقاً إلى مرفاع غريب عجيب.

وما أن أرست الباخرة بجانب الرصيف حتى برز شيخ العشيرة برزة مشهودة. كان مرتدياً كسوة من كسوات زاهر بعد أن عدل منها بعض مهرة الخياطين. وكان يبدو أقل سمنة وأكثر صخباً وهو يتقبل وعلى محياه علائم الكدر والاغتمام تعازي الحاضرين. وكان جماعة من مدخني «الكيف» قد تمكنوا من اجتياز رقابة الميناء بدون عوائق. وحاصروا هيماتلوس وقد تحسسوا هويته رغم تنكره في حلة من حلل الأزمان الغابرة. وكان صاحبنا اليهودي في حيص بيص وهو خائف من أن يهتدي الناس إلى هويته فيعرفوه بسبب لهجته اليهودية ولذلك فقد عدل عن الكلام الصريح مفضلاً الإجابة بلفيظات ذات مقطع واحد لا تسمع، فأثار بذلك حب الإطلاع عند مدخني «الكيف» الذين كانوا

يعرضون على عين الناظر وشماتهم الرائعة ويصبحون ذوي ضراوة ومشاكسة في وجه هذا الخليط من البشر الذي شد إلى العالم وعجز عن الاقتلاع عنه. كان جماعة المدخنين يحملقون في الحاضرين بعيون ناقدة متبصرة في آن واحد وكانوا يقهقهون في غير احتشام وابتذال بمجرد أن يستنكر أحد الأعيان وقاحتهم. إنهم لم يأتوا إلاَّ لحمل تابوت صديقهم فضاقوا ذرعاً بمثل ذلك العدد الكبير من الطقوس الخاوية من كل معنى في حين أن الساعة كانت ساعة ألم، ساعة لا تطاق. وكان هيماتلوس يحاول تهدئة روعهم وتلقينهم بعض مبادئ اللياقة ولكنهم كانوا يثورون عليه ويتمردون علانية ويرفضون كل نصائحه رغم تقديرهم لصديق زاهر. ويكد القوم ويجدون للقيام بالإجراءات الجمركية والصحية: فهذا أحد الأطباء قد صعد على متن الباخرة للتثبت من حالة الجثة ولختم التابوت بالشمع. الحرارة في استمرار... ورائحة الشحم الأسود المحروق. والمياه الراكدة كانت ترتخي لها مناخرها والسفن متراكبة متراصة مثل تنضيدات من الطبقات المتتالية والسماء مسدودة معطلة عطلها إلتهاب سعير عملاقي. والمراوح يحركها القوم التماساً لشيء من البرودة عسير المنال والهرج والمرج والهباط والمياط وشباك الحبال والأرصفة مائجة بالخلائق وسيول العرق المتمازجة تسيل من الأجسام المتلبدة. والصلوات والابتهالات لا نهاية لها. وصلاة الجنازة أمام سفن الشحن الضخمة وأمام البحر الغائر وراء السد وأمام

السكك الحديدية المتقدمة هناك إلى أعماق البحر البعيدة والحمالون في خصوماتهم غير مبالين بما سيحملون. والانتظار الممزق للنفوس يأكل الأجسام ولحمها السريع التهيج والانفعال. والبحر... البحر دائماً وأبداً! وهو يبيد رياته وقد أثقل كاهلها ذلك القدر العظيم من التمايل الخيالي. وصوت المؤذن في صفائه وجلائه وقد أفعمه الملح واليود المتعفن النتن. وتجديف مدخني «الكيف» وقد اعتصموا وراء الصخب الهائل. والأربطة... وصيحات البحارة بصوت أجش أبح يقطعون بها كلام الناس الهزيل كما يحدث ذلك في عمليات البيع بالمزاد. والخوف من تصور أمي وباقي النساء الأخريات وقد تعلقن بمغالق الشبابيك وأرسلن بالأطفال بعيداً عن الدار يستطلعون الأخبار ريثما يصل موكب الميت. وإذ ذاك سيكبر الناس ويحوقلون في جميع الغرف. ترى أين المفر؟ لقد كانت حركات اليهودي وإشارات محياه الإيمائية وقد جاء إلى هناك مخاطراً بحياته تبعث في نفسي أشد الغيظ. وستسير عربة الموتى سالكة طريق الأرصفة المبقعة ببلاطات صغيرة عتيقة وستترجرج عجلاتها على فضاء الأرض وقد يبسته الحرارة. وستكون الصلوات والابتهالات عجيبة خارقة وسط ذلك الخليط الزاخر من الخلائق والبحر. وأخيراً وصل المرفاع: لم يكن في صورة هذه الآلة وقد مسكت بجثة زاهر إلاّ الإهانة المحض. ولكن ما العمل؟ وها هو التابوت قد أخذ بعد في التأرجح معلقاً في مسمار معقف

ضخم. كأنه قد أغراه التدحرج والسقوط في البحر. ورفع جميع الخلائق عيونهم إلى السماء: كان لشكل الصندوق الكبير من خشب البلوط وهو معلق هناك في الفضاء شيء من الغرابة والشذوذ واللاواقعية. ونزل الصندوق ببطء شديد حتى خيل إلى القوم إنه لن يدرك الأرض أبداً. وكان جميع الحاضرين في حيرة وقلق. ونسي شيوخ الدين مآخذهم على الميت. وفجأة وقف المرفاع محدثاً صوتاً يشبه السعال الخفيف الشاق. وبقي التابوت معلقاً بين السماء والأرض. وانطلقت من الجمع همهمة ترجرجت لها صفوفهم إذ رأوا في ذلك علامة ترمز إلى شيء مبهم. وإذ ذاك عيل صبر اليهودي ولم يعد قادراً على تحمل أكثر مما فعل فانصرف وعلى محياه هيئة الكائد المتآمر. وفي الواقع لم يكن واحد منا واجماً للوضع المضحك الذي كان عليه ذلك التابوت الضخم وهو معلق بين البحر على صخور الجسر الصوانية وبين الأرض الغارقة في شبه إغماء تحت انعكاسات أشعة الشمس التي لم يبقَ منها إلاً إحساس غريب بالانتفاش والفيضان انتفاشاً كثيفاً ناتئاً مثل انتفاش الريش المفخم الملون بألوان لا يستطيع المرء أن يقدر إن كانت وردية أو برتقالية. وكانت الأرض على الدوام تلتهم عيوننا التي بهرتها شفافية الهواء. ومن البحر كانت تجيئنا رائحة مثل رائحة الجبن تمر فوق الفواضل القذرة الممزقة المحصورة بين الطين والماء، بين الأرض والسماء. وكان لا مناص من الاستمرار في قضاء الوقت عبثاً في لا شيء وذلك حتى

يتسنى إصلاح المرفاع على يدي بعض العملة وقد أذهلته رائحة التعفن الصادرة عن التابوت الذي كان لا يزال في تأرجحه في العلياء على غرار ما كان عليه زاهر في حياته عندما كان يدخل الرعب والإرهاب في قلوب أفراد الأسرة بسبب مواقفه الغريبة ثم يخرج فجأة من صمته ليدخل في حالة من الهيجان المسعور الذي كان يفتت كيانه خلال الحانات حيث كان يترك كل مرة من روحه. وفي الأثناء كانت اختلاجات الشمس ترهق أعيننا. فكنا نحلم ـ وقد التجأنا إلى ظل إحدى سفن الصيد وقد ملئت بسمك الشبق ـ بأن ترتعد فرائصنا برداً. وعبثاً كنا نحلم بذلك لأننا كنا جميعاً نبحث عن تلك اللحمة الثابتة التي لو وجدناها لكفتنا مؤونة هذا العدد العظيم من المصائب.
وكان الوالد كالمخلد لذاته غارقاً في تجواله الملائم للمقام، مجتهداً في طمأنة حلفاء العشيرة وهو في ذلك شديد الحذر من الكمائن التي قد ينصبها له جماعة المدخنين، وكانوا يمهدون له للاقتراب منه ولدوس رجليه وتهشيمها وللقذف به في البحر. وكانت تبدو عليه هيئة المصارع الروماني وكانت هذه الهيئة أكثر من موقفه من موت ابنه تجعل سي زبير إنساناً لا يطاق في نظر المدخنين وقد ضيقت منه بعض المخيلات التي من شأنها أن ينبثق منها عالم يسوده السلام وقد تخلص من جميع هذه الإقلاس الفولاذية التي كانت تضيق الخناق على البحر الذي سيطرت عليه النار وعمل الإنسان. وكان المدخنون

لا طاقة لهم على احتمال مثل هذه السيطرة وهم قوم لا يعرفون للبحر إلاً معنى السعة والخلود وهو معنى مرتبط بمبادرات الاعتداليين فحسب ويرفض كل إثبات جازم.

واستأنفت الرافعة حركتها، وفي لحظة بصر وضعت حملها المتعفن فأسرع القوم إلى حمله إلى مكان عربة الموتى ولكن الخلائق قد أرعبتهم رائحة الميت المتعفن فتراجعوا إلى الوراء أمام ذلك الصندوق المتخذ من خشب البلوط وقد دفعتهم في ذلك حركة تلقائية ملؤها التضامن. ولم يصمد إلاً جماعة المدخنين فحملوا الميت إلى أن أوصلوه إلى عربة الموتى. وبقيت معهم رغم موقفهم الذي أصبح لا يطاق، بقيت معهم بسبب بطولتهم ولكي أجتنب استهزاءهم اللاذع، ترى هل كانوا يريدون الاعتداء عليَّ فوراً وقتلي «تلنيشاً» للأخذ بثأر صديقهم؟ لا بل كل ما في الأمر أنهم كانوا يحتقرونني، وفضلت أن يظل موقفي مبهماً وذلك لكي لا أظهر لهم أنني كنت خائفاً. وطال بنا المسير وضاقت أنفاسنا داخل صندوق العربة المتداعي ولم ينبس واحد منا ببنت شفة. وازداد الهواء ثقلاً على ثقله عندما طفق رفاقي في التدخين وكادت رائحة «الكيف» اللينة الحلوة تحملني على الغثيان والقيء. ولم أتجاسر على أن أثور في وجوههم، وقد لانت أعينهم شيئاً فشيئاً فتغير شكلها بمفعول النشوة الحالمة التي كانت تدب في نفوسهم شيئاً فشيئاً، وانقلبت أصواتهم فإذا هي كالمعجونة فيها بحة وجشة، وتصاعدت من الميت وهو في صندوقه رائحة

متزايدة النتونة! وأما رفاقي فقد كانوا مستمرين في التذمر لأنهم كانوا عاجزين عن تركيز أفكارهم على تلك الصورة (صورة الميت) وقد تعذر عليهم إدراكها وذلك رغم ادلهمام العالم الذي كانوا يشعرون بأنهم يسيلون فيه والذي تكتسب فيه الأشكال عادة صفاء جوهرياً ساحراً بديعاً. ولكن الرائحة المقيتة كانت تنقب كاللولب رؤوسنا المصروعة المترنحة صرعها مثل ذلك العدد العظيم من المصائب والأتعاب التي لا تطاق، رؤوسنا التي أخذ الآن يخزها ذلك الدعاء الحاد الذي كان أصدقاء أخي المخلصين يتمتمون به: جماعة من أصحاب الحانات المشبوه فيها ومن وسطاء البغاء بدون حريفات واللصوص بلا ثروة، وكانوا يقاومون رغبتهم في البكاء وقد خذلوا ورسبوا وسط ألمهم من خلال سيجارة سحرية لم يحكموا فتلها، ولكنها بدون أي مفعول في ذلك اليأس الذي غمرهم فجأة أمام ذلك الميت المهجور، هجره الوالد والأحباب، ذلك الميت الذي لم يعد يرتجي إلاَّ أن تمزق الأم لحمها تمزيقاً بليغاً إذ كانت وحدها قادرة بمعونة العشيقة على أن تدفع له بسخاء تلك الغرامة الدموية التي يحتاج إليها الأموات حتى يقدروا على تحمل الأحياء. وسارت العربة تترجرج على المساحة المعقودة عقدتها الحرارة. وبقينا نحن حبيبي عجزنا عن إنكار تلك الحكاية وعن الذهاب للتطهر في تلك الخليجات ذات الجمال الأسطوري، وذلك لكي نخلص عضلاتنا من هذه الفضاءات المبقعة بالنور، ومن اللحم الراكد، لحم هذا الميت التائه الهائم.

والتوت صفائح العربة فنام لذلك المسافرون القاصدون دار يما. إنها الغفوة. كان من اللازم صعود جميع ثنايا المدينة وإطلاق صوتِ البوق في مفترقات الطرق وعدم الانقطاع عن ذلك الإنشاد البطيء حتى غاية الوصول إلى المنزل. الحرارة. ارتجاجات العربة. ترى هل كانوا على وشك الشروع في توبيخي وتأنيبي؟ لقد كانوا يحلمون بارتكاب جريمة قتل للتخلص من ذلك الوخم العالق بجلودهم، وعبثاً كانوا قد خلعوا ستراتهم المتخذة من نسيج صيني من الكتان الأزرق لأنهم بذلك لم يتمكنوا من الشعور بالأمن. وكان العالم قد ضللهم لأن الفجر لن يكون له بعد ذلك لين الحرير. وكانوا يخالون أنفسهم في الأحلام وهم ينظرون من خلال زجاج نوافذ العربة إلى موكب السيارات الأخرى الطويل، بل لعلهم كانوا يشعرون بالخوف والهلع لمنظر هؤلاء القضاة المسترخين في جلستهم على المقاعد وقد احتقنت عيونهم دماً. لقد صاروا لا يثقون في شيء رغم ما بدا على هيئتهم من خيلاء ورسوخ. خلاصة القول إن الميت قد أثر فيهم ونحل لون وجوههم، وبما أن المخدرات لم تؤثر فيهم فقد كانوا يشعرون بأن عصابة التجار ورجال الشرطة وقُراء القرآن يطاردونهم ويضيقون الخناق عليهم وقد كانوا يكرهون قُراء القرآن كرهاً لا حد له. هل كانوا يرغبون في القفز من العربة وهي تسير وتسليمي لهلع البقاء وحدي وجهاً لوجه مع الصندوق حيث استقر زاهر وقد بقر بطنه الدود الشرس؟ كلا! لأن وفاءهم

كان يضاهي اشمئزاز الآخرين من جثة الأخ الذي هدمته خيبة الأمل بعيداً عن أرض الأجداد وقد أهينوا بهذا الحادث غير المتوقع الذي زاد في ضعف احتمال وقوعه أن زاهراً بدأ يشفى من حزنه، وبما أنه أدرك سن النضج فمن البديهي أن يرجو المرء تحسن حال ذلك المنشق المتنكر لحزبنا والذي زعزع منذ وقت قصير وبدون سابق إنذار أركان تقاليد الأسرة الأبدية التي يحظر على المرء بمقتضاها أن يموت خارج الأرض المقدسة، أرض عصابة الأعمام المتألِّلة وجوههم وأرض الوالد الفظ الشرس. واختنقت أنفاسنا داخل العربة حيث كان ندماء زاهر القدامى مستمرين في إنشادهم لقصائد عمر ذلك الشاعر الكبير المجهول لدى الجمهور المشبع قرآناً وأحاديث نبوية والذي كان يجهل جهلاً مدقعاً ثقافة الأجداد الدنيوية.

لما وقفت سيارة الموتى أمام دار أمي استقبلنا فجأة عويل النساء وقد أسلمن أنفسهن إلى جنون هستيري جذري فأيقظن بذلك المدخنين من غفوتهم ونصب التابوت مباشرة على الأرض في أجمل غرفة من غرف الدار، وجلس الناس حوله قبل حلول ساعة الدفن وكان موعده قد ضرب إلى ما بعد القائلة المستعرة. وكانت يما وزبيدة وقد هدأ قرب الجثة من روعهما وأفرغهما من جميع مقوماتهما الذاتية تبكيان ذلك الابن وذلك العشيق الذي رد إلى الجمود الأصلي الأول والى تلك النتونة المريعة. وطلب القوم مقاومة روائح الميت فأحرقوا لذلك أعواد العنبر ولكن

عبثاً فعلوا لأن الرائحة سيطرت على كل شيء وعلقت بوجوه الحاضرين الدبقة وقد أوشكوا على الإغماء وكادوا يقيؤون جماعة. فاضطررنا إلى رشهم بماء الورد وإلى إخراجهم إلى صحن الدار. وبقي سي زبير وبقية الأصحاب خارج الدار أمام الباب يرتلون الآيات ويشربون المبردات المثلجة. وأما أنا فقد كنت أمشي وأجيء متسكعاً حولهم باحثاً عن «هيماتلوس» إذ لا بدَّ أنه سيحضر موكب تشييع الجنازة. وعلى أنني كنت أفعل كل ما في وسعي لكي لا أبقى وحدي مع الوالد الذي قد أعمى بصيرته اقتناعه بأنني أنا الآخر سأموت عما قريب فأخلصه بذلك من كل تخوفاته على الميراث. وكنت من حين إلى آخر أنظر إليه بعين البغض والحقد فكان يبدو كأنه أدرك معنى نظراتي فيتلعثم في كلامه ويغير بلا انقطاع من جلسته بيد أنه كان من الواجب ألا أوفر له مهرباً فكنت أفضل إذن أن أتركه ينتشي بيقينياته الفظيعة حتى أتمكن من أحكام فضح أمره في ذلك اليوم الذي سأقرر فيه قتله فأثأر بذلك لموت أخي الذي لقي نحبه في سن الخامسة والعشرين ثائراً ساخطاً لأنه لم يتمكن من خنق الجنين، وكان عويل النائحات وترتيلات القُراء تقطع من حين إلى آخر، يقطعها صوت أحد الأعمام الهائل أو صوت بعض أصدقاء الأسرة المتحمسين وقد ارتفع بالتكبير والتعظيم. فكان ذلك يزيد في لاواقعية جو المأتم لأن الشمس كانت تضفي على الأشياء وعلى الوجوه المرمرية البيضاء ضرباً من الوجوم أقرب إلى الحلم منه إلى

اليقظة. وكانت البلاطات المرمرية البيضاء وقد هجرتها القططة تزيد في حدة ذلك الشعور بالتفاهة وعدم الجدوى المشوب بالسخرية والغرابة، وبرز اليهودي وقد تنكر في زي مضحك لا يتصوره العقل، فكان بروزه، كافياً لاضمحلال الواقع اضمحلالاً نهائياً. ووصل إلى المكان متستراً يسير والحائط وقد بدت على لحيته علائم التوبة وغرقت يداه وجبهته عرقاً. ولم يقف إلاّ عندما وصل إلى مكان المدخنين فأسلم أمره لهم غير متجاسر على رفع عينيه والنظر إلى الجماعة المنكوبة وقد لاحت على شفتيه ابتسامة النشوة والذهول. وكنت أقر رغم كل شيء بأن في إصرار هذا اليهودي على حضور جنازة أحد المسلمين كثيراً من التجاسر. ولكنني كنت حانقاً عليه لأنه قد غادر الميناء في تلك اللحظة الحاسمة لحظة تعطب المرفاع، وكنت أعرف أيضاً أنه كان يبحث عني وقد ارتبك وسط أثوابه الراجعة إلى الأزمان الغابرة واندفع من نكبة إلى أخرى معرضاً نفسه إلى خطر الرجم من قبل جمهور رجال الدين. لقد ملكتني الغيرة لرؤيته وقد أحاط به المدخنون في بشاشة هم الذين كانوا يرفضونني ويضربون حولهم سياجاً من الضراوة والعداء البدائيين بمجرد ما كنت أوجه لهم الخطاب (ألم يكن الأمر يصل بهم إلى حد استعمال لغة غامضة اصطلحوا عليها كانت تصل بي إلى منتهى الذهول؟) وإذ أغادرهم كنت أذهب ملتمساً من زبيدة نظرة تعاطف كانت تجتهد في حرماني منها لأنني قد ارتكبت غلطة وهي أنني لم أمت

عوضاً عن ذلك العشيق الذي كانت تطمع فيه منذ أول عهدها به والذي لم توفق إلى إغرائه قط. وانتهى الأمر باليهودي إلى أن عثر عليَّ وقد غُرقت في مناجاة ذاتية محمومة كنت أحاول بواسطتها أن أتلاءم مع الوضع الجديد الذي نجم عن موت زاهر المفاجئ. من المؤكد أن يما ستبعدني وتزيد في حبها إياي. وكنت قلقاً حائراً لتصور تلك العاصفة الهوجاء التي ستجتاحني وأنا كالشجرة المحروقة وسط فوضى هذا الهذيان المسهد وهو هذيان قد اضطلعت به ألف مرة ومرة ولكن بصورة منحرفة عند كل مرة، أنا ذلك المارد الفاجر الزاني بما حرم اللّه، أنا الذي أصبحت لا أدري ماذا أصنع بجسم ليلى الذي لوثته بفائض حيويتي، أنا ذلك العشيق المتحجر القلب من جراء موقف الضرة المنكبة كالمصروعة على ذلك التابوت القادم من وراء البحر ليعكر صفو عالم قد هدأ هدوءاً مؤقتاً لكنه عرضة لخطر الالتهاب لو حدث أدنى سهو. ترى هل كنت على وشك شتمه لأنه قاطعني وأنا غارق في تأملاتي المتأججة؟ لا إذ لو فعلت لكان قادراً على رميي بالعنصرية. فلا ينفك عن ذكر أسطورة اليهودي الهائم الذي ينشد وهماً لا ينال. فظللت صامتاً وقد تمزقت نفسي بين عدّة رغبات متناقضة متنافرة بل وخادعة في واقع الأمر. وخلاصة القول إنه كان يضايقني في حركاتي فلم أعد أجرؤ على الذهاب إلى غرفة الميت خوفاً من أن تكتشفه أمي قابعاً في زيه التنكيري الأحمق. وتجاوزت رائحة الخراء

حدود الصلف والزهو وغلب النساء فرط الأسى على الميت فهدأ روعهن شيئاً فشيئاً. وأما أنا فقد أخذني الخدر فطفقت أرتجي أن يخيم الصمت على الدار ولكن لم يكن ذلك إلاً هدأة عابرة لا سيما أن مدخني «الكيف» كانوا يتعهدون الاضطراب بالرعاية فيمنعون بذلك كل هدنة حقيقية.

يوم الأربعاء الساعة الخامسة بعد الظهر. وأحدث رفع الجثة مظاهرة أخيرة، كانت النساء يلتوين فيها ألماً لا سيما أنه لم يكن لهن الحق في الذهاب إلى المقبرة. وكانت يما أشد تحفظاً من الضرة التي كانت ترفض كل تواطؤ أو تناول وتحقق في النظر في شموخ وتبعث في نفسي الرعب بسبب هيئتها التائهة هيئة المرأة التي شدت إلى بعض القوى الخارقة شداً وثيقاً فتمكنت من نفسها تلك القوة بدون هوادة ولا انقطاع. وكنت أعرف أنه لن يسلم منها أحد في المستقبل حتى ولو كان سي زبير، إذ كان مسؤولاً في نظرها عن موت أخي ذلك الكائن الذي جللته في نفسها، وتحرك الموكب غير آبه بهيجانات النساء الأخيرة، وكان التابوت محمولاً على أطراف الأيادي الممدودة يحمله شبان المدينة، وكانت الجموع غفيرة، ولم يخفوا حزنهم وأساهم. ولكن كان هناك بالخصوص عدد من الصعاليك غادروا السجن منذ حين أو هم على وشك دخوله قد قدموا من «القصبة» أو من الميناء وكانت هيئتهم تبعث على الدهشة والاستغراب حتى في مشيتهم الثابتة المصممة بينما كانت الآخرون يجرون خطاهم متباطئين في سيرهم متذمرين

من شدة الحر. كان الصعاليك شديدي الحذر والاحتراز بمجرد ما كان المرء يوجه لهم الخطاب. البلودجينات مخلولقة رثة. واللحى غريبة الشكل، والابتسامات شيطانية، كانوا جميعاً تلوح عليهم هيئة الأذى والضرر فكانوا يسحقون بشموخهم بقية أفراد الموكب يقودهم في ذلك قيادة السيد لعبيده بائع الشموع الذي أفلت لحين من حمائل رافعة نهدي زوجته تلك الحمائل الطاغية المهيمنة.

وكان اليهود كثيري العدد ولما كانوا قد جاؤوا أقوياء الجانب بعددهم فإن أحداً لم يتجاسر على تحديهم: كانوا كلهم أصدقاء زاهر في السابق. ولم يكن الشيخ عمار أقلهم فخراً، فكان يتمتم قائلاً: «أنا الذي علمته شرب الخمر، ما أجملها ميتة!» وفي رأس الموكب كانت المجموعة الصوتية تتعب رئتيها من فرط الإنشاد والترتيل، وكان الصدى يضفي على أصواتهم خلال المدينة السفلى رنة جشاء خاوية. وكان الموكب ينتشر فيزداد تضخماً بانضمام جماعة من المتسكعين قد أثار دهشتهم إتساع تلك الأمواج البشرية المتدفقة وضخمه كذلك التحاق عدد من البطالين الباحثين عن بضعة دوانق وعن صحن من الكسكسي وعدد من الأطفال كان القوم يجتهدون عبثاً في طردهم. وكنت أنا وهيماتلوس وقد دفعت بنا الجموع الكثيفة المتزايدة، كنا في حالة غفوة في تلك الحرارة التي يجف لها كل شيء. فلم نكن ندري ما نصنع في تلك الضوضاء المصمة للآذان التي سيدفن في وسطها زاهر وسيسلم للدود والصخر الذي

سيقطع شيئاً فشيئاً تابوته ويخترق لحمه حيث ستجد بعض نباتات الجنطيانا البرية ملجأ لينتهي بها الأمر إلى الانفجار والإيناع وقد هاجت أوراقها الكثيفة وهي تلتهم جسم ذلك المذنب المصر على ذنوبه، ذلك الجسم الذي صدعته جيوش الدماحيض الجرارة التي ستضع عدداً من العساليج في عيني الجثة. وكان من اللازم الاستمرار في المسير قدماً في ذلك الزحام والتسلل بعسر لشق طريقنا إلى التابوت الذي كنا نتناوب في حمله غالباً جداً ونحن نصرخ بالدعاء نفسه. وكنت أشعر بصورة متقطعة بغرابة تلك الوضعية ومهزلتها، ويخزني الشك حتى يؤدي بي إلى الشعور برغبة في الضحك كنت لا أقوى على ردعها سبب ذلك بالخصوص كان موقف هيماتلوس وهو يتخبط في الألفاظ العربية ولا يعرف من لغة دعائنا إلاَّ القوافي. كان يفتح فاه ثم يغلقه موهماً بذلك سائر القوم بأنه كان يسيطر على نص الدعاء سيطرة تامة ولكن لم يكن واحد منهم لينخدع لذلك: بل كل ما في الأمر أنهم كانوا يقبلون وجوده على سبيل التسامح فحسب! وكنا قد خارت قوانا بسرعة نترك مكاننا لبعض الشبان الآخرين وقد أسرعوا إلى القيام بعمل تضامني تجاه الفقيد وذلك بأن يحملوا تابوته بضع خطوات في طريقه إلى القبر؟ وكان رفيقي لا يغفر لي مبالغاتي وتهوراتي وكنت أهدده بأن أفضح أمره بين الجمهور المطلق العنان فينزل به إلى منزلة سائر اليهود الذين كان يمقت لهجتهم الجزائرية العبرية وميلهم إلى أكل اللوز المملح. وكان يصير

مستعداً إلى جميع التواطؤات فيتركني أضحك ويستمر في اختلاس النظر إليَّ ليرى إن لم أكن في نهاية الأمر على وشك إضاعة رشدي. وكانت نظرته أحياناً تبلغ من الغرابة حداً كنت أنقطع معه عن إزعاجه: كان يخيل إليَّ أنه على وشك الانتحار وفي الواقع كنا قد أصبحنا لا ندري ما نصنع فكنا نبحث عن فج ننفذ من خلاله بدون أن نتعرض إلى أخطار بليغة وذلك لأن الحالة كانت في تدهور برأس الموكب: لقد بلغت الفوضى منتهاها وقد عمد إلى تعهدها بالرعاية أعوان سريون في خدمة عصابة الأعمام المتألقة وجوههم وقد بلغوا حدود ذلك الشك الذي كان يمزق نفوسهم ويدفعهم إلى التساؤل بدون مراوغة عما إذا لم يكن الميت قد زنا بأزواجهم في سالف الزمن. كانوا يرتجون أن تزل أقدام حاملي التابوت على بعض الحجارة الملعونة وقد برزت بفعل معجزة من الإسفلت المنبسط الأملس وأن يوقع ذلك القضاة ـ بعد طائفة من الحوادث الغريبة ـ في الحيرة والارتباك بصورة جدية فيرون العزم في آخر الأمر على هجر الموكب أمام مشهد الجثة وقد أفلتت من صندوقها المقبور. ولكنهم لم يراعوا في حسابهم ذلك وزن جماعة المدخنين ووسطاء الزنا وعملة الرصيف وقد انتشروا في خفاء وتستر حسب ترتيب استراتيجي أحكموا تنظيمه من قبل وسكاكينهم ذات الفرض متأهبة لمغادرة جيوبهم وقد استعدوا إلى بقر بطن كل من تحدثه نفسه بتعكير هذه الجنازة الرائقة، جنازة صديقهم القديم الذي كان دائم

الاستعداد إلى مدّ يد المساعدة لهم بالمال أو بإخراجهم بالأمر طبعاً. ولذلك لم يكن هناك داع إلى القلق: فقد كان الأعمام وشيخ القبيلة عارفين بالخصم حق المعرفة فلن يتجاسروا على تنفيذ خطتهم.

وبمجرد أن وصل الشيخ عمار إلى جانبنا صاح مكرراً «ما أجملها ميتة! أتمنى على اللّه أن يموت جميع المؤمنين ميتة مثل هذه. أن يموت المرء سكران يا له من غنم لا يخطر على بال! آه ليتني أموت هكذا!» كان يثير أعصابي فوق المحتمل ولكني كنت أتركه يقول لكي لا أتعرض إلى سخريته اللاذعة وإلى عينه المتورمة. وأما اليهودي فكان يتملقه ويضرب ظهره ضربات خفيفة فعل المتواطئ المتواضع. وكأن ذلك كان يعجب الشيخ الذي كانت تتصاعد من فيهه ريح الخمر شديدة كريهة. كان يود لو ذكر سكراته التاريخية وهو برفقة الفقيد ولكننا لم نترك له متسعاً من الوقت لذلك لأننا رأينا بائع الشموع القصير القامة يدنو منا جاراً وراءه روائح الكافور والعنبر جاء بها من ركام دكانه بسوق العطارين. لا بدَّ أنه كان يريد مطالبتنا بملازمة الهدوء ولكن لما كنا إذ ذاك قد لذنا بالصمت فقد ظل واقفاً هناك وقد قطعت الطريق بينه وبين رغبته في الهيمنة وصدمه صمتنا المفاجئ وظل مذهولاً وقد رآنا نولول بالدعوات والابتهالات بصوت أعلى من أصوات الآخرين وخارت قواه فجأة من جراء حماسنا الخارق للعادة. المقاهي.. واجهات الدكاكين.. الشوارع تواجه البحر.

ترى هل سنصل في النهاية إلى المقبرة المحصورة بين معمل للشكلاطة وملعب لكرة القدم في قلب الحي الشعبي من المدينة؟ كانت الألفاظ في أفواهنا تدعك حلوقنا المجروحة دعكاً وكان العرق يضفي علينا وجوهاً متقلصة عديمة الجدوى. وعلى مقربة من المقبرة تضخمت أصوات القُراء وفجأة صفعتني حقيقة الأمر الذي كنت قد كبته بمحضر تلك الجموع البشرية الغفيرة كبتاً يقل ويعظم. لقد فهمت في تلك اللحظة بالذات أن زاهر قد مات حقاً. وعندما وطئت قدماي العشب الكثيف الدسم الذي قد اقتات من عظام الموتى صممت على الفرار. وسرعان ما وجدتني بعيداً وقد اختصرت الطريق نحو المدينة وهيماتلوس إلى جانبي يخبط خبط عشواء في ثيابه الواسعة أكثر من اللازم.

لقد مات زاهر حقاً! ما في ذلك شك!

لقد مات زاهر حقاً ما في ذلك شك! والآن أصبحت هي التي لا تريد تصديقي، ولئن لم تضع موت أخي موضع الشك فإنه لم يكن في وسعها أن تتصور قصة «هيماتلوس».
وكان يطيب لي أن أتركها على تلك الحالة السيئة من التشكك وعدم اليقين فأراها في نهاية الأمر تنفجر انفجاراً من فرط ما نقعت نفسها في وضع عبثي كان في الخلاصة واضحاً كل الوضوح. وكان كلانا ينتظر من صاحبه توبة صادقة فكنا نقضي الليل يفنينا بغض قاطع لم يكن أي شيء قادراً على النيل منه حتى ولو كان بروز بعض فراشات الليل فجأة أمامنا من خلال زجاجة الشباك اللعينة المكسورة. تلك الفراشة التي كانت ملامستها الطرية تخرجها من طورها. وكنت لا أبدي حراكاً. وكانت تأبى أن تستغيث بي لأخلصها من ذلك الرعب. وفي نهاية المطاف كان الأمر ينتهي إلى ذهاب الخوف عنها فكنت أبقى لذلك كليم النفس كامل الأسبوع. كانت أرض الغرفة تكاد تنهار تحت الكتب والغبار ولم تكن لتبذل أدنى جهد

قط لتنظيم الغرفة وترتيبها ولو قليلاً وذلك لأنها كانت تروم حملي على النفور منها ليتسنى لها بذلك مصاحبتي إلى بيتها الكائن على مرتفعات المدينة حيث كان المكان يزخر بعدد لا يحصى من الحيوانات البشرية الوردية اللون المرسلة اللحى الذين تحصنوا متدرقين وراء داء فصام النفس والتقوقع على الذات الحاد العارم وقد أتى ذلك القطيع من وراء البحار إبان الاستقلال، وسرعان ما خابت آمال أفراده فتجمعوا كالبنيان المرصوص حول أحد دكاكين الجزارين كان يحمل عنواناً مشبوهاً فيه هو «مجزرة التعاقد الفني» وكان هذا الدكان قائماً بحي جميل من أحياء الأثرياء شديد القرب من الحي الجامعي. لقد بذلت كل ما في وسعها لكي تقنعني بضرورة الانتقال إلى جحرها الفاخر. (ألم تكن تستعمل المقص كل يوم فتقص به قطعة من تلك البطانية الوحيدة التي قد اجتلبت من عالم آخر مقابل كفاح داخلي؟ أو لم تكن تقول إن تقلص البطانية الأعجوبي كان يبعث في نفسها حيرة ما بعدها حيرة). بل وقد كانت قادرة على إتهامي بتعاطي السحر بصورة وراثية وذلك منذ أن قصصت عليها قصة تجولات أمي الطويلة واختلافها على سحرة المدينة. ولكن عبثاً كانت البطانية تتقلص وتنقص فقد كنت مصراً على البقاء في غرفتي قرب مخطوطاتي التي لم تكن تصلح إلاً لإغراء الإناث وقد بلغن في هذا البلد البحري منتهى النشوة التائهة التي كانت تحملهن على التنقل من مستعمرة قديمة إلى أخرى باحثات عن عقاب منسوري من

شأنه أن يستأصل تهويمات خيالهن الشنيعة. وكن مثل «سيلين» قد جئن البلاد لرفع الأمية عن جموع من الذراري الضارين العدائيين الذين كانوا يخافون من الوقوع في منتهى الضياع والهجران، وكان الأمر ينتهي بهؤلاء الأجانب إلى الإثراء وإلى احتقار سكان البلاد المذكورين وهم قوم لا سبيل إلى الاندماج فيهم لا سيما أن لهم لغة لها وقع الحصى وذات تراكيب متصلبة معقدة إلى درجة قصوى. وعند ذاك كانوا يستبدلون حي سكناهم بحي آخر ويسرعون في التعايش مع بعضهم بعض دون سواهم، باستثناء بعض الإناث اللائي كن يصررن على محبة رائحة رجال البلد القوية رجال البلد الذين استولى على نفوسهم جنون مطلق فكأن دأبهم الجمع بين عدد من العشيقات الأجنبيات يخلصون بينهن خلصاً إلى أن يجيء اليوم الذي يتزوجون فيه إحدى المقصورات من بنات جنسهم تأتي من دار والدها إلى زوجها مرتدية زياً غريباً لا يكاد يتصوره العقل وتتيح بذلك إلى العشيقات الأوروبيات المهجورات فرصة سانحة للتهكم والسخرية، وذلك لأحكام إخفاء شعورهن بالإهانة والذل ومقتهن لمثل هذه التقاليد والعادات الشاذة أيما شذوذ. وكنت لا أقبل موقف هؤلاء الرجال الذين لا طاقة لي باحتمالهم لوقوعهم في شرك حب المال وأحلام العظمة التي كانت ترجع بهم إلى جنسهم بعد أن رفضوه لحظة فيعشقونه ويدللونه من جديد ويقارنون بينه وبين ذلك الجنس الآخر الخارق للعادة الذي كانوا عاجزين عن

التكهن سلفاً بسلوكه الغريب أيما غرابة. وهكذا فقد كانت الهوة بيني وبين «سيلين» تزداد إتساعاً وعمقاً لا سيما أنها كانت تفتخر بأنها تحب العربي الذكي الوحيد في حين أنني كنت شخصياً عاجزاً عن تقدير نصيبي من الذكاء. كانت تثير أعصابي، ولما تفطنت إلى تمزيق البطانية تمزيقاً نهائياً إذ أصبحت لا تبلغ حد بيضتي طردتها بدون أي تردد ولا وخز في الضمير، وأنا أعلم أنها سترجع حاملة بطانية جديدة لن أقبلها بسبب رائحة الصوف الجديد الباعث على الغثيان. وفعلاً فقد رجعت تائبة تحمل عدداً من الكتب الجديدة. وكان تراكم الكتب يبلغ حداً جعلني أبيعها عندما كانت تنفذ نقودي وابتاع بثمنها بعض السجائر.

كانت لا تريد أن تصدقني ولكن لم يكن في استطاعتي أن أحتمل ذلك الشك الذي كانت ترعرعه عمداً لإبقائي تحت رحمتها لما كان في نفسي من عجز من الإفلات نحو متعاقدة أجنبية أخرى أغويها بقصيدة أكتبها على ظهر العشيقة الأبيض العريض وهي مشغولة بتمشيط شعرها أمام مرآة قد ينتهي بي الأمر إلى تهشيمها. ولزرع الخوف في نفسها كنت أستأنف الحديث عن الانتحار وأطالعها بأن تقتني لي جميع الكتب التي تعالج موضوع الانتحار والتي لا أقرأها أبداً. وإذ ذاك كان يتحتم عليها أن تتحالف معي فتسلم أمرها لله وتقبل على مضض روايتي، لقصة الجنازة. ويخيم السلام من جديد على تلك الغرفة المقيتة وتتضاءل تلك العنصرية الكامنة التي انعقدت بين بيئتينا وبين طريقتينا

في الحياة إلى درجة الاضمحلال اضمحلالاً مؤقتاً يدوم ما يكفي من الوقت بالضبط لتنضج في نفسينا مآخذ أخرى. وإذ ذاك كنا نعود إلى عمليات النكاح والزنا الوقيرة وإلى قصائد الشاعر الفحل عمر، وإلى الاستماع لنوبات المألوف الأندلسية التي كانت تمنع الجيران من النوم. وكان الجيران يخافونني خوفهم من الشيطان (ألم أكن في نظرهم مريضاً عقلياً على اتصال بالقوى الخفية، الخطيرة على كل من تحدثه نفسه بأن يكون عرضة لغضبي؟) وكان يكفيني أن أشد منشفة حول رأسي حتى تزداد هيئتي الشيطانية شيطانية وحتى يتقهقر أمامي جميع أولئك الهمج من الجيران الذين كانوا يغطون في سباتهم الشرعي في صلب حظر وتحجير كانا يمنعانني من التمتع بلذائذ الشهوة الجسدية بينما كانوا هم يتسللون منذ الفجر فيرتادون المواخير الخطرة حيث كانوا يعرضون كرامتهم وتعصبهم أمام جماعة من البدينات اللائي كن يتسلين طلباً لإثارة إعجابهم وإهاجة شهواتهم بإقحام بعض قوارير الكوكاكولا في فروجهن.

كنت أصيح في الجيران قائلاً: «ضموا أشداقكم!» فيتوفر لي بعد ذلك شهر كامل من الهدوء أقضيه في الزنا (بسيلين) وفي الاغماءات الشهوانية المبالغ فيها وكنت أفعل ذلك لإرعاب الجيران أكثر مما كنت أفعله لإرضاء نفس (سيلين). وكنت أعرف أنهم كانوا عالقين بالجدار الفاصل بيني وبينهم وهم عاجزون عن أن يستعملوا ضدي أدنى جزء من قوتهم القمعية. وكانت العشيقة تضحك من مثل تلك

الوضعية. لمنعها من الإفراط في التهكم على بني جنسي كنت أعرف كيف أنزل بها إلى منزلة «المتعاقدة الفنية» وكانت تخشى ذلك فوق كل شيء لأنها كانت تعرف بأي معنى كنت أفهم تلك التسمية وكنت أتخذ ذلك تعلة فأطفق في إعادة بناء القصة وما أدراك ما القصة من نهب واغتصاب نساء وتقتيل وتذبيح فأتحدث حتى مطلع الفجر عن القبيلة كيف خرجت من الفوضى فغرقت في فوضى أخرى أعسر احتمالاً وذلك لأننا قد بلغنا سن المسؤولية وانفجرنا بسبب الإفراط في النضج ولفرط ما انتظرنا طائر العقاب المتعثر نهاراً وسط حماقاته الفاحشة والممزق ليلاً لدواب تسلخ وهي حية. فكانت تخضع وتنصت إليّ. فكنت ألقي عليها دروساً في السياسة العليا كانت تتوقع نهايتها بدون أن تفهم أولياتها. ولقد كانت محقة قطعاً في تنفيذ نظرياتي ولكن نتائج تقويم الحساب كانت على درجة من التعاسة المفجعة كانت لا تستطيع معها معارضة أقوالي عندما كنت أدعو إلى تعفين الوضع السياسي قصد تحضير الانتفاضة الثورية بأكثر احكاماً.

كانت تمشي جيئة وذهاباً في الغرفة الضيقة وإذا أرادت اجتناب الأشياء المتراكمة التي تضايقها في مسيرها اضطرت إلى التخلع في مشيتها فتهتاج لذلك في نفسي الشهوة العدوانية. وكنت أوفق في النهاية إلى إسكاتها وذلك حتى لا أقع في الأحبولة الواضحة التي كانت تنصبها لي في خداع راجية بذلك إقامة صلح نهائي بيننا. ولم يكن في

وسعي قبول مثل ذلك الحل، لأني كنت أخشى أن تدخل سيلين في مناجياتي الذاتية غير المعقولة ـ بل والموهوبة أحياناً بسبب قدرتي الطبيعية على التظاهر والتكلف التي كان يكبو لها جواد كل من كان له صلة بي. وفي المساء كان يخيم على الغرفة جو هادئ وديع وتفوح منها رائحة البحر الغائطية وقد أحاط به الميناء فحصره حصراً. وكانت تلك الرائحة تصل إلينا النفحة بعد النفحة فيفرح لها القتع الذي كان يحدث ثقباً بليغاً في خشب قطع الأثاث القليلة المبعثرة في الغرفة المشرفة على حوض الميناء المبلط بالأخضر والأزرق. فكان ذلك المسافر الكامن في أعماق نفسي يهدأ روعه أمام البحر الوافر الأبيض اللون بيضته السفن الباحثة عن بعض الأماكن الوعرة المليئة بالأخطار لتتزود منها بالميناء. وكنا نطفئ الضوء في ذلك المحل لمنع البعوض من الدخول، ونستريح طيلة ساعات وساعات بالنظر إلى حركة الماء وقد تحول لونه إلى ألوان صارخة ساطعة. وكانت تلك هي الساعة غير الثابتة التي كان يطيب لي فيها التبرد بالنسيم العليل وجمع أشلاء أفكاري المبعثرة وذلك لاحكام موقفي من أحداث حقيقية لا شك فيها. وكانت سيلين في تأرجحها بين البحر والهذيان تصير لا تعرف إلى أي انبهار تسلم نفسها، حتى إذا ما أعياها الاختيار الحاسم استسلمت إلى كليهما وغلبت على أمرها قبل أن تسلم بالهزيمة وقد ضاقت ذرعاً بذلك الانسجام المنطقي الداخلي الموجود في قصتي الخيالية التي كنت أستبقيها فيها سجينة

لاهثة. وكانت توفق إلى متابعة قصتي وإلى التعلق بيقيناتي وإلى الانقطاع عن الشعور بالضيق بسبب حماقاتي التي كانت تنعتها منذ حين بكونها خيالية، وذلك لأنها كانت تريد التواطؤ معي على مسعاي ولو اقتضى الحال تشجيعي على ابتكار تفاصيل وجزئيات مدهشة لم أكن قد فكرت فيها، ولأظهرت هي الأخرى براعة نادرة في تحوير ما سبق أن نضدته وبالغت في إحكام تنضيده أيما مبالغة! وكنت في كل لحظة أتوقف عن سرد قصتي لأذكرها بأن كل ما قلته لها بشأن الجنازة حق واقع وأني لن أقبل منها أي جدال في ذلك لو كنت لها في يوم من الأيام أن تحاول إعادة النظر في جميع تلك القضية. ترى هل ستذكر من جديد حكاية ذلك اليهودي المتنكر في صلب موكب الجنازة؟ لا إذ أنا هو الذي كنت أتحدث عنه في الأكثر وذلك لأني كنت أشعر شعوراً غامضاً بأنها لم تكن قد غيرت عقليتها تماماً وأنها كانت تتظاهر بذلك فحسب لكي لا تثير غضبي. على أنها كانت تخشى إرهاقي وتريد أن تجنبني نكسة أعود من أجلها إلى المستشفى كلفها ذلك ما كلفها. إذ لو حصل ذلك لاضطررنا إلى إعادة القضية ولعدنا لننطلق من حيث بدأنا. ترى هل كنت في السابق عشيق ليلى؟ وهل مات «زاهر» حقاً؟ وكنت، وأنا أريد اجتناب هذين السؤالين اللذين كانا يوسوسان في نفسي بدون انقطاع واللذين كنت أعرف الجواب عنهما أطفق من جديد في سرد قصة قد سبق لصديقتي أن سمعتها ما في ذلك شك. إلاّ أنني

أحليها بروايات مختلفة جديدة حتى تختلط عليها الأمور فلا تعود تميز الصحيح من الباطل. وكنت أغتنم فرصة اندهاشها لتضييق الخناق عليها ولكي أقحم في نفسها هذا العالم التي كانت مصرة على الاعتقاد بأنه محض اختلاق اصطنعه خيالي المريض إلاّ أنها كانت تنتهي لكي لا تكدر خاطري إلى تصديق كل ما كنت أقوله لها، فلا تنفك عن سؤالي أسئلة عديدة للتثبت من صحة أقوالي السابقة. وكنت كلما تقدمت في سرد قصتي أجدها تفقد شيئاً فشيئاً تصلبها الأول فكانت تتركني هادئاً حتى أول ساعات الفجر زمن إغفائها، تاركة إياي وحدي أمام برودة الصباح الطالع. وإذ ذاك تصبح كل شيء فكان يخيل إليَّ أنها جثة ممدودة على المفرش الضيق الذي ستغزوه الشمس بعد حين عندما تعود مراكب صيد السردين الأولى إلى الميناء محملة بحمولات بديعة. وكان إيقاظها يشع في نفسي فرحاً عظيماً. كانت تلك هي اللحظة التي اكتشف فيها حناني أمام ذلك الوجه الذي أكله النوم والتهمه نور الفجر اللبني اللون. وإذ ذاك كانت تجمل في عيني فكانت شفتاي إذ تلامسان بشرتها الباردة كالثلج تكتسيان برودة جديدة كنت أحاول التمتع بها أطول وقت ممكن لعلمي أن المسكن سيصبح بعد حين لا يطاق تحت وطأة تأجج الشمس، وأن سيلين ستصبح شرسة فظة. وعند ذاك لن أدري ما أقول ولا ما أصنع لأنني سأكون قد مكنتها من السبق. وكانت تعرف كيف تستغل تلك الفرصة فتخلع ثيابها وتحاصر الصنبور الوحيد الموجود

في جحرنا تحتكره طيلة ساعات وساعات وذلك ليتم لها الاستخفاف بنظريتي المتعلقة بشدة نظافة النساء المسلمات التي مردها ضرورة الوضوء خمس مرّات في اليوم قبل كل صلاة. وكانت تغضب عليَّ بالخصوص لأني قد أيقظتها فكانت ترفض الخروج لاقتناء علبة سجائر لي من نوع «باسطوس» متعللة بكوني لا أعرف كيف أهيء القهوة التي كنا نشرب منها فناجين ضخمة محرقة قبل انصراف سيلين إلى معهدها. فلكأن الفضاء قد تدمر فجأة وضاق. وقبل انصرافها كانت تطلب مني أن أعدها بالذهاب إلى الكلية لحضور بعض الدروس المملة المضنية. فأعدها بذلك ولكني كنت لا أذهب هناك أبداً، لأنه قد اتفق لي في السابق أن نمت في قلب درس من الدروس المنبرية؟ فنالني من ذلك ما نالني من غضب الطاعن في السن ومن احتقار الطلبة إذ لم يغفروا لي ما اقترفته من ذنب بإظهار لامبالاتي إلى نهاية الحادثة. كان يطيب لسيلين في الأيام التي كنت لا أتذكر فيها شيئاً أن تستمع إليَّ أحدثها عن فترة مراهقتي التي كان «الزوال إلاَّ ربع» (midi moins le quart) القيم الكورسيكي بالمعهد يلعب فيها دوراً عظيماً. كنا جميعاً نكرهه. وكان الأساتذة يخصونه بحقد متأصل فيهم لا سيما أنهم كانوا لا يستطيعون الجهر به. وكانت القضية تتلخص بالخصوص في اجتنابه وعزله عزلة إجبارية حتى ولو كلفنا ذلك التضحية بهيجاننا وتعويضه بهدوء تكتيكي محض كان المعلمون يفهمون ضمنياً ضرورته. وإذ ذاك ينعدم كل نظام

فكان من شأن ذلك أن يبعث في نفس ذلك الرويجل الشرس موجات من الغضب الصامت كنا نترصد أدنى مظاهرها: كان يزبد ويرغي في خفاء. وعندما يشعر بعد بضعة أيام بأن الخناق قد ضيق عليه وأن قيمته الوظيفية لم يعد لها جدوى يغير طريقته ويتحول إلى إنسان جذاب. ويبلغ به الأمر في النهاية إلى الابتسام باستمرار فنتساءل نحن من قرارة نفوسنا عما إذا لم يصبح معتوهاً حقاً، إذ لو حصل ذلك لوجب علينا إيقاف عملية عزله الإجباري على الفور. إلاَّ أن الأساتذة كانوا سرعان ما يطمئنون شكوكنا ويشجعوننا على الاستمرار في مقاطعته إلى أن ينهار رئيس القيمين انهياراً نهائياً. ذلك القيم الذي كان جسمه في هزال مستمر باد للعيان. وكان يتوسل إلى زعمائنا راجياً إياهم أن يضعوا حداً لهذه اللعبة المفرطة في الوحشية متعللاً بأنه قد أصبح رجلاً طاعناً في السن فوق ما يلزم وأنه سيحال قريباً على التقاعد فينصرف إلى مكان بعيد جداً عنا وأنه يلتزم في انتظار تقاعده على رؤوس الملأ بأن يغير سلوكه إزاءنا تغييراً جذرياً. فكان كلامه يغرينا بتسجيل أقواله عليه تسجيلاً رسمياً وأن نرجع إلى سلوكنا الطبيعي بأن ننظم عمليات من التشويش وأن نتركه يعاقبنا على أعمالنا الخرقاء، إلاَّ أننا كنا نخشى دائماً الوقوع في بعض خدائع ذلك القيم ولكن مع مرور الزمن كان الملل يدخل قلوب جميعنا فنسأم هذه الحالة غير العادية ونقبل استسلام ذلك الكورسيكي الطاعن في السن. وبعد بضعة أيام من البشاشة

وحتى من التواطؤ معنا كان القيم يتغلب عليه ميله إلى الإرهاب مرة أخرى فيأخذ من جديد في مطاردتنا خلال الأروقة الموحشة ويرتعد غضباً بسبب وصول أحدنا متأخراً بضع ثوان وفي تأنيب الأساتذة وكانوا غاضبين علينا لأننا قد وضعنا حداً لتلك الفترة من الهدوء الوقتي بينهم وبينه فكانوا ينتقمون منا بأن يعاقبونا بحبسنا في المعهد أطول وقت ممكن. وكان السيد (le coq) أستاذ التاريخ والجغرافيا يمثّل سلاحاً ذا حدين فكان ينساب علينا كالعاصفة الهوجاء بمجرد ما كان القيم يسترجع مشمولات نفوذه فكان يزعق في وجوهنا: «يا عرب يا أبلد خلق اللّه! لا تظنوا بالخصوص أنكم قد ابتكرتم البوصلة!» ولم يكن في وسعنا أن نغفر له هذه الشتيمة لا سيما أننا كنا نعرف أنه محق بشأن البوصلة ولكنه لم يكن في نظرنا محقاً في أن يكشف النقاب عن وضع كان الأفضل عندنا أن تبقى الأمور فيه غارقة في غموض مقصود كنا نتعهده بالصيانة والرعاية. وبالتالي كانت جدران المعهد تطلى بصيحة الديك تخطها ليلاً فرق تخريبية بأتم معنى الكلمة، كانت تعمل لفائدة حقوق العرب. وعندها كان «الزوال إلا ربع» يتحول إلى رجل عنصري مكشوف فينحاز إلى جانب الأستاذ (لوكوك) الذي يصبح لا يتجاسر على اختراق صحن المعهد خوفاً من إثارة هيجان التلامذة. فكنا ننظم إضرابات ضد القيّم العام وأنصاره وكنا في كل مرة نضرب فيها نفوز بالنصر المبين ونفرد السيد (لوكوك) فينسيه ذلك حكاية البوصلة.

وبفضل قدوم أستاذ تقدمي شاب اشتدت راديكالية نضالنا. وأصبحنا نرفض منذ ذلك الحين كل حلّ منقوص مع الكورسيكي. ودفع إنذارنا الأخير بذلك القيم إلى تقديم استقالته، فذهب بدون رجعة وتخلصنا منه!

لقد تشتت العشيرة في تلك السنة شرق البلاد واشتدت بالمعهد الدعاية للحركة الوطنية. لقد كنا نحرر مناشيرنا باللغة العربية ونعقد اجتماعاتنا بتلك اللغة دون سواها. وإذ ذاك انقطعت الصلة بيننا وبين الأستاذ التقدمي الذي كان يحثنا على خلق لغة جديدة مشتركة بين مختلف بلاد العالم بدل الوقوع في مشارب التعصب القومي الذي هو من عيوب البورجوازية الصغرى. وكنا في تلك الفترة نختلف على دروس العروض العربي وكان الأستاذ أثناء تلك الدروس دائم الانتشاء. كان علينا تقطيع كل بيت حسب إيقاعات الشعر المختلفة وذلك لنتمكن من أحكام وزنه. فكنا نقضي أوقات الدرس في الصراخ ملء حلوقنا ونحن نحرك رؤوسنا ذات اليمين وذات الشمال على غرار الأستاذ الذي كان يأخذه طرب بالغ وقد أغمض عينيه نصف إغماض وحرك يديه حسب نغمة إيقاع الوزن. لقد كان وهو على تلك الهيئة يبلغ من الإضحاك حداً كان لا يسعنا معه إلاّ الإغراق في القهقهة. فكان ضحكنا يفاجئه وهو مغرق في شغفه الساذج بالشعر فيتوقف فوراً مجروح العواطف فوق ما يحتمل لرؤيتنا نضحك بينما كان هو على وشك ذرف الدموع غبطة وسعادة وقد أخذ منه ذلك الإيقاع البديع

مأخذاً عظيماً وتوغل في أحشائه فحركها تحريكاً. فكان يحرد بقية ساعة الدرس حتى إذا كانت الحصة الموالية منع علينا تقطيع الأبيات إنشاداً كما جرت به العادة واقتصر على خط جداول معقدة على السبورة كان يفسر لنا بواسطتها مختلف أوزان نظم الشعر. ولكننا كنا نعرف حق المعرفة ميله إلى الإيقاع الشعري فكنا نجد دائماً وسيلة نحمله بها على الإنشاد والتقطيع: كانت حيلتنا إلى ذلك أن نتظاهر بعدم الفهم. وعبثاً كان يكد ويجد مستعيناً بجداوله وأرقامه فقد كنا لا نسمع ولا نعي شيئاً فيأخذه الهلع لضآلة وضوح دروسه وضآلة تبلغ مثل هذا الحد فيقع في الفخ المنصوب ويطفق في تقطيع أحد الأبيات غايته في ذلك تحسين طريقة إفهامنا. فكنا نقطع بعده بصوت جماعي فيجلس الأستاذ على كرسيه مهزوماً سعيداً في آن بهذه النعمة غير المتوقعة ويتناول مسطرة ويتيه في تخميرته. وكان من حين إلى آخر يفتح عينيه وينظر إلى مجموع التلامذة وجهاً لوجه ويقول بصوت المشجع: نعم ـ هكذا ـ يا للّه. لم يعد ثمة داع لمعرقل يعرقلنا فكنا نبلغ في إنشادنا قمة النشوة العظمى. ويعود الطقس المقدس إلى مجراه الطبيعي حتى إذا تجاسر بعض أساتذة الفرنسية إلى القدوم علينا والتشكي من الصخب تجاهله أستاذنا واستمر في عمله بل وزاد على ذلك مشجعاً إيانا بصوته البديع حاثاً إيانا بإشاراته. لقد كنا في الواقع نبحث عن القيام بعمل سياسي من خلال دروس العروض العربي: كنا نريد إثارة الحوادث واستفزاز الإدارة

التي كانت تقف من نشاطاتنا الوطنية موقفاً عدائياً. لقد كنا ونحن محتمون بدرع البرنامج وشخصية الأستاذ نشعر بأننا قادرون على تصويب ضرباتنا إلى كل من كانوا لا يريدون الاعتراف بحقوقنا فلم يكن في وسعنا إذن أن نضيع مثل هذه الفرصة التي كانت تسمح لنا بالتظاهر بصورة سلبية وبإثارة الهمم داخل المعهد. وكانت أخبار التلامذة ترفع إلى الشرطة فكانوا يغادرون المعهد الواحد بعد الآخر للالتحاق بصفوف العصبة التي مضت تبحث عن كيانها الذاتي والتي كانت لا تستطيع جمع شتاتها إلاّ في الشعاب الضيقة والمغارات التي أحرقتها الشمس والقنابل.

حذار حذار! لقد تفطنوا إلى أمرنا والذنب في ذلك ذنب أستاذ الحسابيات. هي دائماً الورطة نفسها. هذا الأستاذ جاسوس خائن. وقد حذرنا من ذلك الأستاذ الشيوعي الذي قامت بيننا وبينه جفوة. إن أستاذ الحسابيات جزائري وهو عضو من أعضاء شعبة المعهد التي كانت متصلة بالعصابة بواسطة فلاح كان دائم التجوال بالمدينة يجر وراءه بقرة شدت بحبل. ما العمل؟ علينا وحدنا تدبر أمرنا. مجلس حربي. الأستاذ الخائن مستعد لرفع أسمائنا إلى الشرطة فعلينا إذن التخلص منه فوراً وإعادة تنظيم الشبكة. إن سي زبير هو الذي يخفي آلة سحب المناشير بإحدى مغازاته إلاّ أن ذلك لم يكن كافياً لتحسين علاقاتنا. ننزع براغي السبورة قبل درس الخائن ونحتال حتى تسقط على رأسه فتهشمه عند أدنى لمسة يلمسها بها. وتفننا في

تحضير ذلك الاغتيال بكل دقة وعناية: الأستاذ الشرطي يدخل القسم. انتظار ثقيل الوطأة. يكتب على السبورة وتنفصل تلك الكتلة الخشبية الضخمة عن الجدار ولكن الأستاذ يطبقها عليه بحركة هادئة. لقد نجا! لقد كان على حذر. لقد نجا! لقد كان على حذر. لقد نجا بأعجوبة! ها نحن نطأطئ رؤوسنا ولا ننبس ببنت شفة. أتت جماعة من العملة فأصلحوا ما فسد من أمر السبورة. وتواصل الدرس. علينا بمغادرة المعهد بسرعة قبل مقدم الشرطة. وتفرقنا جميعاً. علينا أن نعثر على الفلاح صاحب البقرة وأن نربط الصلة ونلتحق بالعصبة التي كانت تجتهد أثناء مسيرتها الشاقة المضنية في اجتناب الأحابيل والكمائن ودفع عداء السكان لها ولما يقتنعوا.

كانت سيلين مصغية إليَّ ولم تهتدِ إلى اكتشاف أي شطط في روايتي. ووضعنا بصورة مؤقتة حداً للعداء القائم بيننا. فكانت تساعدني على إعادة بناء الحوادث التي سبقت لقائي بالعشيرة ثم مسيرتنا المشتركة بين أشجار النوبال والقطلب التي صعقتها الشمس. كنا نلهث متعطشين إلى النفوذ والامتلاك وقد بدا لنا في طلبهما كثير من المغامرة وذلك بسبب الأسطورة التي تفشت وتفرقعت فغدت لا يؤمن بها أحد. كان علينا الظهور ثم المسير في ارتجاج إلى أبد الدهر على وتيرة تحرك القرمزيات المنتشرة بيننا وبين خيال من كانوا يريدون الإغارة علينا في صلب قائلة لزجة دبقة كانت تغالطنا أثناءها أحلام شائكة شوكها من شرار النار

المتصاعد وسط بعض عمليات التقتيل في بلد كان للعدو فيه علينا مطلق النفوذ. الظهور واللهاث في ظل بعض مدافن العظام المكدسة، والضرب ثم ترك جروحنا تثخنها الندبات ونحن بين فكي الاحتضار التي كانت تتفاقم مقاييسهما فجأة فإذا هي كالهوة السحيقة. لقد كان موتانا يتحدون الزمان والمكان بفضل زهرة الخشخاش التي كنا ننشقهم رائحتها قبل أن نغطيهم ـ نظراً لحرارة الطقس الشديدة ـ بالجير المحرق فلا يبقى منهم أي أثر. لقد كنا في تجنننا نركض في طريق غير تلك التي خطتها إرادة أجدادنا المحاربين الذين فرضوها علينا فرضاً مدفوعين قسراً إلى قبول الحلول المنقوصة أمام قوة العدو الغائر الذي قذفوا به على أرضنا كالقنبلة يقذفها المنجنيق فأصر وتعنت على الإتيان على جنسنا. وكان علينا أن نتدبر الأمر بمفردنا لأنه لم يكن لدينا في الحقيقة لا إرث ولا وصية ولا مسيرة مرسومة من قبل. وكان الأكبر منا سناً يعاملوننا معاملة سيئة جداً ولعلهم كانوا يأتون ذلك بدافع الغيرة منا ونحن نطالع ـ كلما صادف أن توقفنا عن السير ـ كتب الشعر والحسابيات والسياسة العليا بينما كانوا هم لا يفقهون منها شيئاً وقلوبهم تتلظى لهفة على معرفتها. وكنا نضطر إلى الإغراق في ضحك لا قدرة للمرء على إيقافه كما يفعل طائشو التلاميذ وذلك لإسكات الفلاحين الحذرين الذين كانوا كالحراشف الغليظة الحقيقية التي تمنع كل إحساس بما يختلج تحتها. هل كانوا يغفرون لنا لهجتنا الخاصة؟

بدون أي شك لأنهم كانوا يحترموننا في قرارة نفوسهم ويسهرون ليلاً حول مخيماتنا الهزيلة لمنع جوارح الطير من التحويم فوق بطانياتنا اليابسة الخشنة، وكانوا يريدون أيضاً نصب كمين للإيقاع بأستاذ الحسابيات سبب مصائبنا، ولكن التفكير في تحمل مثل هذا الحل الشديد الصرامة مفضلين عليه إفناء أصواتنا بالشتم والوعيد، ولهذا الخائن الذي لا شك أن أصحابنا المتسترين بالمدينة والمنظمين للنضال داخل الأحياء الشعبية قد ضيقوا عليه خناق المطادرة وكنا واثقين من أنه لن ينجو منهم ولكن ما أن يعرض علينا القبض عليه حتى نرفض ذلك متعللين ببعض الاستحالات المنطقية المجردة التي كانت تبعث الدوار في رؤوس رؤسائنا وتتضارب مع منطقهم وكانوا يقبلون في النهاية حججنا ويختلسون الابتسامات ضاحكين من تخوفنا من أن نجد أنفسنا من جديد وجهاً لوجه مع أستاذنا في السابق الذي من شأن القبض عليه أن يطرح من المشاكل أكثر مما يحل منها. وبعد التوقف فترة ما كنا نستأنف المسير باحثين عن بعض شجيرات العرعر لنختفي منطوين تحتها ريثما تجيئنا رائحة القتيل فتوقظنا من تخدرنا. ثم كنا نتسلق القمم للزيادة من إدماء أقدامنا المنهوكة التي قد تفتحت فيها شقوق وتخاريم قذرة دنسة، كنا نشعر فيها بأكال يبعث على الجنون وكان جنوننا ذلك يذهب عنا عندما كنا نلمح بعض النتوءات الصخرية ذات المسام المبشرة بوجود بعض الصخور المجوفة الجليلة فندور خلفها فنلقي البحر.

كانت سيلين مصغية فأصبح من البديهي أكثر فأكثر أن العداء والضراوة قد ذهبا عنا وانقطعا عن تخريب أنفسنا وعن تعفين علاقاتنا. كان يطيب لها أن تسمعني أتحدث عن تلك الفترة غير الثابتة، أذكر منها صوراً مشكوكاً فيها ورسوماً أمامية كبرى دقيقة بلغت من الوضوح في ذاكرتي مبلغاً عظيماً. كان الحصى يخرق يدي وسط منظر طبيعي قفر تخدد بعمل الشمس ورحيق الإفسنتين وهو عمادي ومناصري في سكري وضلالي وهو المسكن يهدئ من ألم تلك التمزيقة التي كنت أعالجها سيئ المعالجة ليلاً نهاراً لكي أعتصر منها نفي جميع أعمالي التجنينية المشوشة المعكرة لصفو نظام مقيت حتى إلى النغمة الأخيرة التي يحدثها في نفسي ذلك الوالد المشقوق نصفين والممزق إرباً إرباً والذي كنت أبحث عنه تائهاً هائماً منقطع الأنفاس أشد عنفاً من عنف مسيرتي الراكضة. لقد كانت جميع هذه الذكريات تحوم حول تلك البطانية ذات لون الحرير الخام المنسوجة بتشيكوسلوفاكيا والتي ورثتها عن «الكاهن» الأعظم الذي قتلوه مباشرة بطرف السلاح لأنه كان يطالع ماركس فيوشم كيانه هكذا إلى أبد الأبدين ويقبع في صلب تغير كرغوة الصابون. وذكرت لأول مرة الكاهن الأعظم أمام سيلين وكانت تصدق ما أقول لا بسبب ما فيه من مصداقية ولكن احتراماً لبنود ذلك التحالف الضمني الذي كان يربط بيننا، وأنا واجل من ذلك اللون الأمغر الذي يغرق فيه ضميري كلما رويت حياة العصابة الكبرى الهائمة

منذ أن هجرت المعهد. وإذن فقد أورثني الكاهن الأعظم كل ما عنده، أي بطانية وبعض الكتب نصفها محروق، أحرقوها أثناء حريق عمومي أمر به جماعة السفاحين. وقد تمكنت من إنقاذ البطانية بعد نزاع وخصام ماكرين، وكان عليَّ منذ ذلك الحين أن أجرها معي حيثما حللت* ولم يهتم أحد بهذا الإرث الذي أورثنيه الكاهن الأعظم. حتى حلَّ ذلك اليوم الذي خطرت فيه ببال سيلين تلك الفكرة الغريبة فكرة تقطيعها قطعاً صغيرة لكي تقتلني برداً. ترى هل كان في وسعي أن أغفر لها هذه الخيانة تجاه الكاهن الأعظم الذي قتلوه بسبب ترويجه كتباً تحرض على التمرد على الدين وعلى التآخي بين الطبقات؟ كلا لقد كانت سيلين معترفة بنفسها بذلك إلاَّ أنها لم تكن تقدّر قيمة تلك البطانية الملعونة التي أضحت لا تغطي أي شيء منذ أن أحدثت فيها تلك المرأة العاشقة التمزيقة العمياء. وكنت إذ أتحدث عن شيخي الفقيد أعرض نفسي للخطر لأن العصابة كانت يومئذ بيدها السلطة والنفوذ الأعظم وكان لا يطيب لها أن يذكر المرء تلك العمليات التي وقعت فيها تصفيات الحسابات فأودت بحياة الأخيار، أودى بها شرذمة من الأنذال قذف بهم كما تقذف قذائف المنجنيق إلى قمة المجد والسلطة وتجاوزتهم أحداث الوضع الجديد الذي أصبحوا فيه فرجعوا إلى أصلهم الأول المشؤوم. ترى ماذا جاؤوا يصنعون في صلب الثورة؟ لم يكونوا ضالين فحسب بل لقد جاؤوا في وقت غير مناسب ليشفوا غليلهم ويطفئوا

تعطشهم إلى تربة الأجداد وأرضهم في الهواء المحرق الذي تفوح منه رائحة شجر الأوكالبتوس المحروق؟ تلك الأرض المدمرة دمرتها قوى غير سليمة لم يكونوا يعرفون عنها أي شيء بل لم يكونوا يرغبون في معرفة أي شيء عنها. ثم ها هم الآن قد انقلبوا فأصبحوا يعطسون داسين أنوفهم في مناديل معطرة بزهر عود القرنفل وبنشوق التبغ. لقد كانوا يأبون التفكير في المستقبل ويمشون فيه القهقرى كما يفعل أربيان البحر وكان امتلاك تلك الأراضي الشاسعة الخصبة الشيء الوحيد الذي كان ينتظر الشروع فيه والذي كانوا لا يأبهون به. وكان ذلك هو السبب الذي قتلوا من أجله الكاهن الأكبر بأن أطلقوا عليه الرصاص من الخلف فقد كان في نظرهم مفرطاً في الاهتمام بالمستقبل ومقصراً في الاهتمام بالحاضر وعلاوة على ذلك كله فقد كانت تنبؤاته تبعث الخوف في نفوسهم لأنها كانت مريعة، ألم يكن يتكهن بمستقبل يكون فيه الرعب المسلط على الشعب السمة الغالبة المسيطرة على سياسة جد ديماغوجية تقوم على فصاحة الكلام وعلى تشييد المساجد الفاخرة حتى تجيء إليها الجماهير فتنسى بها مطالبها؟

وكانت سيلين تعرف الآن أن الكاهن الأكبر كان على حق لأنها كانت ترى المدينة ترتفع فيها شيئاً فشيئاً المآذن الممشوقة والحانات الأميركية فتغشيها تغشية بينما كانت الفاقة في تفاقم وتعاظم والأرياف في زحف وهجوم على المدن المزيفة العاجزة عن إطعام من تجتذبهم إليها من

الخلائق؛ تلك المدن المطوقة بالبحر والتي تغور في أحشائها تلك الأرصفة المستطيلة الضيقة وهي محض من الهياكل المتخذة من الإسمنت والفولاذ. تلك المدن الخاصة بالتقنوقراطيين وسوء النية. أصبحت تعلم الآن ولكنها لزمت الصمت إذ لم تجد ما ترد به على تحليلاتي ولكنها لم تكن قادرة على الإقلاع عن المبالغة في ذلك العذاب الذي كانت تحدثه في نفسها البطانية الممزقة: يا له من موقف شعوذة لا يطاق! لقد كانت مسؤولة، ترى هل كانت تبكي في تلك الغرفة التي لم يعد يشدها إليها أي شيء! كلا، لم تكن تبكي الآن وقد رأتني أطفو من جديد وسط صفاء ذهني الشخصي وأوضح كثيراً من النقط التي ظلت إلى حد ذلك الوقت غامضة بل قل مشبعة بالأوهام أيما إشباع وذلك بفضل فترات صمتي ونوبات غضبي المفاجئة المتعلقة بتفاصيل وجزئيات كانت تجهل أهميتها الحيوية. كلا لم تكن تبكي أو لا تكاد تبكي إلاً قليلاً أثناء فترات لقاءاتنا السيئة الطالع التي كان الحلم يلتقي فيها بالمعقول! كانت لا تبدي حراكاً. وكنت إذ تراها جامدة في تلك الهيئة النهائية تخالها تستوعب ظلها الذي كان يجعل هيئتها أقرب إلى الزوال وأقل احتمالاً. وكان الليل يلم بنا وقد عادت إلينا فجأة وداعة غرق فيها جسمانا معاً. ولم يعد يصلنا من الميناء أي بصيص من نور لأن السفن كانت قد انصرفت جميعاً فكنّا لعلمنا بذلك الفراغ الهائل تحت شباكنا نكره إنارة النور وذلك لكي لا يعرف أحدنا الآخر

من خلال وجهه الشاحب ولكي أضفي على تصوري لذكري الكاهن الأكبر ضرباً من الجلاء النهائي التام. فكنا نفضل مداعبة بعضنا بعضاً واكتشاف أحدنا لصاحبه شيئاً فشيئاً على وميض سجائرنا المحمر ونؤثر الانقطاع عن الحديث عن شطط العصابة الكبرى التي ركنت في ذلك الوقت إلى الراحة بعد الحرب التي خاضتها وتتمتع بغبطة مدهشة. كان يطيب لي أن تدللني سيلين وكنت أظفر من جديد من خلال شعرها الذي بيضه البحر قليلاً برائحة حناننا الأول الذي غيرته منذ ذلك العهد مختلف ضروب المشاكل الطوال نتمتع بالسَّلام وقد رجع، ولكننا كنا في تلك الهدأة الوقتية التي لم تكن في الحسبان نرفض التواطؤ مع رؤساء العصابة الكبرى ونرفض تذكر موت الكاهن الأكبر الذي كنا نتناكح تحت بطانيته بدون انقطاع. عندها كنا نذهب لقضاء ليالينا على الشواطئ المقفرة الملائمة لإنشاد القصائد التي لا تنتهي والتي كنا نقطعها على إيقاع صوت الأمواج المصم للآذان ولكننا كنا كلما تقدم بنا الليل نأخذ في الخلط بين جميع الأشياء وذلك بسبب خوفنا من كل شيء صعباً عسيراً. فكانت الأشكال يمتص بعضها بعضاً بصورة تثير الغيظ، وتتخلص من كيانها المحترق في لذائذ الشمس التي اختفت منذ فترة طويلة. وكنا لكي لا نجمد من البرد نأوي ثانية إلى غرفتنا الحقيرة التي أطلقنا عليها لقباً فخماً فسميناها: «فيلا السعادة» فننتظر بها عودة سفن صيد السردين. فكانت تظهر أمامنا وقد التصق بعضها ببعض

خلسة تتقدم بانتظام إلى أن تبلغ المرسى المتنوع الألوان حيث كانت الأصوات تطفو صادرة عن الفجر اللبني اللون كما لو كانت صادرة عن حلم يقظة خارق: يا لها من لحظة عظمى! وكم كان النوم يخز قفانا. لقد كنا نقاومه بكل ما أوتي جسمانا المنهوكان من قوة وقد تصلبا مع ذلك بسبب ذلك الصراع في المتكافئ القوي الذي كنا نقاوم به طلوع كل صباح غير فصل الصيف. إنه الشعور بأعضائنا متجمدة يابسة وبحلقينا وقد جرحتهما الرطوبة، وهو التألم من ذلك التعب الحلو الجاثم بين أعيننا وقد لدغهما ذلك الحلم الذي كنا على وشك التحجر فيه فننام ونستيقظ مذعورين. بسبب الكوابيس. فإذا كنت أول من استيقظ زاحمت العشيقة ولثمت وجهها وقد قبحه التعب والبرد.

ـ هل صدقت بموت الكاهن الأكبر؟

ـ لم أصدق بذلك كل التصديق.

تجيب بذلك وقد تشنجت أعصابها لأسئلتي التي كانت تمنعها من النوم ومن جمع ركبتيها إلى ذقنها في ملجئها الأقصى لكي تتمكن من التخلص من أوهامي وهوسي.

وهكذا لم يحصل أي تقدم بل ظلت جميع الأمور تنتظر من يقوم بها. بيد أنه هناك يقين واحد هو حبي لسيلين. ولكن ضميري كان يسألني أن أعيد النظر في كل شيء مرة أخرى.

إذ الطفولة هي الأخرى كانت كذلك تدميراً! لقد بددنا كل شيء ولم يبقَ شيء ما عدا تلك الخدشة القذرة المحفورة على أديم الحلم، ذلك الكابوس الذي تحول إلى لون دم أمغر كان يجف في الصحن الكبير في دار الأم المطلقة حيث كانت القبيلة في حالة نعاس بعد القيام بطقوس ملحمة الماء. وكانت البرودة الوحيدة تأتينا من كدس متجمع في البزاقات كان لمسها تتجمد له نفوسنا وتنكمش في آن. ولكنه كان يتحتم علينا مطلق التحتم أن نطرد تلك الدويبات الباردة إذ لو لم تفعل لماتت من شدة الحر وسط أكداس متراكمة من الكسكس الجاف على ملاحف قاسية البياض.

لا. لم يكن هناك أي ملجأ! كنا قد شرعنا في وقت مبكر جداً من حياتنا ومنذ نعومة أظفارنا في الاختلاف على الحانات ذات رائحة الحبق والخشخاش المدسوس تحت أفخاذ العاهرات قصد إخفائه في الليالي التي كانوا يخشون فيها نزول الشرطة. لقد كنا قد شرعنا في وقت مبكر جداً

من أعمارنا في إرادة القفز للعوم في ماء الميناء حيث كان ساسة العربات الذين يجيئون لتعويم خيولهم يعتدون على شرفنا بين صندوقين من صناديق البطيخ بدون أن نفقه لتلك القضية معنى. إن ما كنا في حاجة إليه هو مغادرة المنزل وترك مشاجرات النساء وهجومات الإناث اللائي قد أحرقتهن ليالي الصيف الهائلة وترك صلوات الأعمام الجماعية لننصرف بقيادة زاهر إلى حيث كان الماء أكثر حمأة ووحلاً للعثور على الوالد بسعادة ما وقد امتزجنا بمدخني الحشيش وبقحاب المواخير المسنات وللإيمان حيث كان من المحتمل أن نصادف شيخ العائلة وهو ينقد محظياته السوقيات نقداً سخياً كالملوك قبل أن يستنزلهن في فيلات قائمة على هضاب مدينة الجزائر. لقد كنا ننيك أكثر النساء وشمات أي اللائي كانت لهن رائحة ما زالت عالقة بجلد بطونهن التي نخرتها ندبات طويلة ناتجة عن عمليات قيصرية. هي رائحة الأرض اللاذعة العنيدة التي لن تبارحهن أبداً: كم كانت شاقة على النفس تلك التجولات عبر الأزقة الصغيرة إثر صلاة العشاء حيث كنا نذهب لننعم برؤية ساقية حمراء قلوية المادة لامرأة طاعنة في السن قد خلعت سروالها وجلست على كرسي قصير وأخذت في تمرير يدها في فرجها المغضن جيئة وذهاباً تقوم بذلك على غرار عملية إيلاج ذاتية كانت تزيد في حدة حقد الشعب الذي غادر المساجد منذ فترة وجيزة فانقض مهاجماً أولئك الفلاحات ذوات العيون المكحلة. لقد كنا نصاب في

سويداء قلوبنا وذلك لأننا كنا نضطر إلى الجدال الممل اللحظات الطوال مع الكافرات الجالسات وراء أبوابهن القصيرة هدفنا الوحيد من ذلك حملهن على التلفظ بألفاظ جنسية كنا نعشق سماعها من أفواههن إذا لم يكن لدينا نصيب من المال لكي يجوز لنا ولوجهن. وكان كل ذلك يساعدنا على تعزيز مناجاتها الذاتية التي ظلت سابحة في إبهام ضمائرنا الفتية مثل القروح في صلب الواقع الكثيف التابع للأمور العادية المبتذلة التي كان الوالد والأم وعصابة الأعمام وبنات الأعمام يمثلون أدق معالمها وأثمنها رغم كل شيء. ولكننا كنا ننفذ من عيون شبكة الحياة الجماعية فننظم ألعاباً ذات قوانين قاسية كانت الإباحية الجنسية أجلى خصائصها: من عمليات جماعية نجلد فيها عميرة في القسم وذلك لمجرد ما يتصدى بريق من جسد فيهز أجسادنا من الرأس إلى أخمص القدمين والذنب في ذلك ذنب المعلمة وكانت مفرطة في الثقة وإحسان الظن بنا، وكنا قد صممنا على قتل عشيقها، ومن عمليات اغتصاب خرقاء نعتدي فيها على بنات أعمام بعيدات قد جئن لقضاء عطلهن في الدار الكبيرة فكنا نطالبهن بخلع ثيابهن خلعاً فنياً كان يصعد في أفواهنا طعم النحاس الذي كان يذكرنا برائحة الدم الشديدة الذي كان يسكب في جميع سواقي المدينة عند الاحتفال بعيد الأضحى، ومن نساء كنا نترصد أفخاذهن البيضاء الملساء أثناء صلوات التراويح بالمساجد في شهر رمضان وذلك بمجرد ما يركعن للتسبيح للّه ولرسوله. لقد كان

التدمير في نفوسنا منذ طفولتنا المنهوكة من جراء السباق لاكتشاف الوالد القضيبي الذي كان نصف واقعي ونصف خيالي وقد تاه وسط سحره المؤذي واستأثرت به نساؤه الكثيرات. كنا نطارد خياله الوقح والواثق بنفسه بدون هوادة ولا أمل، فننتقل من أحجية إلى أحجية ونندهش للعدد المتزايد من أنصاف الإخوة وأنصاف الأخوات الذين كانوا يعرقلون مسيرتنا نحو الاكتشاف العجيب اكتشاف ذلك الشيخ الظالم. ولكن رحلتنا الطويلة كانت تغوص بنا في غمرات تعاطي الكحول والزنا بالمحارم. لقد حدث انفصام الصلة في نقطة ما وبصورة نهائية، فأصبحنا بعد متلهفين للعثور على الثلمة فنتخاصم مع القبيلة، القبيلة التي تحولت فيما بعد إلى عشيرة مضيقة وذلك لكي تتمكن من احكام إصدار أوامرها وسن قوانينها واقتضاءاتها. ترى أي مستنقع وأي سلح قد كنا اجتنبنا؟ لا شيء. لم نجتنب شيئاً وذلك لأن الحكم علينا كان صلباً راسخاً منذ طفولتنا التي حرفتها هوائل لا مفر منها كهوائل يوم القيامة. كانت يما محورها الدائر إذ قد عميت بصائرنا، أعماها حبنا العنيف لأمنا الذي كان يجعلنا على مشارف الزنا بالمحرمات والتدمير في عالم ظل مغلقاً مسدوداً في وجه تحسسنا وهو تحسس بذرات شريرة مبددة في صلب الأمومة الملتهمة.

وكنا لا يسعنا تذكر طفولتنا بدون أن نتنفس هواء ذلك الجو المفعم برائحة لحوم الوحوش وبعر الخرفان الأسود. لقد كنا نعرض على عيون الناس خرفاننا الشهور تلو الشهور

وكنا نحملها على التناطح لإعلاء شرف القبيلة بأزقة الأحياء العربية من المدينة قبل أن نذبحها وسط مجموعة من الطقوس الفاخرة قوامها الدم والبخور والصراخ. لقد كان عيد الأضحى يمثل في نظرنا أهول بلاء وأروعه وذلك لأنهم كانوا يجبروننا على حضور الحفل الذي كانوا يقتلون أثناءه عدة رؤوس من تلك الدواب وذلك لتخليد تضحية نبي كان مستعداً لقتل ابنه للفوز بمرضاة اللّه. وكنا نظهر شيئاً من العداء لتأكيد الفارق الموجود بيننا وبين سائر أعضاء القبيلة. فكانوا يتبرؤون منا وكان ضلال شيخ القبيلة السيئ الطوية يدفع بنا إلى حالة من الرعدة والقلق الجنوني الخاصة بالمصابين بداء الصراع الواثقين بصورة مفرطة بأن الحق معهم. لقد كنا نخاف قدوم يوم العيد الذي كنا نتخبط فيه في الدم وقد ثخن بعد في حلوق تلك الدواب وذلك قبل أن يتجمد على الأرض بزمن طويل، فينقلب إلى صفائح قرمزية اللون كانت تتحول إلى لون أمغر ثم أسود وذلك كلما زادت الشمس في صعودها نحو السمت.
وكانت الدار تسترجع جيشانها في كل عيد من الأعياد إلاَّ أن عيد الأضحى كان يحدث جواً من التجنن العام ترعاه عمداً النساء عاشقات دم البهائم المذبوحة قرابين لضرورات ما ورائية ولكن وعود الولائم المقبلة كانت تذهب بكل تدين. وكانوا يوقظوننا في الصباح الباكر جداً لكي نشهد عملية الإعدام، وكانت أبصارنا المضطربة بمفعول بقايا النوم العالقة بأعيننا التي كانت تريد نفي الواقع البديهي

كانت تصير المشهد صاخباً والأشكال حادة. لقد أنغرز قلقنا الناشئ وبغضنا للدم انغرازاً عميقاً في نفوسنا منذ أن اكتشف زاهر ذلك الاكتشاف المرعب الحزين وراء باب المطبخ. وقد كنا في الواقع عند كل تضحية في عيد الأضحى نخشى على النساء من أن يمتن شيئاً فشيئاً بسبب سيلان الدم من فروجهن سيلاناً خبيثاً مؤذياً كنا لا نرى له مبرراً. لقد كانوا يأتون بنا قسراً لحضور موت تلك الدواب التي كنا قد زينا قرونها بشرائط من صوف نسجناها بأيدينا، حتى إذا أخذتها حركة من الخوف فارتددنا نحو الشارع طلباً للخلاص من تلك المذبحة ومن رائحة الدم والبول التي ستراود أحلامنا الكابوسية طيلة القائلات المقبلة تصدى لنا عم من عصابة الأعمام مهدداً مزبداً فسد الطريق في وجوهنا تساعده على ذلك النساء ولا وعي لهن بذلك الترابط الذي كنا نتصوره بين حلق الحيوان المذبوح وبين فروجهن الندية المخضلة بل تراهن يسخرن من قلّة رجولتنا ويصرخن متعجبات من تقززنا وخوفنا من مشاهدة الكبش وهو ينعظ قبل أن يموت في بحثه الدائم الأبدي عن الإيلاج المنقذ من الاحتضار وقد تمطط في إباحية وفجور نحو بعض الإناث متوهماً أنه سيشفي للمرة الأخير في صلبها غليله على ذلك النحو الغريب حيث كان الخوف يتحول إلى التذاذ جنسي سيال اللعاب. وكانت النساء يدرن رؤوسهن إلى الوراء محمرات الوجوه خجلاً أمام ذلك الانتفاخ غير المنتظر في عضو الحيوان المقدم قرباناً. لقد

كنّ لا يفقهن كيف يمكن قبل الموت أن يقع مثل ذلك الخلط بين ثقبة اللذة وباب الخلود. وكن يبقين الأسابيع الطوال مندهشات واجمات ثم ينتهي بهن الأمر إلى الضحك من القضية وذلك لكي لا يتوغلن بصورة مفرطة في البحث عن شروح وتفسيرات كان الرجال يسكتون عنها.

لم نمتع بالطفولة لأننا كنا قد خلطنا على الدوام بين الدم والدم بدون تمييز الفارق. وها هم يجبروننا على مشاهدة ذلك السائل الفظيع يفور نحو الأعلى هاجماً على السماء. لقد كنا ننزعج أشد الانزعاج من شخير الدابة ومن كيلوس أمعائها ومن رائحة الشحم المنبثقة من الجزة الغليظة الغارقة في العرق ومن التعبير الشديد عن رعب الموت الذي كان يتجدد كلما ذبحت دابة من الدواب وقد أصابها فجأة السكين الذي كان صاحبه يرفعه ويهوي به بسرعة مدوخة فينشطب اللحم الطري إلى أن يبلغ العظم اللامع الأبيض كالملح. وكان الجزار يعيد بدون انقطاع حركته العتيدة ويفور الدم في دوي يصدر عن الحلق المتفجر محدثاً شبه كلمة محاكية للصوت مجردة تجريداً شاذاً غريباً ذلك في ساعة التذبيح والطقوس في ساعة اللحم والشحم الغازيين. وتصدر أنة عن أضخم الأعمام جثة ذلك الأشعث الذي أعمى بصيرته منظر الدم الطري وبريق المدية في الهواء الحار فتضفي على عيون بنات الأعمام بريقاً رائعاً وتثقب بصورة لولبية الفضاء المشرب زرقة والذي يفصل بين الذراع المرفوعة عالياً في الهواء وبين الأرض حيث طرحت

الضحية القربان التي سيخصب نسغها دار سي زبير وسيزيد في رفاهيتها أكثر من أي وقت مضى. وكان صوته الغليظ يملأ صحن الدار بصداه المريع: إنه التسبيح والتكبير: (اللَّه أكبر! اللَّه أكبر!) وكانت النساء وقد ضقن ذرعاً بمثل تلك الكثرة من العنف والتقتيل والتكسير يطلقن صيحاتهن الحربية فتطقطق زغردتهن بين الجدران البيضاء الملطخة بالبقع الحمراء. وكانت القطط تجتهد في لحسها كلها حتى ينتهي بها الأمر إلى الانبطاح أرضاً وقد أتخمت دماً تحت شمس قاسية حادة ستجعلها بعد حين تتقيأ شيئاً من المرة وقد أحمر لونه بدم الذبائح. وكنا ننقطع عن النظر إلى ذلك ولكننا كنا مفتونين، سحرنا ذلك المشهد الزاخر بالألوان والإيقاعات والدوي، وكنا في آخر الأمر يجتذبنا عنف الدم المسكوب وتلك الضربات المسددة إلى أطرى مكان من حلوق الدواب وسط فرقعة تلك الصدمة الفاخرة التي يتفجر لها دماغ الكباش الوردي الفاتر فيتطاير شظايا متعددة. ترى أي ثغاء يكفي لإيقاف تلك المجزرة؟ لقد كان من المفروض القيام بالحركة من أولها إلى آخرها ـ وإنما هو وميض برق مرسوم في حركة جيئة وذهاب بين اللحمة الحية واللحمة الحية ـ ولا شيء كان يتعب تلك الحركة حتى ذلك التأوه الصادر عن أحدنا فتقطعه فجأة صفعة تترك على الخد أثراً لزجاً. وهكذا كانت تنشأ في نفوسنا الانفصامة الكاملة وسط رائحة تلك المواد البرازية التي كانت تكون سواقي على مشارف طفولتنا البائسة من شدة تلك السادية

والقسوة المتلألئة، تلك القسوة التي كانت تذهب بجميع ما كنا قادرين عليه من براءة فتفتح في ذاكرتنا ثلمات فارغة فاهاً للصدمات النفسية وتسطو على عقلياتنا الفتية الذاهلة بسبب انعدام الوالد الذي كان لا يظهر إلاَّ بصورة مجردة ومن عيد إلى عيد من خلال بقايا ذكريات نذكر فيها صوتاً يصيح بالحمد للّه وبترتيل الأدعية الموروثة عن الآباء والأجداد. تلك القوة التي ستقض مضجعنا وستناوشنا على الدوام فتفرز مادتها الذاتية المبقعة باللون الأدهم واللون الأصفر وتتحول إلى هذيان هائل وسط القفز إلى لون الصدأ المتكون من الدم المشعشع بالماء. وكانت تتصاعد من الدار في تلك الآونة رائحة هي رائحة الجو النتن الدبق الخاص بالمسالخ العمومية وكان يزيد من حدتها ثقل وطأة الهواء بصورة لا تطاق. وإذا ما انتهوا من صرع تلك الدواب لزمهم تقطيعها وتفصيلها وإفراغها من أحشائها ومد كلتا اليدين لتناول الإمعاء اللزجة التي ما زالت سخنة من جراء ذلك الضيق الخاطف الخاص بالموت المباغت. حتى إذا ما سلخوا تلك الشياه برز لأعيننا لحمها الأمرد الضارب إلى الزرقة والذي ورمه شدة ذلك العنف والهول. وكانوا يزيدون في حدة شعورنا بالخجل إزاء سلوك الكهول المطلق العنان بأن يجبرونا على أن نشارك في العمل وأن نلمس بأصابعنا الجامدة الباردة ذلك الكوم من اللحم الهلامي في رخاصته الفاترة، ذلك اللحم المرتخي كأنه ضرع بال ساخن عمل فيه الخنجر عمله اللولبي. ترى كيف السبيل إلى

الإغماء؟ أنى لنا أن نستسلم إلى الدوار؟ كلا ليس إلى ذلك أي سبيل: لقد كان القوم نساء ورجالاً مستيقظين وقد اندفعوا يطاردوننا وتوغلوا حتى في صلب وساوسنا. لقد كنا نرى بقعاً من الدم الأحمر المجلط على الجدران التي خددتها الشمس فبيضوها بالجير الحي فبدت كأنها فوهات براكين قذف بها هناك صدفة حسب نسق مدوخ مجرد لا واقعي! وكانوا يقتفون أثرنا بلا هوادة حتى نضطلع اضطلاعاً تاماً بتحمل مسؤوليته سعادة الدم والبعر وسط ذلك العالم الذي كان الكهول يلعبون فيه دور الجزارين وذلك لكي يزيدوا من التفنن في ضبط الخط الفاصل بين وحشيتهم وبين إنسانيتنا المنقوشة على صفحة ضمائرنا وذلك رغم ذلك الحقد ورغم تلك العواطف الجامحة التي كانت تمسخنا فتحولنا إلى وحوش ضارية. وعندئذ لم يكن يبقى من ذواتنا إلاّ تكلف واصطناع كانا يحزان فينا، حتى نشرف على الهلاك. وكنا لا نفهم دائماً تلك العلامات التي كانت تسد علينا طريق الإفلات والنجاة. ترى أية مماطلة بل وأية حيلة يمكن لنا أن نتذرع بها لتبرير هروبنا؟ لقد كان شهر جويليه محرقاً لكل شيء! وكان الناس في تلك الدار التي انتهوا فيها من تذبيح الخرفان يستعدون للاحتفال بولائم عملاقية وسط السواقي حيث كان الدم الحي يحمل جلطات ضخمة كبيرة مثل اليد المضمومة.

وكان الجو نفسه مخيماً على الشارع: الدم والروث يضفيان على المدينة في كل مكان مظهراً غريباً: ولم تعد

الديار بيضاء ولكنها لم تكن حمراء كذلك. بل لكأنها قد اكتسبت لوناً يعجز اللسان عن تعريفه ومع ذلك كان جميع الناس يعرفون اسمه ولكن لم يكن أحد قادر على التعبير عنه بوضوح. لم يكن المواطنون يهتمون كثيراً في نهاية الأمر بتلك الظاهرة الغريبة التي طغت على بياض مدينتهم العريق ولم يكن يهمهم أيضاً تلك النتونة الراكدة فوق غمائم الحرارة والتي كانت تمطر القوم بملايين من الذرات الصغيرة التي لا ترى وتهاجم خياشيم آلاف المتنزهين الذين خرجوا لعرض جحافل ذريتهم التي لا يحصرها عدو والتي كانت تتصاعد منها رائحة عطر قوي جداً عبثاً يحاول أن يكتشف أصله: لقد كان ذلك سراً من أسرار النساء اللائي كن يهيئن ذلك العطر بصبر وثبات طيلة السنة استعداداً لعيد الأضحى الكبير. وكان بعض الأفراد النبهاء سرعان ما يشعرون بأن ذلك اللون المدهش الملتصق بجدران مباني المدينة مرده انعكاس أشعة الشمس على تلك السواقي التي لا تعد ولا تحصى ذات لون الصدأ ولون المغرة المشربة دماً والتي كانت تنبثق من كل منزل ومن كل سطحة حتى ينتهي بها السيلان إلى مصب مخروطي ضخم في الهواء الطلق له أشكال طلائعية دشنته السلطة منذ بضعة أشهر فقط، وذلك لأن جميع الناس قد اشتكوا من تلك الرائحة الكريهة التي كانت تتصاعد من مياه النهر الذي يخترق المدينة. إلاَّ أن جمهرة الناس كانت تأبى على نفسها وذلك من محض التطير أن تفسر ذلك اللون الغريب بالمجازر

التي كانت تقترفها في كل منزل إذ لو فعلوا لأنكروا بذلك معنى الضحية والفضائل التطهيرية الخاصة بتلك العملية بالنسبة إلى من يذبحون كباشهم وقد وجهوا وجوههم نحو الكعبة وهم يتلون الأدعية وذلك لكي يزيدوا في تأكيد نواياهم الحسنة. ولهذا كنت لا تجد أحداً يرضى بتصديق ذلك النوع من التفسير الذي كان يقدمه جماعة من الشبان الرعناء من أعداء الدين الذين كان القاضي في الواقع يندد بهم عند خطبة الجمعة من أعلى المنبر بمحضر سلطات البلاد المتحفزة إلى إلقاء القبض على أولئك المتفلسفين الذين تقول عنهم الشائعات إنهم لا بدَّ قد هربوا من بعض مستشفيات المجانين. ولم تحدث أية انتفاضة شعبية بفضل تدخل مصالح الأمن والنظام تدخلاً سريعاً وذلك لشدة ما كان الشعب هائجاً ضد تلك الأقلية الحقيرة التي اجتمعت وراء تفكيرها الكافر وأبت العدول عنه. وكانت المدينة لا تزال غارقة في إشراقها الأمغر اللون وفي نتونتها الوحلية العكرة. وكان يعترض المرء في طريقه ناساً يحملون على أكتافهم طوابق من اللحم. إنهم ذاهبون لإهدائها إلى أقاربهم وكان هؤلاء يفعلون مثل فعلهم فيلتقي الجميع في منتصف الطريق وينتج عن ذلك اللقاء عناق أخوي متحمس ودعاء متبادل بالبركة يعرفونه من القرآن ومن حياة النبي ومن العبارات الجاهزة المعدة لمثل تلك الظروف. ترى هل أصابهم العمى؟ ألم يفقهوا أن أموراً خطيرة ذات بال تحدث؟

لقد ألفوا في الحقيقة مثل تلك الظواهر وكانوا يعرفون أنها عابرة: لقد أجمع الجميع على القول بأنه لن يبقى من ذلك شيء بعد بضعة أسابيع. على أن ذلك لم يكن صحيحاً تماماً. فلئن كان إشراق لون المدينة يعود إلى وضعه الطبيعي بسرعة كبيرة فإن النتونة كانت من جهتها تتواصل إلى نهاية الصيف أي عندما كانوا يخزنون القديد الذي جففوه على حبال نشر الثياب المغسولة. وتظل قلائد «المرقاز» بعد ذلك بزمن طويل تزين السطوح وقد تصاعدت منها رائحة قوية هي رائحة الكمون والنعناع المحروقين.

أجل بالتأكيد! في البداية كان التدمير، فمن خلال أعيننا المحتقنة بدم الدواب الذي أريق للتكفير عن الذنوب ستحفر السيول آثارنا المبهمة التي أنجزت شيئاً فشيئاً وسط انقطاع رجاء القبيلة المتبددة والمجتمعة من جديد ثم المتبددة مرة أخرى، الذنب في ذلك ذنب الدم الذي ارتوت به الأرض لا في سبيل دفع بعض الأذيات الشديدة ولكن في سبيل تحقيق غايات تافهة. فقد كانت القضية أولاً وبالذات هي أن يفرضوا علينا قانون الأقوى فكان أعمامي وقد ثارت ثائرتهم بين الدم وبين البرد النازل في فصل الجفاف، يقهقهون ساخرين من رفضنا لمواجهة ذلك التذبيح بأكثر اطمئناناً مما كنا نظهره. ومن جهة أخرى كانت القضية تتعلق أيضاً بقطع رتابة الأيام المتماثلة وبالإغراق في الأكل والشرب مرة في السنة. ولهذا فإنهم كانوا سينظمون المآدب والولائم، وسيأكلون طيلة أسابيع طوال اللحم

والكروش وأرجل الدواب بدون انقطاع البتة وسيكون من المفروض عليهم أن يجوبوا أنحاء المنزل ويقذفوا بفتات اللحم النيء في جميع الأركان والزوايا الخفية وذلك لتهدئة خواطر الملائكة والجن القابعين في عالم لا نراه محاذ لعالمنا. وكان المتسولون كعادتهم في المواسم العظيمة يقتتلون للاقتراب قدر أنملة من قدام الدار الكبيرة. وربما طال انتظارهم وقتاً طويلاً وذلك لأن قسمة اللحم كان ينجم عنها مشاكل حقيقية: فقد كان كل فرد يريد الحصول على أفضل قسط، فكان كل شيء يحوم حول هذه القضية طيلة أيام وأيام. وفي النهاية كان لا بدَّ أن يتدخل سي زبير تدخلاً حاسماً صارماً فيفض الخلاف الذي قد ينقلب إلى كارثة لو طال الوقت ففسد اللحم وتعفن. وكان المتسولون لا ينالون من اللحم إلاَّ القطع الرديئة والكروش ولكن ذلك كان يفعم نفوسهم فرحاً وابتهاجاً. وعندئذ كانوا ينطلقون نحو المدينة وقد تقاطرت محصولاتهم الهزيلة دماً على الإسفلت اللماع فكانت دوريات الشرطة التي كانت لهم بالمرصاد توقفهم وتستجوبهم لكي تنتزع منهم حمولاتهم المشبوه فيها وذلك بدعوى أنهم لا يحترمون نظافة المدينة.

ترى كيف النجاة من تلك المجزرة الفظيعة؟ لم يعد هناك سبيل إلى الهروب: فقد كانوا يباغتوننا ونحن نائمون نوماً كنا قد قاومناه فترة طويلة استعداداً إلى الهروب بمجرد أن يطلع الفجر، ولكننا كنا لا نعرف متى ولا كيف يهزمنا النوم فنخر جثثاً هامدة في تلك الظلمات المضطربة حيث

كانت خطتنا الوهمية في الهروب تطاردنا مطاردة. لقد كنا واعين بوجوب العمل بأسرع ما يكون ولكننا لم نعد ندري ماذا نصنع بالضبط. فكان ذلك الانزلاق والتحول يكتسي ـ وسط كوابيس ليلة العيد ـ ميوعة خارقة للعادة ذلك أن جميع الأمور كانت مقطعة وقد تحولت إلى ماء كانت أيدينا وقد انقلبت فجأة إلى سميكات حمراء تتحرك فيه بعسر. في مكان ما كانت القطيعة بديهية ولكننا لم نكن نستطيع معرفة مكانها بالضبط. وكانت رائحة الشواء تصلنا في الوقت نفسه الذي نشعر فيه بالعجز المتجذر عن معرفة ما كنا نريده معرفة واضحة وعن فهم معنى تلك الرموز القائمة بيننا وبين عالم الكهول وذلك عوض أن نتلوى في نومنا الذي كان يحدث كلوماً في أجسامنا المغمورة ويفكك كلامنا. فالألفاظ لم تعد تعني أي شيء، ولا حتى عكس معناها العادي! بل لعله قد يكون بقي فيها من المعنى ما يكفي بالضبط للتعبير عن ثغاءة يقطعها فجأة سكين يسيل دماً على جزة ضخمة علق بها هنا وهناك شيء من التبن والهرطمان. وعلى أن كل شيء في الجو المجاور كان هادئاً فكان المجهود الذي كنا نبذله لتذكر المقتضيات الحيوية ينجز بدون أي تململ في صلب تلك المساحة التي كانت تفصل بيننا وبين أفكارنا الشخصية الملقاة في ركن من أركان الكوابيس. ترى كيف يمكن أن نجر أنفسنا وأن نزحف على أربع حتى نتمكن من استرداد تلك الأفكار والحال أن ظهورنا كانت مقصومة وألسنتنا مشطورة نصفين وبينما كان

لنا مكان العينين زنبوران ناعسان كنا لا نريد أن نعرقل تحركاتهما الناعمة كالحرير كلفنا ذلك ما كلفنا. لتدق أجراس الساعات المنبهة ما طاب لها الدق فإنه لم يكن في نومنا شيء من شأنه أن يبهرنا وأن يظهر لنا العلاقة الأعجوبية، علامة الكسوف الساحر الخلاب. كلا لا شيء إلاّ ذلك الفضاء المتألق الوهاج على الدوام المطهر من الجراثيم (ترى هل كانت رائحته رائحة الكلورفورم؟) والخالي من كل معنى، ذلك الفضاء المبيد جدوى عضلاتنا الخائرة والمخل بدور أشداقنا التي كان وهنها المدهش يحملنا على إراقة سائل مائع على مخداتنا كنا نعرف أن له طعماً بدون أن نتذوقه فلكأنه ضرب من اللبن تفرزه بعض النباتات الضارب لونها إلى البنفسجي ويضفي على حلمنا لونه النهائي. وهكذا فقد كان الخوف من عدم الاستيقاظ في الإبان حتى ننجو من بلاء تلك التضحية وأبهتها يبلغ منا مبلغاً كنا نغرق معه في زلازل فظيعة كانت تلتهم إرادتنا الصبيانية: فينهار كل شيء ويسقط من مكانه ويتفسخ فينقلب إلى حريق تكفيري تحرق فيه بهائم مبرقشة الألوان من ذوات الأربع. وكنا في خبثنا ومكرنا لا نريد أن نرى في تلك البهائم إلاّ قطط دار يما وقد فصلوها عن خروق النساء التي كانت تلحسها لحساً شديداً ريثما يأتي اليوم الذي يقتص فيه منها على كل الشر الذي اقترفته إزاء الأعمام وعلى كل الانحرافات الجنسية التي لقنتها إلى زوجاتهم البريئات اللائي كانت أصواتهن الهائجة باللذة

تصلنا منذ الصباح الباكر فتزيد في حيرتنا وارتباكنا. ومهما يكن الأمر فإننا قد خسرنا الصفقة مسبقاً لأن مدخني الحشيش كانوا لنا بالمرصاد وسيقبضون علينا عند أدنى مطالبة تصدر عن الأعمام ليتخلصوا منا مقابل فخذ خروف. وأما ساسة الخيل الذين كانوا قد كفوا عن العمليات الجنسية تعففاً في ذلك الشهر الحرام المقدس فإنهم سيمنعوننا من السباحة في مياه الميناء (فترى أين المفر؟) ولم يكن هناك سبيل كذلك إلى التحيل والخداع ذلك أنه لم يكن بإمكاننا أن نتكل على عطف النساء وشفقتهن فلئن كن سريعات عادة إلى الاعتقاد بأن وجوهنا متعبة رثة وأن جباهنا ملتهبة من جراء الحمى فإنهن قد رفضن في ذلك اليوم مساعدتنا على الهروب رفضاً باتاً. ولم نكن قادرين حتى على التخبط مثل تلك الكباش التي كانت تحشرج وتغرغر وتختلج بعنف فترة طويلة بعد انغراز الشفرة الحادة في حلوقها، وذلك لأن الأعمام كانوا يفرضون علينا التزام سلوك هادئ مطمئن وهيئة ملؤها الرجولة فلم يكن هناك مجال لأي دلال صبياني ولا لأي ترنح. فقد كنا صغار القبيلة، فكان من الواجب علينا أن نسلك سلوكاً مثالياً على غرار أجدادنا وهم قوم لئن هزموا فإنهم على كل حال قد كانوا مقاتلين بسلاء في الحرب يشهد على ذلك أن أعداءهم بالذات، كانوا معترفين بفضلهم وبإتقانهم لفن القتال. وكان سي زبير في هذا السياق لا يغفل عن تذكيرنا بمقاومة الأمير عبد القادر العظيمة وكان يملك عن ذلك

شواهد مكتوبة محفوظة في كتب ثمينة كان يرتبها بشغف كبير في مكتبته وكان من اليسر جداً أن نصل إليها. فكان سي زبير إذا ما أصاب أحدنا أدنى إغماء ينطلق جارياً فيأتي لنا بالكتب المذكورة. وكانت جميع النساء في مثل تلك المناسبات متوقدات النظر وقد شمرن جلابيبهن عن سياقهن إلى حد الركبتين وبدت شفاههن ثقيلة شامخة وكن متأهبات إلى إخضاعنا والسيطرة علينا وإلى إظهار شجاعتهن البدنية إلى عصابتنا الصغيرة عصابة الأطفال العصاة العنيدين القادرين على التطلع إليهن بإمعان حين كن يعطرن فروجهن في «مطاهر» الحمام والعاجزين مع ذلك عن النظر وجهاً لوجه إلى حيوان وهو يموت ويضيع دمه لا من خلال حلقه المفتوح على كامل عرضه فحسب ولكن من خلال منخريه أيضاً وجلده وذكره وقد تفرقع إرباً إرباً على هيئة قطع لينة طرية، لقد كانوا يشددون علينا المطاردة والحصار ويسلموننا لهزء النساء الحمقاوات المستغلات وسخريتهن ويهشمون فجأة كوابيسنا الشاذة الطائشة وعلاوة على ذلك كانوا يحملوننا على لمس اللحم وما زال سخناً بمفعول الاختلاجة الأخيرة، وعلى القذف بالمرارة على الجدران علامة على الرغد والرفاه ويرغموننا على التقاط أرجل تلك البهائم الصريعة ورؤوسها وحملها وهي تتقاطر دماً إلى أقرب فرن لتشييطها.

الفرن بعيد عن المنزل. آه ما أثقل السلة!.. المهم ألا نفكر في محتواها. يجب الإقدام على تلك الفعلة بشجاعة

ورباطة جأش مثل شجاعتنا عند الختان (ذلك الاختراع الوحشي الآخر من اختراعات الكهول). عجباً!. الناس تظهر عليهم علائم السعادة. الحرارة، الأيدي الندية بالعرق. أنا خائف (ماذا يقع لو أخذ الرأس في الاضطراب داخل السلة). فهل أجمع عليَّ أهل الحي؟ ولكن لو فعلت لجاز أن يدفع ذلك أعوان الشرطة إلى الاعتقاد بأن هيئتي مشبوه فيها. نقال رؤوس! الشك والخوف. وعربات الترامفاي. أعوان الشرطة من جديد! أف لهم. «تفه»! السلة ثقيلة على ذراعي! النساء! يجب الانتقام لا على الفور. ولكن ما أن تذهب رائحة الدم من كل مكان (من المنازل والشوارع والسواقي ومصب الانصباب المخروطي) المخروط... ينبغي الذهاب والتثبت في الأمر عن كثب لأن الرائحة هناك أقوى وأعلق. المصب موجود من جهة البحر. ينبغي الذهاب إلى هناك وإزالة ما علق بالنفس من حقود وذلك على مرأى ومسمع من ساسة الخيل والحشاشين الذين لن يتمكنوا في المستقبل من الوصول إلى مؤخراتنا... كان لا بدَّ من الاستمرار في التذمر لكي لا يستولي عليَّ الخوف ولكي لا أفكر في ذلك الحمل الفظيع. لقد أيقظونا بعنف. وألبستنا النساء ثياباً قسراً وقد تصاعدت من أيديهن رائحة البصل المبشرة بطهي ألذ الأطعمة وبتقتيل البهائم. إن أعمامي لذواقون خبيرون بالأطعمة! كانت كاتبتهم من الفرنسيات. ينبغي الانتقام من واحدة منهن وتمزيقها وقذف نصيب من حامض الكبريت

على طابونها؛ وكان أعمامي مسلمين صادقين في ذلك. ترى كم من مرة أدوا فريضة الحج في مكة؟ (مكة مدينة اللصوص عشاق السرقة) قال أحد الأعمام: الناس بمكة مدمنون على إتيان المنكر ويطيب لهم أن تقطع أيديهم. يا للعار! أيسرق الإنسان في مدينة النبي! وكنا لا نصدق كلمة واحدة من ذلك، لا، إن الأعمام ليكذبون. إنهم قد طبعوا على الحذر وعدم الثقة فجعلهم ذلك لا يتمالكون عن اغتياب جميع الناس. وما قولكم في الذهب يا ترى؟ سؤال نلقيه عليهم فجأة وبدون سابق إنذار. فيسكتون عن الجواب. والبترول؟ وسيارات الكاديلاك؟ والبحر الأحمر؟ إنه مليء بالسمك الطيب الجميل. إن الأعمام ليكذبون. أنفضح أمرهم بين نسائهم، فنكشف عن علاقاتهم الجنسية مع كاتباتهم الفرنسيات. إنهن من النوع الباريسي. والفرق في هذا المضمار فرق هام جداً. وفي نهاية المطاف كان علينا أن نهاجم ساسة الخيل والنساء والأعمام وأن نمضي في ذلك إلى نهاية الخطة، إلى حد الجريمة. أوه! أن نقتل عشيقاتهم أمر فيه كفاية وأكثر فلو فعلنا لما استطاعوا العيش بعد ذلك. ولكن هذه الخطة تقتضي الفتك بعدد كبير من الناس. (لا ينبغي أن ننسى عشيق المعلمة الفرنسية).

وهذه السلة الملعونة إنها ثقيلة، ثقيلة. دعني أفكر. دعني استمر في التفكير بما أن التصفير متعب إلى هذا الحد الكبير. وهذا السائل: الدم الفاسد مزج بالماء وعفنه الهواء فأخذ يفقد شيئاً فشيئاً قوته ولونه. والفرن ما زال بعيداً. إن

يما الآن تهيئ ألواناً من الطعام اللذيذ للاحتفال بالعيد. وها هي ذي الشوارع مرة أخرى.. وعربات الترامفاي.. والشمس اللاذعة. ها هي المرتفعات المصعدة ينبغي صعودها. أن رؤية المتنزهين تتشنج لها أعصابي. إن ثيابهم الفاخرة جميلة. ألطخها بالوسخ فأهجم عليهم ثم أعتذر بعد أن تكون المصيبة قد نزلت. البقع الدهماء على الثياب البيضاء. والبقع على جدران فيلا زبيدة تلك الجدران الباهرة من شدة البياض. إن كل هذا الخليط من الأشياء والأفكار لا يطاق. لن يكون لنا من الشجاعة ما يكفي لتدمير جميع هؤلاء الكهول: الخوف والوجل. يجب الحذر من السيارات وتحاشي التهشم تحت عجلاتها ومعي أكرع الخرفان بالسلة يا له من أمر مضحك! فلو داستني سيارة لتدحرجت أكرع الخرفان على الأرض وسقطت في الساقية والتهمتها فتحات البالوعات! ولو حصل ذلك لذكروا في صلاة الجنازة أكرع تلك الحيوانات المسكينة ورؤوسها ولنسوا أني قد لقيت حتفي. وبعد ذلك بكثير سيتذكرون أمر موتي وسيصلون صلوات إضافية لا ترحماً على روحي (إذ ليس لي روح!) ولكن ترحماً على رأسي ورجلي وبيضتي وعيني الشبيهتين بحشرة الألق، وعانتي التي كان الشعر يأبى أن ينبت فيها رغم كل ما أبذله من جهود. أن تحذر السيارات من أعظم الفضائل! وأعظم منها أن تحذر عربات الترولييبس! أصوات أبواق السيارات. ينبغي ألا أوفر لهم فرصة الفرح بموتي. ولو فعلت لتجاسر الأعمام حتى على

القول بأني قد تركت السيارة ترفسني عمداً. إن اختراق المدينة العربية ليس بالأمر الهين فهناك الوقوف وهناك التردد والارتباك في المكان نفسه. ثم هناك أيضاً الحي اليهودي. هناك النساء لا يحملن الّحجاب؛ إنهن يعشقن السينغاليين منذ وقائع شهر ماي 1945. التسكع في لامبالاة وشراء الفطائر. والوقفة الأولى. إن هؤلاء اليهود ليحسنون صنع المرطبات! ما ألذها!... ولكن أطفالهم ليسوا ليني الجانب. أأنتحل لهجة الآنسة ليفي اليهودية أستاذة الموسيقى؟ ها هم يدنون مني ويتشممون رائحتي (اللّه! ما هذه الرائحة.؟). ثم الضيق. الحكم غامض غير واضح المعالم. إنهم لا يتجاسرون على الحكم عليَّ بوضوح. أهو المسجد؟ أم معبد اليهود! إنني مستعد لخيانة قبيلتي وجنسي مقابل أن ألعب معهم شوطاً بـ «البيس» فأنا بطل في تلك اللعبة. لقد أثارت السلة فضولهم وأنا أستحي أن أكشف لهم الحقيقة. فلأسكت إذن. إنهم يتظاهرون بعدم الاهتمام بما أحمل اهتماماً كبيراً. الأجسام عليلة. السعال والمخاط والأدران. و«البيريهات» والسراويل القصار. إني وأنا بدون «بيريه» لا أشبههم في شيء. فأنا أسمن منهم وهم هزلاء عجاف. ولكن أمهاتهم سمينات بدينات تعودن لوك «الشوينقوم» منذ مرور القوات الأميركية بحارة اليهود. وكان تشنّج الأعصاب. والذهاب إلى الفرن! والفطائر من جديد. ولعبة «البيس» كنت أتكلم منتحلاً لهجة الآنسة ليفي وربحت جميع الأشواط فنعتوني بالساحر ثم اكتشفوا أن يهوديتي

فيها شيء من الغرابة، فامتلكني الخوف وتلعثمت في الكلام وفضحتني لهجتي فلذت بالفرار، إنها الفاقة والخصاصة نفسها في الأحياء العربية التي من جهة الميناء لا من جهة حي «البيار» (حيث الفيلات والياسمين) أما هنا فالشوارع تبعث الدوار في الرأس. إن جمهرة الأطفال الذين قابلتهم منذ حين هم الآن يطاردونني ويصيحون: «مشلم! مشلم!» (خراء! خراء! زبي!) ينبغي الانصراف قبل أن يثيروا ثائرة حبر اليهود. الأحياء متداخلة الواحد في الآخر. والأشكال حادة قاطعة. والشمس. والذراري الصغار. أأجري وأركض؟ النساء سمينات يرتدين لباس السباحة ويعرضن أجسامهن للشمس في وسط الغبار. الكراسي الطويلة منصوبة أمام الأبواب الواسعة، منظر الآباط الشعراء يثير اندهاشي. يجب أن أسرع الخطو. إن الأطفال اليهود يغشون في اللعب، إنهم يريدون أن يفتكوا مني حتى «البيسات» التي هي ملكي. وهذه السلة ما أثقلها! لا بدَّ أن يكون الدم ينز الآن من خلال تبن السلة. ينبغي أن أحرص على عدم إثارة الكلاب اليهودية التي قد تأتي لنجدة أولئك الأشرار الذين ما زالوا يطاردونني. ينبغي الوصول إلى الحدود وإدراك النصب الفاصل بين الحيين وعندها أكون قد نجوت. إن الكهول في الظاهر لا تبدو عليهم علامات الاهتمام بي وكل شيء في ترجرج داخل هذه القفة الملعونة. ترى هل نجوت في النهاية؟ لقد سلبت مني جميع «بيساتي» ولكن لم يضع من قفتي كراع واحدة. يا لوقاحة

هذه القطط اليهودية: كيف تتجاسر على لحس هذا الدم المقدس! إنه تعلم العنصرية.

ها هي ذي المدينة الأوروبية. عدد النساء في تزايد مستمر. والشوارع نظيفة، منظمة، والمقاهي متألقة وهاجة والناس هيئتهم نقية واشحة يحملون كلهم جريدة مطوية تحت آباطهم (إنها علامة على النبل والامتياز) حتى البحر هنا يبدو أشد تلألؤاً. المارة ينظرون إليَّ نظرة غريبة. أما الكلاب فلا تبدو عليها أية علامة من علامات الاهتياج. لا بدَّ أن تكون متخومة طيعة وقد شدت إلى رباطها. إنها تبول هنا وهناك، وها هي سيدة تسدي وافر نصائحها إلى كلب من نوع «البلدوق» أغلب الظن إنه مصاب بالقبض. أما العرب فإنهم لا يبولون كلابهم على جذوع أشجار الشوارع وذلك لسبب هو أنهم لا يملكون كلاباً. أنا لا أحب الكلاب، ولكني كنت أخشى أن يشتبه أمري في نظر «الروامة» فكنت أتكلف إبداء علامات البهجة والافتتان ببول الكلاب. إن السيارات بهذا الحي أسرع منها بالأحياء الأخرى. يجب أن أسرع. هذا المكان هو الذي قتل فيه أحد المعمرين عمة مسنة لي بأن داسها بسيارته فهشمها تهشيماً. كانت طاعنة في السن، وكانت قادمة من مدينة قسنطينة: فاخترقت محطة أرتال «الآغا» ثم نهج «ميشلي» ثم شارع «التلملي» وهناك وقعت الكارثة. طاف! لم يبقَ منها شيء عندما جاءوا بجسمها الممزق إلى المنزل: كل ما في الأمر كدس من الأعضاء المتقاطرة دماً. كانت طاعنة في

السن وكاد بصرها يذهب، لكنها كانت قادرة على امتطاء القطار. وكنت أخاف منها لأنه لم يبقَ لها في فيها إلاَّ بقية سن واحدة كانت كلما غضبت تبرزها فوق شفتها العليا. فينبغي إذن ألا تدوسني سيارة أحد أبناء المعمرين! على أن أبي قد ربح القضية العدلية التي علقها بالمسؤول عن ذلك الحادث. فقد كان جميع القضاة الفرنسيون من أصدقاء أبي وذلك رغم أفكاره السياسية المتميزة الثابتة. إنه سيل من السيارات. وهذه السلة تزداد ثقلاً (ترى هل يعني ذلك أن ما فيها أخذ يتولد تولداً ذاتياً). أنا أستطيب فوق كل شيء أدب الكلاب، في هذا الحي. الدروج، والحدائق العمومية التي ضاق فضاؤها بلفحات ألف شمس وشمس. والعمارات المدهشة. والزخارف المعقدة. والكنائس الطلائعية الأشكال. والحمام. والسيدات من جديد. إياي والركض لأنهم كانوا يطلقون الرصاص بدون إنذار على العرب المشبوه في أمرهم وكان الوالد قد حدثنا بما فيه الكفاية عن وقائع مدينتي قالمة والسطيف. فقد أنذرنا ولهذا فإني حذر منتبه في حركاتي أشد الانتباه. ومن حين لآخر كنت أنتحل هيئة عدوانية وأقطب حاجبي وذلك لكي أشعر بالثقة والرسوخ، وأقف أمام واجهات المغازات الكبرى البلورية لأرى هل هيئتي مخيفة مريعة. لعلها كانت كذلك. . . لكن السلة كانت تفسد كل شيء. ولهذا ينبغي الانطلاق من جديد وعدم التوقف إلى أن أصل إلى الفرن. الظلام كثيف. واللهب في قعر المكان. ورائحة النشارة

الملتهبة، إنها لرائحة طيبة! وداخل المكان يقوم صاحب الفرن، وهو رجل بدين ضخم البطن أسود اللون أصله من منطقة السوف. كان عاري الجذع وله كرش تتعب الناظرين: ذلك أن الشخص لا يتمالك أن يغرق فيتيه في تلك المساحة المترامية من اللحم اللماع الأمرد المسترخي الممتلئ العسير تقديره المفرط في الإبهام. فمن المستحيل أن يغرق أحدهم في تأمل برغلة بشرته. وسرعان ما تسلم أمرك للَّه لشدة ذلك العمل وعسره. كان يحمل سروالاً غريباً وله عينان ضيقتان جداً ملتهبتان من جراء مرض التراكوما والدخان، وقد أحاطت بهما مادة هلامية مائلة إلى البياض تذكر على سبيل التقريب بالقيح أو باللعاب إذا جف في زوايا الشفتين عند من أفرط وأطال في الكلام. ويرى له عند ثني أعلى فخذيه ووسط بطنه وصدره بعض نتف من الشعر الأبيض تبدو كالمخالفة للمألوف وقد برزت على ذلك الجسم السمين اللزج على هيئة نبتات هزيلة مغروسة في أبنوس تلك البشرة المدبوغة المتشققة في بعض نواحيها (وعلى جنبيه برزت بقعة واضحة تكاد تكون لبنية اللون تولدت عن احتكاك ذراعيه بجسمه) ويظهر وجهه مجتمعاً حول سمتين رقيقتين ولكنهما متوقدتان هما عيناه المريضتان الوديعتان؛ إنها لطافة تلك السمات الرقيقة في تقابلها مع ذلك الجسم المشوه الصورة الغارق في العرق. الفرن. لا بدَّ من التعود على ضوء ذلك المكان لكي يتسنى لي اكتشاف الأشياء رويداً رويداً حتى إذا ما بلغ المكان نقطة معينة من

الجلاء صار كل شيء فجأة معادياً مشاكساً وقلب رأساً على عقب ذلك الفضاء الكثيف. وفي فوهة الفرن هناك يطقطق اللهب ذو اللون البرتقالي المشوب ببعض الشعيلات الخضراء والسوداء. وكان الفضاء الأسود يمتد في شكل منحدر طويل محصور بين لهيبين: لهيب الفرن على اليسار ولهيب الشمس على اليمين. وها هو «إبريق» الشاي لاصق بالكانون: فيه الشاي المنقوع وقد تشرب بعد رائحة الدم وشعر الحيوان المشيط في درجة من الحرارة مرتفعة جداً. وثمة القدر تطبخ فيها وجبة ذلك الرجل السوفي وقد ركزت على كدس من الجمر الموضوع مباشرة على أرض من التراب المدكوك كأنه قد غشي بطبقة من القطران. ترى أي الروائح ستتغلب على الروائح الأخرى؟ واحدة والحق يقال: فالمرء لا يشم رائحة الشاي ولا فوحان المرق إلاَّ عندما يلاحظ وجود إبريق الشاي والقدر، وإلاَّ فإنه لا يشم أية رائحة البتة. صاحبنا لم يهتم بي. هناك مقعد خشبي مستطيل مسند إلى الجدار الأسود بالسخام وقد جلس عليه رجل ناهز الأربعين. إني أعلم أنني أعرفه. إن وجهه لأليف عندي. لكنني لا أستطيع أن أتصوره خارجاً من داره التي لا بدَّ أن تكون مجاورة لدارنا ولا أن أحدد مكان عمله. ها أنا ذا أجلس بالقرب منه. فيدنو الأسود البدين مني ويأخذ زادي المذبوح وينصرف هناك في قعر جحره وأبقى أنا وحدي مع الحريف الآخر. فترة من الصمت. شعور بالضيق. ومن حين إلى آخر تبرز شعلة طويلة بعض

الطول على حافات إبريق الشاي فتخرجه من الخفاء وتكسبه لمعاناً ساطعاً كالبرق إلاً أنه عابر. كل هذا وصاحبنا الجالس بجانبي مستمر في الصمت. وبصورة خفية شعرت بيده وهي تلامس فخذيَّ العاريين. إحساس بالذهول. لم أدر ما أقول وهو يستمر في تجوال يده على ساقي ويتباطأ في ذلك أكثر فأكثر. كان مصوباً نظره إلى أمامه. ولا يتحرك منه إلاً يده التي كانت تتلمس تلمس الأعمى لحمي المسكين. دخلني خوف شديد. بيد أن الرجل لا تبدو عليه نية التحرك. صوبت نظري إلى جهته فإذا رأسه ثابت، وليس يتحرك منه إلاً يده تتيه مثل الأفعى العمياء على بشرتي العارية وقد أخذتها الرعشة. الملامسة اللزجة الندية. وانتابتني موجة من الهلع، وهنا أيضاً فإن الطفولة قد دمرت منذ لحظة وقد خانوها واغتصبوها فجأة والذنب ذنب ذلك الكهل الفظيع ولكن كان أخشى ما أخشاه أن يموت هناك على مقعده وذلك لأني كنت لا أفهم شيئاً عن حركاته ولا عن غاياته. أأهرب؟ (ولكن النساء كن في انتظار رؤوس الكباش حتى يكسرنها نصفين ويستخرجن منها الدماغ اللدن)، ها هو ذا الرجل قد برك بعد على ركبتيه عند رجلي وأخرج ذكره وكان من الضخامة إلى حد شعرت معه فجأة ببرد عظيم يستولي على أسناني وأرغمني على لمس ذكره. ورغم يبس ذلك العضو وصلابته فقد أخذت أفكر في مخ الخروف وقد أخرجته من الجمجمة بكثير من الحيطة أيدي النساء وقد أحمرت بدم لا يزال طرياً. الرجل

مغمض العينين يتوسل إليَّ بأن أداعب عضوه المتصلب. انتابتني فجأة رغبة لا تكبح في البول. يجب أن انصرف (متعللاً بقضاء حاجة أكيدة كأن أقول إن أمي مريضة جداً وإن عليَّ أن انطلق للتثبت إنْ لم تكن قد ماتت بعد...) ولكن قلبي كان يدق دقاً بلغ من العنف حداً جعلني أعجز عن فتح فمي للتكلم وأخشى من أن أتداعى مترنحاً فأخر بين أحضان ذلك الوحش الشبق المستمر في الغمغمة وقد أخذ يدخل في حالة أخرى غير طبيعية. فاندفعت وقفزت من خلال فضاء الباب المفتوح على الموقد وعلى النور المنبثق قفزة طفل يطارده عنف الكبار وتمزق نفسه تلك السخرية وذلك الهزء اللذان سيصدران عن زوجات الأعمام وعن الجارات، طفل قد نخر فؤاده ذلك الصمت الذي عليه أن يلزمه لكي لا يعكر يقينيات ذاك المجتمع المغلول في أوهام الطهر والعفة. ترى كيف يمكن أن أفضح أمر هذا الشخص اللئيم الذي شهده جميع الناس في صباح ذلك اليوم بالذات يفرك حبات مسبحته بين أصابعه ويضحي بخروفه؟ ليس من الصمت بد. إن زاهر هو وحده القادر على شرح قصة الفرن (زاهر الذي فاجأته أمي ذات يوم في هيئة مخزية مع صبي من صبيان الجيران. لم تستطع فهم ما رأته ولم تصدق عينها. يا له من مشهد شنيع مشهد ابنها الذي امتطى في أبهة ظهر الشقي الآخر وقد غشاه رعب خفيف وكشف عن وجه قذر ينم عن الفجور وطلب اللذة. لقد كانا مدفوعين معاً في عملية ذهاب وإياب وحشية فظيعة

كان جسماهما الممشوقان يترعرعان لها ترعرعاً وقد تأرجح رأساهما بحثاً عن تلك اللذة الشكلية في واقع الأمر التي لمحاها من خلال تبجحات الكبار واستشفاها عند النساء اللائي كن يهمن ثقيلات الخواصر والأوراك خلال المنزل كما لو شعرن فجأة باللذة التي يوفرها لهن ذلك الخليط من الشعر واللحم الحي الأحمر الرخو المبشر بعد بنشوة القعر. وكانت يما تنظر إليهما وهما يفعلان فعلتهما ولا تدري ما تقول وأما أنا فكنت وراءها يتنازعني الإغراق في الضحك المفرط والعنف وكانت أخواتي ورائي يعمنّ النظر في «سعيدة» وينتظرون منها تفسيراً ما تبرر به هذه المسخرة المضحكة العظيمة التي كان يأتيها هذان الغلامان القابعان هناك فوق السطيحة وقد بدا منهما رأسهما وأعلى جسميهما في حركة وتململ واعتداء متبادل وعنف مفجع. وكنا جميعاً مشدودين إلى ذلك المشهد الذي لا يصدق وقد وقفنا في تلك الغرفة الكبيرة ذات النوافذ العديدة المشرفة على السطيحة الزاخرة بالملاحف البيضاء وبالثياب المتعددة الألوان وقد أيبستها الشمس التي كانت تدخل فتعلق بكل قطرة من قطرات الألوان وفي كل ملمتر من ملمترات القماش الملفوح المتشقق تحت سعير السماء الدائم، تلك السماء الشبيهة بالعارضة الخشبية الزرقاء المعلقة فوق هذه الثياب المغسولة الجافة في الهواء الطلق. وكنت أنا مشدوداً ممزقاً بين الهزل والموت الحكيم البطيء وسط تلك الحرارة الرائقة الجامدة التي كانت تجعل اختلاجات الهواء

أشد جهراً وأكثر واقعية. كل ذلك وزاهر لم يتفطن إلينا! إذ ما زال مشدوداً إلى عشيته الذي لعله كان يحتج عن تباطؤ رفيقه زاخر الذي لم تمضِ إلاً فترة قليلة من الوقت منذ أن جرب للمرة الأولى ذلك الانفجار في طرف قضيبه الذي ليس بالذميم ولا بالمنقبض بل كان بكل بساطة مدهشاً في انغاظه الخسيس. أما يما فلم تكن قادرة على مناداة ابنها لعجزها عن تقديم تفسير شاف ضافٍ لمشهد التحام ذينك الجسمين اللذين لمحتهما في لحظة من الألم الشديد زاد من شدته عجزها عن التعبير عنه. وانتهى الأمر بيما إلى طردنا من الغرفة وأغلقت الباب بالمفتاح قائلة إنما الأمر لعبة عنيفة ليس إلاً. فزاهر إذن هو الوحيد الذي يقدر على تفسير ما حدث منذ حين في ظلام الفرن، فعليَّ إذن بالعثور على زاهر من جديد وإلاً فلا بدَّ من الهروب من المنزل بضعة أيام ريثما تنسى النساء رؤوس خرفانهن. لعل النجاة في الذهاب إلى جهة الميناء والنوم هناك بين صناديق البطيخ. وكان في ذلك أيضاً بداية تدهور الوضع وفساده.

ها أنا ذا أسير في قبضة العصابة الكبرى. فقد داهم غرفتي بعض أعضائها الأشد سرية وكان ذلك في حدود الساعة الثانية صباحاً. لم يكونوا يحملون أقنعة ولكن لم يكونوا يحملون كذلك بطاقة إيقاف. كانوا يضحكون من اندهاشي. ومع ذلك فإن الليلة كانت هادئة قبل قدومهم. بالأمس لم تصدر صحف الصباح وأذاع الراديو كامل اليوم أنغاماً من الموسيقى العسكرية ولم يكن في ذلك أي شيء مخالف للعادة. إلاّ أن «العصابة الكبرى» قد ظهر عليها منذ زمن قريب علائم واضحة تدل على ثورة الأعصاب. وانتشر الأعضاء في مسكني، في تلك الغرفة الصغيرة الحقيرة وأيقظوا عشيقتي الفرنسية. كانوا يحدقون فيها وهي ترتدي ثيابها وقد تصاعدت منهم الزفرات بسبب لحمها المخضل وأشكال جسدها البارزة. لقد فتشوا في كل مكان وهم يرمرمون غضباً من اضطرارهم إلى قراءة عناوين جميع الكتب المبعثرة في كامل الغرفة بما في ذلك «اللافابو» الذي كان غاصاً بها وتحت السرير حيث كانت الكتب قد

أكلت جذام التعفن التي ألقينا بها هناك في عجالة. وكانت الكتب قد أكلها جذام التعفن الناتج عن الرطوبة التي رسمت عليها بقعاً كبيرة خمرية اللون وقضمتهما الجرذان رغم أنها كانت قد أتخمت بسمك السردين وكانت تأتي من الميناء مباشرة وتدخل الغرفة من خلال الشباك قفزاً. وكانت تختفي تحت السرير لتخلو إلى تدمير جميع الكتب الموجودة هناك تدميراً محكماً لا لأنها كانت جائعة بل لإعلامي بوجودها الذي كنت لا أستطيع له دفعاً بل كنت استعمله أحياناً وسيلة تهديد ومساومة ناجعة ضد سيلين إذ كانت تخاف الجرذان خوفاً لا سيما عندما كانت تعثر على واحد منها عند استيقاظها وقد استلقى على ظهره عند رأسنا وأرجله مصوبة في الهواء وأذناه مكسوتان بالشعر، وقد تورم بطنه مثل بطون الأثرياء وتعفن جسمه فتحول إلى غشاء رمادي رخص ضارب إلى الخضرة وغرق شارباه في عينيه المتورمتين من جهة أطرافهما عند ملتقى الجفنين والأنف وقد بدت هيئته هادئة ساكنة. وكان مجموع ذلك المنظر يذكر بشيء من العجين قد أشبعوه خميراً فانتفخ في خصوبة عجيبة. وكانت كتلة ذلك الحيوان البيضاء في الأصل قد أخذت تكتسي بعد لون مح البيض أو اللون الأخضر.

لا بدَّ أن أعضاء العصابة الكبرى قد تلقوا أوامر صارمة وإلاَّ لما اضطروا إلى الزحف على بطونهم تحت السرير والتخبط بين أقذار الجرذان وبقايا المني الذي أفلت منذ زمن بعيد من أيري أو من فرج المرأة فجف وغشته غلالة

رقيقة من الشعر ومن تلك العجينة التي تتكون عند ثني الفخذ لدى سمان الناس زمن اشتداد الحر. لقد كنا لا نكاد نصدق ـ لما كانوا عليه من البدانة والسمن ـ قدرتهم على الانزلاق برشاقة تحت قطع الأثاث باحثين متلمسين تلمس الأعمى ذلك العدد النزر من الكتب التي أغفلوها حتى ذلك الحين، وكانت تنطلق من أفواههم صيحات ضعيفة من الاندهاش كلما أحسوا بشيء لزج غريب بين أيديهم، تلك الأيدي الماهرة أيما مهارة والتي دخل ذكرها في التاريخ قبل أن يطلق عليهم بوقت طويل ذلك اللقب الغريب الذي لا معنى له: لقب أعضاء العصابة السريين (أ.ع.ص). لقد رسخت ملكتهم منذ تحرير البلاد وذلك بفضل التتبعات التي لا تعرف رحمة ولا شفقة والتي كانوا ينظمونها ضد رفاق الأمس وقد أصبحوا في نظرهم مجرد صعاليك أفلتوا من قبضة الشرع المتجسد فيهم هم الأعضاء السريون، هؤلاء الأجراء في خدمة العصابة المستترة الخفية الاسم، عصابة باعة المجوهرات وكبار الملاكين العقاريين (ومنهم سي زبير). إنهم كانوا لا يحبون الكتب ولعل ذلك راجع إلى كونهم لا يحسنون قراءتها أو إلى أمر أبسط من ذلك هو أنه لم يعد لديهم متسع من الوقت لقراءتها الآن وقد ألقيت على عاتقهم مهمة ثقيلة هي تسيير شؤون دولة كان جميع مواطنيها على درجات متفاوتة من العناد والعصيان. (ترى هل جاؤوا ليروا ما بلغ إليه تصوّر أفكاري السياسية؟ ترى كانوا على علم بمدة إقامتي في مستشفى

الأمراض العقلية؟ وقد يكون ولوجهم غرفتي مرتبطاً كذلك بحادثين غير مألوفين هما عدم صدور الجرائد وبث الموسيقى العسكرية بالإذاعة. كنت أنظر فأرى أعينهم تترنح ووجوههم البشرة تزور إلى الطول أكثر فأكثر كلما تقدموا في عملية التفتيش. لقد ضجروا من ذلك الوضع وحقدوا عليَّ لامتلاكي ذلك العدد الكبير من الكتب التي اشتريتها لا لكي أطالعها بل لغاية تشويش راحتهم وإقضاض مضجعهم ولحملهم على تهجية عناوين حوشية خطيرة على أمن الدولة الداخلي والخارجي، مثلما كانوا يتهجون القرآن بالكتاب.

ولم تكن سيلين فريسة للضحك الذي لا قدرة للمرء على تمالكه بل كانت ممتقعة اللون تحاول أن تقرأ في عيني تفسيراً لتلك العملية التفتيشية التي لا طائل من ورائها. لقد كنا لا نغلق الباب بالمفتاح أبداً وذلك حتى عندما كنا نسافر سفراً طويلاً. لم يكن ذلك لثقتنا بالجيران، فقد كانوا كلهم عصبة ضدنا بل تقاعساً منا إذ لم تكن لي ولا لها القوة على التوجه إلى صانع الأقفال وقد كان دكانه بأسافل نهجنا بالضبط، ليركّب لنا قفلاً بباب الدخول. لقد كانت مرتاعة لأنها كانت تعرف مآل مثل تلك العمليات الواسعة النطاق والتي كانوا يقومون بها في جوف الليل بينما يكون الشعب نائماً نوم اللامبالي الشامخ غير مكترث بكل ما يصدر عن «العصابة الكبرى» سواء كان حقاً أو باطلاً. وكان بعض الأعضاء يعرفونني حق المعرفة لأنهم نازعوني في امتلاك بطانية الكاهن الأكبر عندما كنا في ذلك

المعسكر القائم على الحدود. ترى أي حدود هي؟ لا بد أنهم كانوا يعرفونها، ولكن سؤالهم عنها من شأنه أن يكلفني ما لا طاقة لي به: أن أتوجه إليهم فجأة بالخطاب مستعملاً لهجة الأليف لأليفه وأن أحدثهم بتلك اللغة العربية، البربرية، الفرنسية، الإسبانية المخلوطة التي كانوا يستطيبونها أكثر من كل شيء لأنهم كانوا يشعرون بأنهم يتقنون عدة لغات وأن لهم قدماً راسخة في اللغات العالمية. لو فعلت لكلفني ذلك ما لا أطيق لأنني قد قطعت صلتي بهم منذ زمن طويل وسلطت عليهم منذ ذلك الزمن جام احتقاري ذلك الاحتقار الذي لقننيه بصبر وثبات «الكاهن الأكبر» الذي مات الآن والذنب في موته ذنب نفس هؤلاء الأشخاص المتراصين في هذه الغرفة الضيقة يرفعون «الملاحف» الوسخة ويقهقهون لمشاهدة مناشف دم حيض سيلين ويفكون فانوس الكهرباء ليتحققوا من أني لا أخفي فيه بعض ما سأتوجه به إلى الشعب من فواتح الخطب ويفكون من فوق «اللافابو» لوالب المرآة الملطخة بوابل من بقع الصدأ ومن الحبوب السوداء والمكسوة هنا وهناك بشقوق خطية الشكل رقشاء كانت تدخل في نفوس الناظرين إلى وجوههم فيها الشعور المقلق المغم بأنهم مصابون بداء الجذام ويشهرون صوراً فوتوغرافية قديمة تمثّل شخص أمي، ومعلقة مكسوة غباراً تمثل رجلاً جميلاً جداً ذا لحية (ترى هل كان آخر عشيق من عشاق سيلين أم هل كانت صورة رجل قد أحدث رجة لا يستهان بها في منطقة

جزر الكارائب وكان اسمه يغيب عني كلما أردت أن أتحدث عنه؟) كانوا يتظاهرون بإرادة معرفة اسم صاحب اللحية ذاك قصد إهانتي وحملي على الاعتراف بأنه كان فعلاً عشيق امرأتي في السابق فيتمكنون بذلك من السخرية والتهكم طيلة دقائق عديدة وقد كهربهم انتصارهم السهل وهيج مشاعرهم الجنسية حضور تلك الأنثى التي أثقلها النعاس والوجل فأخذوا يكيلون عبارات التهكم اللاذع بشأن فساد سيرتي (قائلين): «هكذا إذن! فصاحبنا يعيش مع هذه السيدة» (ولا ينفكون يرددون): «لا بدَّ أنها محبوسة هنا رغم أنفها» كانوا يتهكمون من ملاحفي القذرة وقلة اعتنائي بكتبي الجميلة (على حد تعبيرهم الساخر)، تلك الكتب التي أصبحت كدساً ذا بثور، كان من اللازم عليَّ أن أكشط عنه الأوساخ بحيطة عظيمة. كانوا مستمرين في التأمل في كل شيء باحثين بلا ريب عن علب المتفجرات التي قد أكون أخفيتها فوق «اللافابو» أو فوق دفاقة ماء المرحاض التي كانت معطلة عن العمل عند نزولي بذلك المكان، نابشين بأصابعهم الجارورات ومنتزعين منها أقلاماً ذات كرة حبرية قد جفت منذ عقود وبعض أعواد قديمة من أحمر الشفاء ومنتفاً لنتف الشعر (مقهقهين بملء حلوقهم قائلين: (ما هذا؟) وأقلام حبر قد انفلقت فسال منها لعاب حبر تلطخت به أصابعهم السمينة (لقد سمنوا بسرعة في ظرف بضع سنوات من العيش الرغيد ومن المرتبات الأعجوبية) واكتشفوا دواويني الشعرية التي كانوا عاجزين عن فهم

عناوينها فاغتنموا تلك الفرصة لحمل صديقتي على الكلام فحاولت أن تفسر لهم لفظة «لحم القنص». كانوا على حذر عظيم من تلك العبارة وقد ظنوها من الألفاظ التخريبية. ولكن سيلين عدلت عن محاولتها تلك بعد بضع لحظات لا بسبب نفاذ صبر متولد عن يأسها، ولكن لارتياعها من ضحالة فكر «الأعضاء» الذين قد ذاع صيتهم في أوساط الشعب بسبب جهلهم المطبق ووحشية الطرق التي يستعملونها والتي ورثوها عن السلطة الاستعمارية القديمة كما ورثوا عنها في الوقت نفسه مجموعة من الآلات والأدوات العجيبة كانوا يقفون تجاهنا مفتونين على أنهم كانوا قادرين على أن يشقوا عصا الطاعة في وجه السلطة إن هي لم تعين لهم ضحية يظهرون بها مهارتهم في العمل وفاعلية آلاتهم. لقد كانوا سرعان ما نسوا أيمانهم القديمة التي أصبحت اليوم عتيقة إذ كانوا يقسمون بأن يحترموا أولئك الرجال الذين قد وهنت قواهم بعد تلك المسيرة الكبرى التي ساروها خلال الجبال والشعاب وخلال رصاص الرشاشات وتدفق النار والحديد في اللحم الحي. كانوا يعبثون بنبتة هزيلة كان المكتري السابق للغرفة قد تركها هناك فيتشممون رائحة ما حول أوراقها النحيلة مثل الذئاب الجائعة ويحسبون أنهم سيكتشفون في تلك النبتة المبتذلة البسيطة التي كنت لا أعرف حتى اسمها، خشخاشاً أو كيفاً أو أي نوع آخر من النباتات المخدرة وذلك لكي يقيموا الدليل بشكل أوضح على انحطاطي الأخلاقي

المقترن بانحطاطي السياسي. لقد كانوا يملكون الحجة على أني قد دبرت مؤامرة ضد أولئك الذين قد منعوا في صباح ذلك اليوم بالضبط الجرائد عن الصدور والإذاعة عن بث الموشحات الأندلسية مثل عادتها وعوضوا ذلك بتلك الموسيقى العسكرية المصمة للآذان. إنهم الآن وقد نزلوا عندي صاروا لا يبدون أية عجلة في الانصراف! كانوا لا يتكلمون إلاَّ نادراً ولا يوجهون خطابهم لي أنا البتة بل كانوا يتوجهون به دائماً إلى عشيقتي وكنت أكتشف في ذلك من جديد طرقهم في السلوك فأعرفها لأني كنت قد سمعتهم في سالف الزمن يمدحون تقنياتهم عندما كنت ألتقي بهم من حين إلى آخر فيقبلون أن يقصوا عليَّ حياتهم، حياة الأعوان السريين في خدمة الثورة الكبرى يقاومون بلا هوادة الجواسيس الأجانب المتكاثرين كالنمل بالمدينة إلاَّ أنهم كانوا يسكتون دائماً عن ذكر أهم نوع من أنواع نشاطهم المتمثل في تنظيم شبكة واسعة على كامل أطراف البلاد غايتها الوشاية لصالح أحد رجال العصابة الكبرى. ولم يكن ذلك الذي كان يبدو كأنه رئيسها إنما كان رجلاً آخر يعيش في ظله وينتظر حلول ساعته ليستولي على الحكم (لا ريب أنه قد فاز به منذ فترة وجيزة كما تدل على ذلك تلك الصحف التي صودرت بالمطابع وتلك الموسيقى العسكرية التي كان يتخللها من حين لآخر صوت الزعيم الجديد يتمتم جملاً جعلها جهاز ترنزستوري المصاب بشبه بحة والذي كان يرسل الكلام إرسالاً متقطعاً تتخلله فترات صمت،

جعلها تكاد لا تسمع مما أكسب خطاب الزعيم ـ ولا بد أنه كان خطاباً قاطعاً صارماً ـ صبغة من الفكاهة السخيفة كما لو كان ضرباً من عمليات ابتلاع الطعام العسيرة). لقد كان ذلك أسلوبهم فكانوا يتركونني أشيد في ذهني جميع الخطط ليتسنى لهم الانقضاض عليَّ أفضل انقضاض ولمباغتتي ولكي لا يتركوا لي أي منفذ للنجاة. لم أكن في نظرهم مجرد خائن. لقد كانوا لا يدركون تمام الإدراك نوعية انتمائي السياسي ولكنهم كانوا مستمرين على ملازمة الصمت التام بخصوص الأسباب التي دفعت بهم إليَّ. كانوا أحياناً ينقطعون عن عملية التفتيش ويجلسون على حافة السرير لتدخين سيجارة ولتجاذب أطراف الحديث فيما بينهم بهدوء ووداعة حول مواضيع تافهة كنا أنا وسيلين لا نفهم منها شيئاً: كان حديثهم يتعلق بحوادث وأشخاص كنا نجهل عنهم كل شيء ولعل جميعها وهمية مختلقة ليس الغاية منها إلاَّ تخليط الأمور علينا وجعل وضعنا أعسر وأكثر لامعقولية مما كان عليه في الحقيقة لأن كل شيء في الأصل قد اكتسى مسحة من الفكاهة والسخافة. وكنا، أنا وسيلين، نشعر بضرب من الرغبة في الضحك يتسرب إلى نفسينا بينما كانوا هم مستمرين في النظر إلينا بوقاحة بل بعدم حياء. ولو ضحكنا لانبثق ضحكنا موجات عظيمة ضخمة متقطعة فهز مربعات زجاج نافذة غرفتنا الصغيرة هزاً وفاجأ الأعضاء السريين نائلاً من كرامتهم وقد طعنت بذلك التدفق المباغت من اللجج الجنونية المنطلقة كالصاروخ من

حلق سيلين ثم من حلقي وقد فتتهما الانتظار وتلك المهزلة الصامتة الناعمة. وفجأة فقدوا رشدهم وجن جنونهم فسلوا مسدساتهم من نوع «الكولت» من أغمادها وصوبوا فوهاتها نحونا وصاح رجل منهم يظهر عليه أنه رئيسهم: «يا أوباش! يا أوغاد» بيد أنه في الواقع لم يضحك منا أحد، حتى سيلين لم تفعل مع أنها كانت مستعدة للقيام بأي شيء لوضع حد لذلك الموقف. لا لم يضحك منا أحد. فهل أخرجوا مسدساتهم من أغمادها حقاً؟ أجل! لقد كنت متيقناً من ذلك لأنهم كانوا يحملونها في أيديهم منذ أن وصلوا إلى الغرفة. وكانت تلك الأسلحة دقيقة الحجم. نسيت أنها قد تصير شديدة الخطر (ذلك أنني تعودت على رؤيتهم وهم يحملون الأسلحة الثقيلة على أكتافهم في الزمن الغابر أثناء المسيرات المرهقة).

وحوالى الساعة الرابعة صباحاً دخلهم هلع شديد فأمروني بارتداء ثيابي وحملوني في سيارة تاركين سيلين وحيدة وقد أخذ منها القلق واليأس شر مأخذ وسط أكداس الكتب والثياب التي ألقوا بها بدون نظام مباشرة على أرض الغرفة المغبرة إذ كانت لا قدرة لها على أن تفهم كيف يمكن أن يقع إيقاف إنسان بسبب «بطانية» كانت إذ ذاك ممزقة تمزيقاً ولم تعد تصلح لأي إنسان حتى لذلك الكاهن الأكبر (الذي دفنوه مرتدياً قميصاً بنفسجي اللون وسروالاً بالياً من نوع «البلودجين» في طرف غابة لم يعد في استطاعة أي إنسان أن يعين مكانها اليوم ولا حتى أولئك

الذين دفنوه ولعلهم كانوا يشعرون بشيء من الضيق لشدة ما أسرعوا في دفنه في ذلك اليوم الممطر البارد ولعلهم كانوا متعجلين لسرقة نظارته الشمسية وكانت لا قيمة لها تذكر ولكنها كانت تفتنهم بسبب ذلك البريق الأعجوبي الذي يعكس على العينين ألواناً باهرة فتاكة ـ قوامها ضوء الشمس وبقع الظل المتراكمة ـ تكسب الوجوه والأشياء المجاورة مسحة جنونية لاواقعية. إنهم لم يغفروا له قط حمله إياهم على تغضين أعينهم كلما حاولوا النظر إليه في وجهه وكان هو يجد شيئاً من التسلية في حيلته الماهرة وفي ما كان يبدو عليهم من اضطراب. وكان مستعداً دائماً إلى الضحك من ذلك ليس معنا نحن أصحابه فقط ولكن معهم أيضاً، وكانوا يتمتمون عبارات الاحتجاج وعدم الرضا خلسة وينطوون على أنفسهم وقد فهموا حق الفهم أنه كان يتهكم من عاداتهم التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم. فاستعدوا منذ ذلك الوقت للاقتصاص منه وإخماد صوته إلى الأبد. وكان في نظرهم ينتهك حرمة جميع المقدسات بينما كان هو يجلس على عقبي قدميه على غرار ما يفعل القردة أو الكهنة ـ وقد لقب بلقب «الكاهن» بسبب تلك الجلسة المفضلة عنده ـ ويمضي وقته كلما حط رحله في تفسير نظرياته التي كانت على درجات متفاوتة من العسر للفلاحين، وكانوا هم يفهمونه ويهزون رؤوسهم ويبصقون على الأرض علامة على الموافقة. أما أعضاء العصابة الكبرى المتسربون بين الفلاحين فكانوا لا ينبسون ببنت شفة).

وها هم الآن وقد خرجوا من غيرانهم ومخابئهم وتخلصوا من برانيسهم وتنكروا بالزي الأوروبي ووقوا أعينهم بنظّارات شديدة السواد (وإنما ذلك ضرب من التأنق ورثوه عن الكاهن الأكبر)؛ ها هم يتعاطون في ولع وشغف نشاطين اثنين: المتاجرة بالمجوهرات ومطاردة اللصوص وقطاع الطرق والخبثاء أمثالي الذين لا قدرة لهم على إتيان الأضرار والشر البتة ولكنهم يرفضون التواطؤ مع الأعضاء ويذكرونهم بجريمتهم التي اقترفوها على حافة تلك الغابة.

وها هم قد برزوا من سياراتهم ـ وقد كانوا بها فخورين أيما فخر ـ يهاجمون بابي وينقلون على صحيفة طويلة من الكاغذ عناوين كتبي ويراودون صديقتي على نفسها بمحضري ويجبرونني على ارتداء ثيابي والذهاب معهم داخل سيارتهم السريعة الصامتة وقد حز في نفوسهم قليلاً أنني لا أثني على قوة محركها (الألماني الصنع) فأخذوا في إطلاق أول تهديداتهم طالبين مني بإلحاح الاعتراف بذنوبي في الحال (وإلاَّ فإنهم سـ...)، كنت لا أسمع نهاية جملتهم تلك ولعل ذلكِ بسبب أن السائق كان في تلك الآونة بالضبط بصدد تبديل سرعة السيارة ولعل ذلك راجع أيضاً لكوني كنت خائفاً وأنني كنت لا أريد تصديق الواقع ولكن لهجتهم في كلامهم كانت لا تسمح بأي شك في نواياهم! وكنت أحاول أن أتصور من خلال الستائر الحالكة غير الشفافة المدينة وهي فارغة خاوية تماماً وقد استولى عليها الفجر، تلك المدينة التي لم أتمكن قط من تصورها

بدون مارتها وحافلات نقلها وشرطتها ومغازاتها وواجهاتها.
(يجب أن أعترف بذنوبي اعترافاً كاملاً شاملاً! وإلاّ فإنهم سـ...) وعبثاً كنت آسف على ترك نهاية تلك الجملة تفلت مني، كنت لا أستطيع استحضارها وأجتهد لذلك بدون جدوى بينما كانت السيارة متوجهة نحو المرتفعات.
واستمر الأعضاء في تهديدي ولكنني كنت ثابتاً في البحث بعنف اليائس عن الغاية من ذلك التهديد الأول والأساسي الذي هددوني به. وهكذا كنت انقطع في غباوة عن تتبع نسق أفكارهم فتفقد الألفاظ معناها وقوامها وتصبح لا مهددة ولا ساذجة وإنما غريبة مضحكة ملؤها العبث والمحال تبعث على الإغراق في الضحك ولكن كانت هناك نغمة أصواتهم. كانت لا جافة ولا عدوانية بل بطيئة رصينة، أي مريعة! لم تكن واضحة قاطعة كما يتوقع المرء أن تكون عليه في مثل تلك الحال وإنما كانت مفخمة مطنبة وبها شيء من التكلف والتفصح.

ولكن جميع ذلك لم يعني على استحضار ذلك الجزء من تلك الجملة الملعونة التي نطق بها «العضو» الجالس على يميني والتي لا ريب أن سر تلك العملية موجود فيها ـ ولم أكن أنا الوحيد ضحية لتلك العملية لأن سيلين قد بقيت فريدة بالغرفة، ولأن أمي بانقطاع أخباري عنها ستستشير «سي زبير» الذي من شأنه أن يسعد حين يعلم أني في قبضة أصحابه فلا يحرك ساكناً في سبيل التدخل لفائدتي لكي يطلقوا سراحي مع أنه كان عضواً من ذوي النفوذ

والمكانة من «أعضاء العصابة الكبرى». ومن المؤكد أنني لن أهتدي إلى استحضار تلك الكلمة. لقد كنت أحاول أن أكرر سراً بداية تلك الجملة عساني أهتدي إلى اكتشاف نهايتها بمفعول ضرب من الإلهام المباغت الذي لا يفهم له سر كما كان يقع لي ذلك عندما كانت تغيب عن ذهني لفظة من بيت شعري. فكنت أهتدي بإنشاد أوله إلى استحضاره كاملاً (اعترافات كاملة! وإلاّ فإنهم ســ... ســ... بي).

كان لا بدَّ من تكرير هذا الجزء من الجملة عشرات المرات قبل أن ينفجر في نفسي ضميري مثل الثمرة الناضجة فوق الغاية. ذلك الفوران اللفظي الذي من شأنه أن يغرقني فجأة إلى درجة السيلان فيخرج لا من رأسي فقط بل ومن جميع أطرافي وجميع أعضائي ويسيل في فمي مثل طعم الحديد ويستنفذ صرعي تاركاً إياي في رحمة هؤلاء الأوغاد الأوباش حماة تلك الامبراطوريات الحديثة الناسين للأزمان الماضية ولتنبؤات «الكاهن الأكبر».

ترى كم دام الاستنطاق؟ بضع ساعات أم بضعة أسابيع... لم يعد لي أي شعور بحقيقة الوقت لأنني كنت أثناء إقامتي بتلك الفيلا معصوب العينين على الدوام إلاّ عندما كانوا يستنطقونني في تلك الغرفة الكبيرة اللماعة المطلية بالميناء والتي أناروها بالضوء الساطع والتي ليس فيها أية نافذة. لم يكن هناك إلاّ مقعد من معدن أبيض قد احتل وحده وسط الغرفة الكبيرة فكان الفضاء يكتسب أبعاداً مخيفة مقلقة بسبب ذلك المقعد الضائع في تلك المساحة

الشاسعة اللاواقعية لشدة بياضها ونقاوتها لا سيما أنه لم يكن هناك في تلك الغرفة رغم صراخي وعويلي أدنى صدى لخلوها من كل شيء ولترامي أطرافها. لقد كنت أخشى ما أخشاه ذلك المكان المعقم الذي لا رائحة له ولا لون. لقد علمت مما قرأته من شهادات من غرف التعذيب أن تلك المحلات ضيقة رطبة قذرة بأرضها الخشبية المكسوة قيئاً قد تراكم طبقات متفاوتة السمك وذلك حسب كون المستنطق قد طعم قبيل إيقافه بالضبط أو أنه كان لا يزال على الطوى. وكنت أعرف أن المرة الخضراء كانت تحيل غرف التعذيب إلى ميدان حقيقي من ميادين التزحلق يتهشم عليها جسم المعذب تهشيماً. ولكن لم يكن هناك أي شيء من هذا القبيل في تلك الفيلا. فلا أثر للألم ولا علامة تسمح باكتشاف مرور إنسان ولا رائحة عرق كذلك. لا شيء في الواقع! ولم يكن ذلك يجعل الوضع إلاً أشد هولاً وأقل إنسانية! لا شيء سوى هذا البياض المعمي وهذا الصمت الرهيب كلما ساقوني إلى مكان الاستنطاق. ماذا يريدون مني؟ إنهم بدون شك يؤاخذونني على صداقتي القديمة للكاهن الأكبر وكذلك على قذارة مسكني المنفرة وعلى معاشرتي في الحرام أجنبية كافرة. كان لهم عليَّ مآخذ أخرى كثيرة عديدة قد جمعوها في ملف ضخم كانوا يتلون عليَّ منه في بداية كل حصة استنطاق صفحات مدهشة: لقد كانت حياتي كلها منذ الاستقلال مسجلة فيها بأقل جزئياتها. وأغرب ما في ذلك هو التقييد الدقيق لأعمالي

وحركاتي وسكناتي وهذياناتي. إنهم يعرفون عني كل شيء، فلم كانوا إذن يريدون مني اعترافات كاملة؟ كانوا يلحون عليَّ في السؤال بالخصوص لمعرفة شيئين اثنين: ما الذي حملني على الذهاب إلى بائع الجرائد عدة مرات لأطلب منه الجريدة في تلك الصبيحة المشهودة بينما قيل ليَّ بالتحديد مراراً وتكراراً إن الجريدة لم تصدر وإنه لا فائدة في الإلحاح ثم ما السبب الذي حملني على تكسير مذياعي عمداً في ذلك اليوم بالضبط الذي بثوا فيه بدون انقطاع النشيد الوطني والموسيقى العسكرية. وعبثاً قلت لهم وكررت إن كل ذلك راجع إلى محض الصدفة فإن معذبيّ لم يقبلوا سماع أي شيء ومضوا يجتهدون في إلقاء الأسئلة نفسها عليّ. اعترفت أنه لئن كان مذياعي مصاباً بعطب منذ عدة أشهر فإن حاله لم تكن أسوأ مما كانت عليه في ذلك اليوم المشهود. ولكنهم لم يريدوا تصديقي في هذه النقطة أيضاً. وأما عن الجريدة فقد أجبتهم بأن من عاداتي السيئة التي بليت بها أن أبدأ اليوم بمطالعة صحف الصباح ولهذا فقد ضقت ذرعاً بعدم الحصول على جريدتي اليومية فحملني ذلك إلى النزول إلى بائع الجرائد عدة مرات وذلك حتى أتأكد من حقيقة الأمر (ترى هل كان بائع الجرائد المذكور هو نفسه الذي وشى بي إلى الشرطة؟ أكان عوناً في خدمة «العصابة»!! تنكر في هيئة بائع جرائد لاحكام مغالطة حرفائه أكثر؟ الواقع أنه كان يبعث في نفسي الارتياب وعدم الثقة بسبب شاربه الذي بدا لي أشد شقرة من شعره)

واستغربت للأمر التالي: لم يكلمني أحد منهم إلى ذلك الوقت عن «البطانية». وكانت جميع الأسئلة تبدو لي مجرد صرف للانتباه قصد التضليل ليس إلاً عمد إليه «الأعضاء» الواثقون في جدوى طريقة عملهم ثقة عمياء. كانوا يريدون معرفة كل شيء مني وكنت أرهق نفسي في الإجابة عن أسئلتهم فأمدهم بجميع الجزئيات والتفاصيل الضرورية الأمر الذي كان له فضل إثارة أعصابهم إلى حد لا يطاق؛ لقد اخترت أن أجيبهم بسرعة كبيرة بلفظة أو جملة وجيزة بل وحتى بإشارة وعندئذ كان حذرهم يزداد وأصبح لا أدري ما أصنع ويضيع رشدي وقد أذعرتني صرخاتهم والعبارات البذيئة التي كانوا يمطرونني بها دفقات بصوت أجش صائحين في انسجام بتهديداتهم في وجهي. وكنت وأنا خائر القوى مسترخياً على ذلك الكرسي اليابس غير المريح وقد حطم الأرق والجوع نفسي تحطيماً وأعمت ناظري قسوة تلك الأضواء وبياضها اللذين ليس فيهما رحمة ولا شفقة. كنت أحاول تهدئتهم وأتوسل إليهم بتوقيف تلك الحصة واعترف لهم بكل ما يطلبونه مني وأفعل المستحيل لكني لا أعاكسهم. ولكن كان يتفق لي أحياناً ألاَّ أفهم أسئلتهم، وعبثاً كانوا يصرخون بأعلى أصواتهم في أذني (ظناً منهم بأني قد أكون ضعيف السمع) فكنت إذ ذاك لا أهتدي إلى الإدلاء بأدنى جواب. وكنت أحياناً أجيب عن أسئلة لم أفهمها ولكن ذلك لم يكن كافياً لتهدئة روعهم بل كانوا يظنون أنني أحاول أن أسخر منهم أو أن أخلط عليهم

الأمور باستعمال لغتي المعقدة. وكانوا كلما أردت توضيح موقفي من بعض الأمور أمروني بالسكوت واستأنفوا إنطلاقاً من البداية دائماً تحقيقهم التعسفي الذي لا مرد له:

ـ كم سنك؟

ـ خمس وعشرون سنة.

ـ اسمك؟

ـ رشيد.

ـ قامتك؟

ـ لا إحد يعرف بالضبط والناس مختلفون في تحديد قامتي، فالأمر بيد من يقيس.

ـ كف عن شروحك وتفسيراتك الغبية واستقم في جلستك على كرسيك استقامة تامة. قامتك؟

ـ بين متر و68 ومتر و70.

ـ قامتك بكل دقة؟

ـ لا علم لي بذلك بتاتاً.

ـ حدثنا عن غرفتك؟

ـ ماذا تعنون؟

ـ صف!

ـ لقد زرتموها.

ـ إنه أمر!

ـ طيب، هي غرفة طولها ثلاثة أمتار وعرضها مثل ذلك! جدرانها بيضاء ولكنها تتناثر قشوراً بسبب الرطوبة في فصل الشتاء وبسبب الشمس في فصل الصيف...

ـ لا تسهب وكن دقيقاً في كلامك. كم بها من نافذة؟

ـ لها نافذة واحدة. لقد قلت ذلك من قبل.

ـ صف هذه النافذة!

ـ ولكن...

ـ لا تضيّع الوقت فإن أنفاسك معدودة..

ـ النافذة مستطيلة الشكل وبها ستة مربعات من البلور تكسر منها عدد كبير فوضعنا عليها قطعاً من الورق المقوى ولصقناها باستعمال شرائط «السكوتش» تحاشياً لحدوث مجاري الهواء ولتعويض الزجاج الذي وعدنا صاحب الدار باقتنائه ولم يفِ بوعده قط رغم ما قمنا به من مساع لديه. ومع ذلك فقد جاء في نص العقد أن عليه إصلاح زجاج النوافذ ودفاقة ماء المرحاض المعطلة عن العمل.

ـ واصل!

ـ لم يبقَ لدي ما أقوله.

ـ كلا! لقد أغفلت عدة أمور.

ـ وأي أمور؟

ـ من البلاهة أن تعتقد أننا سنذكرها لك. فليس ذلك من مشمولات عملنا. من تظننا؟ صف غرفتك والنافذة؟

ـ لعل من الممكن أن أضيف على ما قلت أن معجون صمغ المصطكاء لجميع المربعات البلورية الأخرى آخذ الآن في التفتت وأن قطعاً كبيرة منه تتساقط في الشارع عندما تكون النافذة مفتوحة وداخل الغرفة حين تكون موصدة ونتج عن ذلك أن فسدت علاقاتي مع جميع الناس

أي مع سيلين التي لا تحب كنس البقايا ومع صيادي السمك الذين لا يستطيبون وقوعها على سردينهم.

ـ لماذا؟

ـ بسبب حرفائهم لأنهم يحتجون عليهم وينقطعون عن شراء السمك من عندهم إذ السردين ليس بالشيء النادر في الصيف بالمدينة وأخيراً فإن ذلك لا يخدم مصلحة الباعة فيأخذون في التذمر من الكساد ومن الأزمة.

ـ أي أزمة؟

ـ هم الذين يستعملون هذه الألفاظ. وأظن الأمر يتعلق بكساد السوق ليس إلاَّ. فهم لا يتعاطون السياسية.

ـ لماذا تدافع عنهم؟

ـ ترى ما العلاقة بين السؤال وبين النافذة؟

ـ صحيح! واصل وصفها.

ـ يمكن أن أضيف إنها كائنة في اتجاه الشرق وإن ذلك يقلقنا كثيراً إذ تلفحنا الشمس بنارها منذ الصباح فتمنعنا من النوم.

ـ أنت تكذب فجميع تقاريرنا تؤكد بأنك كثير النوم.

ـ لعلي أتظاهر بالنوم لإسكات سيلين.

ـ لا تمزح فأنفاسك معدودة. هل لديك ما تضيف بشأن النافذة؟

ـ لا...

ـ صف سريرك.

ـ هو من حديد مطروق وفيه تمثال صغير دميم جداً يمثل وليداً يقبّل صليباً.

ـ لم هذا الصليب في غرفتك؟

ـ لا بد أن ذلك راجع إلى من سبقني من المكترين... فهمتم؟...

ـ لم نفهم شيئاً قطعاً.

ـ أعني أن دينهم ليس ديننا.

ـ حسناً جداً واصل!

ـ أواصل وصف السرير أم النافذة؟

ـ وصف السرير طبعاً.

ـ إطار السرير من خشب كثير الشقوق وكثير الثقب وذلك من فعل البق الذي أحدث فيه بقعاً عريضة رمادية اللون وعلى إحدى خشباته كتبت عبارة مخطوطة بحروف سوداء: «مصنوع بفرنسا» وفي ذلك دليل على أن هذا السرير قد صنع من خشب صناديق التغليف القديمة. على أن صاحب الدار كان ينكر هذا الأمر البديهي لكنه لم يصعد إلى الغرفة حتى يتثبت من صحة إتهاماتي، وقد كان مصاباً بداء الربوة. فلم ألح عليه في السؤال حتى أجنبه تجشم صعود عدة طوابق.

ـ واصل.

ـ إن الحشية جديدة وهي هدية من صديقتي.

ـ هل تعرف أن الدين يحرم الاقتران الحر غير الشرعي بالنساء.

ـ لا... أعني نعم ولكن القضية ليست واضحة كثيراً في نظري.

ـ لماذا تعيش مع أجنبية؟

ـ هي التي أرادت ذلك. بل قد رجعت إليَّ واستهوتني من جديد بعد إقامتي بمستشفى الأمراض العقلية. لقد كنت أظن أن عشرتنا ستنتهي عند ذلك الحد وأنها ستخاف وقوعي في نكسة محتملة ولكن عندما خرجت من المصحة ألحت عليَّ وطلبت مني أن أجيء وأعيش معها في منزلها.

ـ وما شأن السرير في كل هذه الأمور؟

ـ لكن أنتم الذين...

ـ واصل وصفك للسرير وصفاً دقيقاً.

ـ إطاره حديدي جديد.

ـ لقد قلت لنا ذلك لا تكرر فأنفاسك معدودة.

ـ هناك ملحفتان لم أعد أدري ما لونهما.

ـ لماذا. أقصد أصبحت تتعمد الغموض والإبهام.

ـ لا.

ـ شاذ. مضحك.

ـ نعم.

ـ آ! فأنت أيضاً ترى أنك شاذ ومضحك!

ـ هناك أيضاً مسند ليس بالغليظ كثيراً كنت أطويه على نفسه. لأن سيلين لا تحتاج إليه إذ تفضل النوم بدون مخدة حتى لا تشخر لأن نومي خفيف.

ـ تحاش الاستطراد وأبق في الموضوع.

ـ موافق.

ـ ليس لك أن توافق أو أن ترفض فأنت محكوم عليك بالإعدام.

ـ كيف؟

ـ واصل.

ـ هناك أيضاً بطانية.

ـ حدثنا عن هذه البطانية.

ـ من بطانية الكاهن الأكبر. وأنتم تعرفون حق المعرفة أنها في حوزتي الآن.

ـ لقد سرقتها في المعسكر.

ـ لا وإنما أورثنيها الميت.

ـ لأن «الكاهن الأكبر» قد دفن بمشهد مني.

ـ وماذا صنعت بهذه البطانية؟

ـ ما زالت موجودة بالغرفة.

ـ لم نعثر عليها.

ـ ومع ذلك فهي موجودة هناك ولكنها أصبحت لا يهتدى إليها إذ لم يبقَ منها إلاً شريط ضيق صار لا يصلح لتغطية أي شيء.

ـ تلك قصة طويلة.

ـ قصها.

ـ وما الفائدة من ذلك إذ لن تصدقوني.

ـ قصها. فهو أمر.

ـ سيلين هي التي مزقتها.

ـ أشرح لماذا فعلت ذلك.

ـ أصبحت لا أعرف من ذلك شيئاً.

وبعد ذلك كانوا يرجعونني... وكانوا لا يسألونني عن

شيء آخر سوى أن أصف غرفتي والنافذة والسرير وبضع أدوات ثانوية أخرى كنت لا أرى لها أهمية البتة وذلك قبل أن يصلوا بي إلى وصف تلك البطانية المشهودة وإذ ذاك كانوا يطردونني على الفور مخفوراً برجلين كانا يعصبان عيني ويصاحبانني إلى زنزانتي من خلال متاهة من الأروقة لا نهاية لها، ومن الدرج المرعب الذي كنت أتكهن بشكله الحلزوني وبحاجزه المصنوع من المعدن الصدئ، أعلم ذلك بسبب رائحة الصدأ التي كانت تبقى عالقة بيدي فترة طويلة من الزمن فيما بعد. وكان تنتابني موجة من القلق حين كنت أصعد درجات السلم وذلك لأنني كنت أخاف من أن تزل قدمي فأتدحرج إلى الأسافل. وكان الوقت يبدو لي على غاية من الطول فكنت أنهك قواي في محاولة عد الدرجات ولكنني كنت أغلط كل مرة في عدها فكان ذلك يزيد في حدة حقدي على «العصابة»، ولكن ذلك الحقد لم يكن يدوم طويلاً إذ كان الخوف يبعث الفتور في نفسي فكنت أعدل عن كل تفكير في المقاومة وأسلم أمري إلى أهواء استنطاقاتي ومشيئة سجاني الذين كانوا صامتين وكأن على رؤوسهم الطير حتى ليخيل إليَّ أنني كنت بأحد المستشفيات التي فرض فيها الصمت طلباً لراحة المرضى، لا بأحد السجون. وكانت مقابلتي اليومية مع الأعضاء السريين تحطم في نفسي كل طاقة وكل بادرة عزم وتتركني فريسة لأشد اليأس لأنني كنت عليه بالضبط. وكانوا يستمرون في إلقاء الأسئلة نفسها التي لا معنى لها مكررين

إياها كل يوم حسب التركيب نفسه المحكم المضبوط الذي لا يتغيّر ولا يتنوع أبداً رغم جميع المحاولات التي قمت بها لحمل معذبي على كشف نواياهم. فوصل بي الأمر بسبب ذلك إلى تمني التعذيب البدني مصحوباً بأسئلة هامة تتعلق بأفكاري السياسية وبمحاولاتي التمردية الفردية الفوضوية عوضاً عن هذه الأسئلة التي لا أساس لها ولا رأس بشأن ستائر غرفتي وزربيتي (والحال أنه لم يكن لي زربية قط) ومرحاضي ثم عن نافذتي، ثم عن نافذتي من جديد! وكنت إذا تركوني وحدي وانصرفوا، أحاول وسط ظلال عصابة عيني أن أستعيد سياق الحديث الذي قد يعينني على تفهم الوضع ولكن بدون جدوى! لم أكن أظفر بشيء بتاتاً. لقد كنت خائفاً من أن أموت في ظلمة مطبقي الندية بدون أن أرى مصدر الطلقة التي سأقتل بها، وبدون أن أتمكن من رؤية وجه ولا عيني من سيطلق عليَّ الرصاصة القاضية. كانت العصابة تعمي عيني شيئاً فشيئاً فكنت أتمنى أن لو أنزلوني إلى صحن السجن وأعدموني هناك رمياً بالرصاص في قلب الشمس على مرأى ومسمع من جميع الحراس وجميع الأعضاء. وكانت «الفيلا» مكتظة بحشد من الناس أوقفوهم بالصورة نفسها التي أوقفوني بها، ولكنني كنت معزولاً عنهم تماماً فكان من العبث أن أحاول الاتصال بأي كان. وكنت أعلم أن أعداء «العصابة» كثيرون وأن العصابة كانت تخاف كيدهم وذلك رغم ما كان يتظاهر به «الأعضاء السريون» من رباطة جأش أثناء الاستنطاق،

كنت متيقناً من وجود أمور أخرى تختفي وراء هذه المظاهر الخارجية والمواقف المصطنعة. وكنت قد فهمت تمام الفهم أن مستنطقي أنفسهم قد سئموا ذلك الوضع ولكنهم قد أمروا بمواصلة الاعتداء بالعنف عليَّ وقتاً طويلاً، وكنت أحاول في تلك الحالة الميؤس منها أن ألقن نفسي بعض معاني البطولة ولكن عبثاً كنت أحاول ذلك: فقد كان خوفي في ازدياد مطرد، وانقطع رجائي في النجاة من الموت المحتوم. فكنت أترصد أدنى صوت بالرواق (ولكن لا صوت يحدث البتة!) وأتحين أقل اختلاجة في الهواء (ولكن لا اختلاجة في الهواء تحدث البتة!) فكان ينتهي بي الأمر لشدة ما كنت أركز انتباهي على ذلك الصوت الضعيف الذي قد يطرق مسمعي، إلى أن تنتابني أوهام مريعة كنت أبقى بعدها بلا قوة ولا قدرة على النطق. وأما بقية وقتي فقد كنت أخصصها لانتظار الجلاد الذي سيضع حداً لحياتي بدون أن يوجه لي أي خطاب بل وبدون أن يهز رأسه لمشهد خوفي الذي يرقى له وتوسلاتي التي لا جدوى لها (بما أنه لن يفعل بذلك إلاَّ أن ينفذ الأوامر!) بل وحتى بدون أن يصافحني معبراً بذلك عن شيء من التضامن بل وبدون أن ينزع عني تلك العصبة التي كانت عيناي تلتهبان لها إلتهاباً؛ لا أفهم ما كانوا يريدون الوصول إليه ولا ما كانوا يؤاخذونني (بل لعله يقوم بعمله بلطف...) عيناي اللتان كادتا تصيران شيئاً فشيئاً رخوتين لزجتين مثل شراب السكر كما لو نقعتا في الدموع والقيح

(كانوا لا يسمحون لي بالاغتسال) وقد تغضن جفناهما بصورة نهائية فماتا قبل موتي التام الذي قرره الأعضاء. كان من المفروض أن أنتظر قدوم ذلك الرجل المكلف بإعدامي. وكلما كان الباب يفتح كنت أرفع يدي أمام وجهي في حركة غريزية كما لو كنت أريد أن أدفع عن نفسي بعض الاعتداءات الفظيعة. ولكن ذلك لم يكن يصلح حتى لإضحاك حراسي فقد كانوا ينتشلونني ببطء ويوقفونني على قدمي ثم يسوقونني أمامهم نحو غرفة التعذيب الملعونة، تلك الغرفة المعقمة التي تبعث على الدوار لشدة ما كانت فارغة وواسعة لا أثر فيها لأي نتوء ولا لأي شبح ظلمة، تلك الغرفة المدمرة، دمرتها تلك الأضواء الساطعة القاسية التي لا تبدو صادرة عن بعض النوارات الكهربائية المعلقة بالسقف بل تبدو كأنها قد طلي بها المحل كطبقة من الدهن الباهر الذي يخطف الأبصار. وبعد فترة زمنية كنت أشعر كما لو أن عيني كانتا في حالة غليان وسط محجريهما الغارقين في بعض السوائل المؤذية التي حقنهما بها الأعضاء بدون علم مني أثناء فترات نومي النادرة. وقد تسربت هذه الفكرة في نفسي المعذبة وبلغت منها مبلغاً جعلني أقرر الانقطاع عن النوم، مما زاد في إرهاق أعصابي وآلامي حتى أخذت في الهذيان، فحسبت تلك الفيلا مستشفى من مستشفيات الأمراض العقلية وظننت مستنطقي من أساطين الاختصاصيين في الأمراض العقلية كنت قد قرأت أسماءهم في بعض المجلات المختصة.

ترى كيف انتهى بي الأمر إلى الإفلات من قبضة العصابة؟ لم أتمكن من معرفة ذلك قط. وكانت سيلين تقول لي غايتها من ذلك بدون ريب أن تنسيني تلك القضية التعيسة أن الأمر لم يكن سوى ثمرة من ثمار مخيلتي الخصبة، يساعدها على ذلك إصابتي بمرض الشغف باصطناع الأوهام الجنوني ولكن عندما ألح عليها بالسؤال كانت لا تنكر وجود «العصابة» إلاً أنها كانت تجيبني بصوت تتكلف فيه الهدوء والصبر (كصوت إنسان عاقل يكلم مريضاً، ولكن ذلك الصوت كان في الواقع ذا نبرة عاتية جداً) بأنني أنزع إلى تهويل جميع الأمور، وفي الواقع كانت تجيب إجابة بعيدة عن سؤالي الذي كنت أردده في عناد وإصرار فأفقد كل رجاء في أن يحظى بجواب. ترى هل كنت قادراً على البقاء في تلك الحالة من الشك وعلى احتمال تدخل العصابة (الوهمي أو الحقيقي) في غرفتي ثم في حياتي؟ وكنت أعود فأشك في سيلين من جديد واتهمتها بالتواطؤ مع «الأعضاء السريين» ومع أولئك الممرضات المسنات اللائي كن شديدات الولع بالحشرات التي كن يربينها تحت أسرة المرضى وذلك للتخلص منهم حتى أصبحت إقامتهم هناك أمراً لا يطاق. أولئك الممرضات اللائي كن يجتهدن في تخفيف مناديل مخاطهن على حافات النوافذ المفتوحة على حرارة الصيف وعلى الخليج. ترى هل اختلقت كل تلك القصة اختلاقاً؟ كانت سيلين تقول والزفرات تتصاعد من صدرها، إن تلك القصة

قصة قديمة. ولكنها كانت لا تجيب عن سؤالي الدقيق جداً بلا ولا بنعم. كانت وهي تبتغي أن تخيفني وتحملني عن الانقطاع عن تشويش راحتها تطلق كما لو كانت ساهية كلمات كانت تجمدني رعباً. كانت إذا أرادت لفظة «شفرة» قالت «جيلات» وإذا أرادت لفظة «جورب نسائي» نطقت باسم نوع شهير من الجوارب النسائية، فكنت أستنتج من ذلك أن كل تلك القصة المتعلقة «بالعصابة» و«بالدويبات» لم تكن إلاً تعلة كنت أتعلل بها لإخفاء هلعي بعد أن قمت بمحاولة انتحار فاشلة أو بمحاولة قتل سيلين. إلاً أن الأمور لم تكن على تلك الدرجة من البساطة وذلك لأنني كنت واعياً تمام الوعي بأنني قد قطعت مراراً تلك المسافة بين مقر «العصابة» وسجن الأشغال الشاقة ثم بين هذا السجن والمستشفى. وكنت إذا وافيت عشيقتي بالتفاصيل حول مدة اعتقالي وحول مدة إقامتي بالمستشفى تجيبني: «في ما تقول نصيب من الصحة»! وبالفعل فقد وجد ذلك التاريخ وذلك اليوم الذي كانت الصحف والإذاعة قد... يمكن أن تطمئن نفسي إلى ذلك لأنني قد احتفظت بالجرائد التي وصفت وقائع ذلك اليوم وكان جميع الناس قد اعتبروه أمراً غير منتظر وهناك أيضاً العقارب فمن المستحيل أن أكون قد اختلقت قصتها لأنني لم أرَ عقرباً في السابق قط، وقد سألت أحد رفاقي بالمستشفى عن اسم تلك الدويبات التي كانت الممرضات ذوات العروق البارزة يطعمنها ويغذينها وذلك على مرأى ومسمع من إدارة المستشفى التي

لم تكن تجرؤ على التدخل. وكانت سيلين تجيبني بخصوص هذه النقطة وقد أثيرت أعصابها إلى أقصى حد «ذلك الأمر لا معنى له» ولكنها كانت تضيف قائلة بصوت معسول مضحك كان يخرجني عن طوري: «أنت في حاجة إلى قسط كبير من الراحة»، وكانت تلك الفترة هي الفترة التي حاولت أثناءها أن تنقلني من غرفتي المطلة على الميناء إلى بيتها الكائن على المرتفعات والتي مزقت فيها تلك البطانية التشيكية الصنع المجلوبة من المعسكر (ولكن ترى أي معسكر)؟ والموروثة عن شخص ما (ولكن ترى أي شخص هو بالضبط)؟ والتي احتفظت بها مقابل خصام وصراعات كانت عاقبتها ظهور «الأعضاء السريين» الفجائي في تلك الليلة من ليالي شهر جوان. ومنذ ذلك التاريخ اعتقلوني بتلك «الفيلا» واستنطقوني وعذبوني تعذيباً أشرفت من جرائه على الهلاك قبل أن يبعثوا بي إلى السجن بدون سبب ظاهر في جو مهلهل بلغ من الغرابة حداً جعلني ذات ليلة وأنا في زنزانتي أصفق مقهقهاً وقد انتابتني نوبة من الضحك الجنوني لا نهاية لها دامت أياماً وأياماً. ترى هل خاف «الأعضاء السريون» من ذلك؟ مهما يكن من أمر فقد قرروا على كل حال أنه كان بي مس من الشيطان وأخلوا سبيلي. وكانت تلك الفترة هي الفترة التي أخفت فيها سيلين جميع الأشياء الحادة وعدلت فيها عن ارتداء الجوارب الطويلة متعللة بأن الربيع قد حلَّ قبل أوانه بينما كنت أقضي أيامي أقص عليها حياة القبيلة وموت زاهر

والزنا بالمحارم الذي أتيته مع زبيدة وليلى. أمي طلقها سي زبير، رب العشيرة بدون منازع فكان ذلك الطلاق بداية تشتت الأسرة ثم انهيارها وقد وقعت في فخ نصبته لنفسها واستولى عليها عنف هو عنفها الذاتي فانتهى بها الأمر إلى أن أبيدت بعد صراع طويل نتج عنه في النهاية عند حلول أوان القسمة تلك الفتنة الداخلية التي خربت البلاد مثل الكارثة الطبيعية التي لا حول ولا قوة للإنسان على دفعها لأنها كانت مقدرة مسطرة في صلب عبقرية الأسرة. وكانت سيلين تقول: واصل ذكر قصة دار يما.

ولكنني كنت لا أريد الوقوع في فخها وذلك لأنني لئن كنت قد تحدثت طويلاً إلى حد ذلك الوقت عن القبيلة فقد كانت غايتي الوحيدة من ذلك أن أقيم لها البرهان على ما كنت قادراً عليه من انسجام في التفكير. فقد كانت القضية بالنسبة إليّ هي أن اضبط من جديد وبصورة نهائية موقفي إزاء جميع تلك الحوادث ابتداء بقصة القبيلة التي يكاد لا يصدقها العقل وانتهاء بتيهي بين المستشفى (أو المصحة) والسجن أو (سجن الأشغال الشاقة أو الفيلا). وكنت التزم الصمت التام إلى أن يجدّ في موقف تلك المرأة أو في حياتنا معاً بعض العناصر الجديدة التي من شأنها أن تحملنا على إعادة النظر في مجموع القضية إلاّ أنني كنت أعرف مسبقاً أنه لن يجدّ شيء بمحض الصدفة وأنه عليَّ أن أستثير الأشخاص والأشياء وأحركها عساني أتمكن بذلك من تحوير مجرى حياتي. ولم تكن سيلين تتوق إلاّ إلى الراحة

المطلقة وإلى اللامبالاة التامّة تستولي على جحرها الخرب (أو تستولي ـ وهو الأفضل في نظرها ـ على تلك الشقة الجميلة التي تحصلت عليها بفضل مصالح «التعاون الفني» بينما كانت أزمة السكن ضاربة أطنابها بصورة مزمنة بسبب نزوح سكان البوادي إلى العاصمة بل وأكثر من ذلك بسبب بروز تلك الجموع من الرعاع القادمين من جميع أنحاء البلاد لاستغلال تلك الوليمة العظمى التي كانوا على وشك تنظيمها ارتجالاً في ذلك الوقت الذي أصبحت فيه البلاد متحررة من ربقة الأجانب والذي تبوأت فيه «العصابة» مقاليد الحكم). ذلك الجحر إذن الذي كان درجه ينذر كل يوم بالانهيار لأن خشب الدرجات كان قد نخر نخراً بمفعول الرطوبة البحرية وتبقع ببقع مستديرة خضراء وببقع مربعة بيضاء ونقرته بألف صورة وصورة جيوش جرارة من المخلوقات المؤذية (من قوارض وكائنات أحادية الخلية وأخرى غشائية الأجنحة) كانت تعيش في حياتنا اليومية فلا تدع ولا تذر شيئاً بسبب تلك الغريزة الوراثية الجهنمية التي حكم من أجلها على الإنسان والحيوان بأن تكون وظيفته الأساسية هي وظيفة السلب والنهب إذ فيها وحدها ضمان استمرار الحياة. كانت إذن تريد حملي على الكلام لتهدئ من وساوسها وقلقها، ولكني قررت أن أبدأ علانية مقاومة كل محاولة في امتلاكي. كنت أريد أن أبقي ذاكرتي على ذلك القدر من التهويم وعدم الوضوح وذلك لي أنا وحدي حتى أحدد بوضوح ما كنت أسعى إليه بانتقالي من سجن

إلى سجن ومن مستشفى إلى مستشفى ومن غرفتي الخربة إلى غرفتي الخربة وقد أصبحت إذ ذاك موضعاً معروفاً لدى الشرطة التي كانت تتهمني بأنني حررت بها بعض فواتح الخطاب المؤذية الشرسة مع مواصلة إقامة الاتصالات الروحية مع «الكاهن» ومع روحه الشريرة وبأنني قد أقمت فيها علاقات غريبة مع «متعاقدة فنية» أنا ذلك الجزائري الذي أصبحت متمرداً منذ حدوث تلك الكارثة التي كانت العصابة مسؤولة عنها أساساً بل ومدبرة لها تدبيراً ملؤه التطير، وكذلك منذ إفلاس البلاد شبه الروكمبولي لولا هزال الفلاحين الجالسين حلقات واسعة على أعقاب أقدامهم وعيونهم شاخصة إلى الأرض المعطاء التي فقدت زبدة نسغها؛ الذنب في ذلك دائماً هو ذنب تلك العلاقات السحرية الموجودة بين أفراد «العصابة» وبين بعض الآلهة الخفية التي كانت تسمح لهم وهو في مأمن من غضب الغاضبين بأن يحملقوا متطلعين إلى الأفق في أمن وهدوء وأن يفعلوا ذلك وهم مستمرون في إفراز غوغائية مريعة قوامها الأكاذيب والمساومات الدنيئة وتصفية الحسابات التي كانت في الحقيقة إلى الخيال أقرب منها إلى الواقع بالرغم من أن تخلص مختلف النزعات من خصومها بالقتل قد أصبح أمراً مبتذلاً كل الابتذال.

وكانت مستمرة دائماً في إلحاحها (واصل سرد قصتك!) وكان الأمر ينتهي بي إلى رفض الكلام والإعراض عن تلك الفترة الغريبة القائمة على طلب الشفاء بالإفصاح

عما في النفس من الأحاسيس المتلاطمة إنطلاقاً من تمرين من تمارين الخطابة كان من المفروض أن يساعدني على اجتياز مرحلة التعثر التي كنت فيها، والتي كانت سيلين تذكرني بها كلما كان صمتي يشنج أعصابها ويثير غضبها ويحملها على الاستسلام إلى مشيئتي الحاقدة استسلاماً تامّاً وذلك رغم أنها كانت منذ حين تتمنى صمتي بكل إخلاص. وكان الشك والريبة في تفاقم بيننا حتى بلغا أبعاداً لا تطاق وذلك بالخصوص عندما كانت تظن نفسها قد هزمت فتترك كل بادرة في حملي على الكلام وتقيم حولها سياجاً من الصمت المخل فتقضي في الآن نفسه على صمتي أنا لأنها إن سكتت فإن موقفي يعدم كل معنى بتاتاً. فكنت أظل معذباً أنتظر توسلاً جديداً يصدر عن عشيقتي. وعبثاً كنت أترقب حدوث تلك الأيام الطويلة حتى يبلغ بي الأمر إلى انفجار أعصابي يمزق كل شيء في نفسي تمزيقاً. إذ ذاك كنت أستسلم إلى سيلين استسلاماً لا رجعة فيه، سيلين التي كنت أعرف كيف أستعيد بين يديها مواقف الصبي الوجل من احتضانه سراً من الأسرار المخجلة. كان عليَّ إذ ذاك أن أعيد تنظيم الأشياء والكائنات في ذهني وأن أنطلق من جديد في مسيرة عرجاء شاقة.

لقد خيرت بين سجن الأشغال الشاقة والمستشفى فاخترت المستشفى لكي لا أتعرض إلى خور أسئلة «الأعضاء» الذين أصبحوا في ورطة شديدة منذ انتشار شائعات ملحة بالمدن وبالأرياف مفادها أن «العصابة» كانت آخذة في التفتت والفناء وقد نخرتها الفتن الداخلية. فلم يبقَ لي من الحلول إلاَّ حلّ واحد: أن أجتنب إثارة حساسية «الأعضاء السريين» وأن أجعل القوم ينسون وجودي فأبقى في إحدى المستشفيات وانتظر هناك أن تتحقق تنبؤات «الكاهن»، أعني إفلاس العصابة وقد أصبحت هدفاً لغضب الشعب الذي كانت جموعه تتوافد من الأرياف والجبال لتهاجم عمارة الحكومة وتقتحمها اقتحاماً. تلك العمارة ذات الخطوط الهندسية الطلائعية التي كانت تدخل بعض البلبلة في أفكار المهاجمين الذين لم يغادروا «دوارهم» في السابق قط. وكنت أخشى أن يرميني المحيطون بي بالجبن واللؤم. ولكن سيلين كانت شاهدة على أن الأمور لم تكن على أحسن ما يرام في رأسي

المسكين المتورم بمفعول ذلك العدد العديد من آثار الضرب ومن التقلبات المفجعة التي حصلت منذ موت «الكاهن». وكنت قد أزمعت حتى على تنظيم النضال الثوري في صفوف المصابين بالأمراض العقلية ولما كنت عائشاً معهم مثل السمكة في الماء فقد قررت أن أغافل يقظة تلك الشرذمة من الزعماء المرتدين لباساً أبيض والذين يقومون بدور الشرطة وأتحيل على استبداديتهم الرجعية. ترى هل كانت تلك المهمة فوق طاقتي؟ لقد كانت سيلين تدافع عن عكس ذلك إذ ترى أنني بحكم كوني مريضاً سأعرف كيف أكلم المرضى، فيكفي أن أعزز اقتناعي بالقضية لكي أنجح في المهمة وأصدق أقوال صديقي المقتول. بيد أن الخطر لم يزل كله بعد لأن عملاء «العصابة» كان مرخصاً لهم في الإتيان إلى المستشفى لتعذيب المرضى.

كان المستشفى دائماً هو هو. إلاَّ أن الدويبات قد اضمحلت وعبثاً كنت أبحث عن بعضها تحت السرير إذ كنت لا أجد منها شيئاً. وكانت الممرضات ذوات السيقان المتورمة العروق قد ذهبن أيضاً فتمَّ وضع عدد من المعالجات الشابات اليقظات الخفيفات الروح ولكنهم قد ورثن عن سابقاتهن تلك العادة الراسخة المقيتة عادة تجفيف مناديل مخاطهن على حافات النوافذ فكنا لذلك لا نستطيع تصورهن بدون انتفاخ في عروق أرجلهن وعبثاً كن يعرضن على أنظارنا سيقانهن ويكشفن عنها إلى حد الفخذين ليزدن في إقناعنا بنعومة ملمس بشرتهن وبياض ربلاتهن، فقد كنا

متشبثين بنفي الواقع. وكان الأطباء أتعس الجماعة حظاً (ألم يبذلوا الجهود لتحسين نوعية الموظفين غير الطبيين؟) ذلك أن العداوة بين المرضى وبين هؤلاء المستخدمين قد برزت من جديد منذ الأيام الأولى التي تلت دخولي القاعة رقم 18. فكانت الخطة منذ ذلك الحين هي فتح جبهات أخرى في قاعات أخرى وفي إذكاء شعلة الغضب العام الذي كان يسود جميع أنحاء البلاد وفي تعزيزه في الأمكنة التي لم يبلغ فيها حدة كافية، وكان عملي عملاً شاقاً عسيراً لأن المرضى كانوا يخشون ما قد تضطر إلى مطالبتهم به من جهد في التأمل والتأليف بين الأفكار. ورغم إعجابهم بطلاقة لساني فقد كانوا يلزمون الحذر لأنهم كانوا واعين كل الوعي أن الأمر لم يكن هزلاً بل إن القضية تتعلق بمشاكل جدية حق الجدية. غير أن أمراً كان يشجعني على المضي قدماً في خطتي التخريبية وهو أنه لم يقاطع الاجتماعات التي كنت أنظمها في مختلف القاعات ولو مريض واحد. وكنت أنظمها متواطئاً مع طبيب نفساني قد انحاز منذ زمن بعيد إلى قضية الشعب، ولكنه كان له صيت خطيراً وهو أنه كان شيوعياً. وكنت أكد وأجد رغم خيباتي الشخصية ومضايقات الإدارة وحالتي العقلية الواهية (على حد قول الأطباء وسيلين) في القيام بهذه المهمة التي لم ينطها بعهدتي أحد ولكني كنت أعتبرها مهمة أساسية للتعبير عن الثورة الدائمة تعبيراً جدياً. وبعد فترة من الزمن بدأت مجهوداتي تكلل بالنجاح ولكنه كان علينا أن ننتظر علامات

مقنعة تصلنا من الخارج فنشن المعركة الحاسمة ضد «العصابة» المتبرجزة التي أكلتها غوغائيتها الذاتية، وكنت أخشى أن يصيب رفاقي شيء من الكلل والفتور. وكانوا رغم طول الانتظار ما زال الفرح يهزهم خلسة، إلاَّ أنه كان يستولي عليَّ شعور ملح بالقلق والضيق. ترى هل كنت سليم العقل؟ (وترى هل كان عالم النفس الذي كان يجري عليَّ روائزه واعياً أنني كنت أستميله إلى مذهبي؟) كلا! لأن «الأعضاء» لم يرفقوا بي أثناء المدة التي قضيتها مسجوناً بتلك الفيلا، وما زلت أحمل - أثر تصدع في عظم من عظام جمجمتي علامات صريحة تدلُّ على عدم التوازن العقلي وقد زاد في حدته ذلك الاختلاط الكامل الذي كان يعبث كل يوم بيقيني. ترى هل كنت حقاً بالمنتشفى؟ لم أكن واللّه أدري عن ذلك شيئاً. لقد كان لدي من الحجج على الجواب بالإثبات مثل ما لدي منها على الجواب بالنفي. وعلاوة على ذلك فقد كان يخامرني الاعتقاد في أن العصابة قد حبستني بموافقة أبي بسجن الأشغال الشاقة المعروف بسجن «لامباز» برفقه عدد كبير من المعتقلين السياسيين كانت نفوسهم تتعفن هناك منذ سنوات عديدة بدون أن يحاكموا بل وبدون أن يحاطوا علماً بالتهم المتعلقة بهم. وكلما حاولت أن أوضح هذه المسألة فقدت الصلة بالواقع فكان كثيراً ما يتفق لي أن يغمى عليَّ أثناء اجتماع سياسي نظمته أنا شخصياً، وكانت سيلين تعودني فأحاول أن أظهر أمامها في مظهر مؤثر يثير الشفقة ولكنها

كانت ترفض الرثاء لحالي لأن كل موقف من مواقف الشفقة تجاهي يكون وخيم العواقب ومن شأنه أن يعزز ميلي إلى التظاهر والتكلف. فكانت بذلك تخرجني من جلدي غيظاً وتذكي حقدي عليها هي تلك الأنثى العاجزة عن السمو بموقفي البطولي إلى أعلى مستوى! ألم أكن بصدد تنظيم المقاومة الشعبية في نطاق المستشفى؟ (أو سجن الأشغال الشاقة فالأمران سويان بما أنه من المحتمل كذلك أنني قد كنت بتلك الفيلا التي هيؤوها منذ الاحتلال الأجنبي وصيروها مركز تعذيب). لقد كانت تضع موضع الريبة والشك تلك الشائعات التي كانت صادرة من كل فج عميق في أطراف البلاد والقائلة بدنو ساعة الانفجار النهائي وكانت تهلل فرحاً وابتهاجاً خلسة لكونها لم تعد مضطرة إلى احتمال وجودي كل يوم وذلك لأنها غادرت جحرنا منذ حدوث ذلك الحدث الذي كانت تطلق عليه اسم «نكستي» تحفظاً. وكنت أحتج عليها وأعترض بمجرد أن أراها قادمة مهتزة الردفين، شاحبة اللون من «كثرة الأرق» (على حد قولها!) الذي نتج عن ذهابي عنها، وفي الواقع فقد كانت سعيدة لتخلصها من هذياناتي وبالخصوص هذياناتي عند مطلع الفجر التي كانت تزعزع الحلم والواقع وتتركها خائفة ترتعد من فرط شكها في إمكانية إعادة تهذيب عواطفي بعد ثبوت موت زاهر وبعد زيارة ليلى أختي اليهودية من أبي التي كدت أغتصبها ذات ليلة في غرفة من غرف دار أمي بينما كانت على سبيل اللعب تقبلني على فمي وتعري صدرها الرائع بمحضري.

إنها الثرثرة المرقشة بالألفاظ والإشارات، وينتهي بي الأمر إلى أن أشعر بحلقي يحرقني لفرط ما توسلت لكي أسمع على لسان عشيقتي اسم المدينة التي كنت بها سجيناً. كانت ترفض الاستجابة لتطلعي الملح إلى معرفة ذلك متعللة بأنها لو فعلت لأفسدت طريقة أطبائي في العلاج القائمة على مذهب الإرادية (ومن المحتمل أن يكونوا من المسؤولين التابعين لإدارة السجون والمولعين بدراسة اجتماعيات جماهير المحتشدات ونفسياتهم)..
فكانت بذلك تحملني ما لا يطاق، ويؤول بي الأمر في النهاية إلى ذكر لساني وهو يلعق بشرتها لعقات حارة مخضلة، وهيئتها وهي تصر بأسنانها صريراً وقد غابت عن الوجود لذة واعترافاً وتتوسل إليَّ طالبة مني أن ألحس قعري إبطيها المحلوقي الشعر المعطرين على الدوام مصرحة لي بأن ذلك المكان هو أشد مناطق جسمها إثارة للذة الجنسية (وكانت تقول إنه بإمكانها أن تستغني عن وجود فرج بجسمها إذ إن إبطيها كانا يثيران فيها من اللذة ما يبلغ بها حداً يبعث شيئاً من الألم في أسافل بطنها حيث كانت تحدث انقباضات أليمة إلاَّ أنها مثيرة للذة الجنسية). وكان لا يعجبها مني تلك الكيفية التي كنت أذكر بها هيئاتها ومواقفها في خلواتها: (أي رذائلها وانحرافاتها الجنسية) ولكنها كانت تبتسم مع ذلك حتى لا تتشنج أعصابها ولئلا تضطر إلى رفع صوتها خوفاً من أن تثور ثائرة رفقائي المرضى إذ لو حدث ذلك لطفقوا يسخرون منها ويوبخونها

بدون أي تحفظ. وكانت تنصرف دامعة العينين مهانة مكلومة النفس إلى حد أنني كنت أعد نفسي بتغيير موقفي منها عند زيارتها المقبلة.

لا يزال اللغز مرتبطاً دائماً بخرافة الجنين التي اختلقها زاهر عندما كنا صبياناً والتي لم يوضح سرها قط. لقد أصبحت الآن وقد مات أخي الأكبر واثقاً من أنه أخفى عني أمراً ما وأنه قد كانت له حيلة سرية لوضع حد لذلك الوسواس الوخاز. ولم تكن تلك الخرافة متعلقة بمجرد البحث عن الوالد (الذي صرت أعده اليوم في عداد أعضاء «عصابة» تجار المجوهرات) ولكنها كانت تتعداه لتشمل تلك الفئة الحقيرة من البشر المتقاتلين فيما بينهم قتال الأخ لأخيه والمكونين لتلك القبيلة التي ظلت مغلولة مدة مائة وثلاثين سنة إلى هيكل اجتماعي يجلب الخزي والذل. وفي الواقع فقد كانت القضية متعلقة بعملية كانت نصيبها الإخفاق أثناء مدة طويلة جداً إذ لم يكن الجنين ذلك المولود الذي ستضعه زوجة الأب. الزوجة العشيقة في آن واحد وإنما كان تلك البلاد التي انحطت فآلت إلى علقة نفخ فيها إلى أن بلغت حد الجنين ثم هجرت وأهملت وظلت تنتظر في ذل وخنوع حدوث العنف المتباطئ. وركن العنف إلى الجريمة. وزعم «الأعضاء السريون» أن موت «الكاهن» كانت الغاية منه القضاء على كل نوع من أنواع الغوغائية وذلك بفضل تعاون الطبقات الذي كانت العصابة (منذ أن استلمت مقاليد الحكم واشترت جميع المقاهي

وجميع المواخير من أصحابها الإسبانيين والكورسيكيين وزرعت مثلما تزرع أجباح النحل خلال جميع أطراف البلاد «فيلات» للتعذيب أحسنوا تجهيزها أحياناً أكثر مما كان يفعل في فيلاتهم أولئك الرجال الحمر البشرة أثناء حرب السبع سنوات) تعاون الطبقات الذي كانت العصابة تحاول أن تجعل منه أمراً محتوماً وذلك انطلاقاً من الرجوع إلى الأصل رجوعاً مزيفاً خداعاً ومن تلاقي جميع المواطنين من جديد في صلب ديانة الدولة. وكان الفلاحون وقد ضاقت أعينهم لفرط ما حلموا بالغد الأفضل يقعون في فخ الاتحاد الذي فيه ضمان النمو والرفاهية. فكانوا يصفقون ويهتفون إلى أن تؤلمهم أيديهم لهذر الرؤساء حول العظمة القومية والكرامة المسترجعة. وكان عملة رصيف الميناء وكلهم من أصدقاء أخي الراحل ومن المدمنين على شرب الخمر الحمراء البخسة الثمن يخونون تعاليم الفقيد وذلك بتنظيم ميليشيات مضادة للشيوعية. كانوا ينهبون المدن ويضرمون في الساحات العمومية حرائق هائلة يفعلون ذلك لا عن اقتناع سياسي ولكن لأنهم كانوا ضالين ضللتهم الذئاب ومهددين هددتهم الشرطة. ولم يكن سي زبير وهو من مناصري «العصابة» يساعدها مادياً ومعنوياً من بين المتخاذلين في مقاومة المذاهب الأجنبية الهدامة. فقد كان يعتقد أنه من الواجب رفض كل أيديولوجيا مضرة بمصالح كبار التجار وكبار الملاكين العقاريين والتشبث بالتقاليد الرجعية التي تجمد كل شيء على منوال ما فعله الآباء

والأجداد وذلك لا للذود عن مذهب أخلاقي صارم ولكن لإحكام استغلال الطبقات الفقيرة وللتمكن من إبقائها في متناول اليد (ترى ما عسى أبي أن يصنع لو عدم أولئك المتسولات الصغيرات اللائي كن يجئنه كل صباح يطلبن الصدقة واللائي كن مقابل ذلك يسمحن له بملامسة فروجهن وقد تجمدن رعباً. لقد كن يطاوعنه في ذلك خوفاً من إضاعة ذلك الفلس الذي كان الوالد قابضاً عليه في يده الأخرى بمثابة الطعم. ثم إنهن كن يتعودن ذلك فينتهي بهن الأمر إلى القدوم إلى المغازة لإرضاء تلك العادات الجنسية القبيحة التي عرف سي زبير كيف ينميها في أجسادهن. ترى كم مرة فاجأته وهو متلبس بجريمة إغتصاب أولئك البنيات الصغيرات في أطمارهن؟ وكان إذ ذاك يعرف كيف يستعيد هيبته ووقاره فيتكلف بعض الألاعيب الصبيانية ويشفق على أطمار الصبية الجائعة، ويستعيد فجأة صوته المرعد المشتاق إلى الوعظ والإرشاد ويذهب إلى خزينة ماله الفولاذية باحثاً عن المصحف المقدس ثم يفتحه في الصفحة المطلوبة بالضبط ويردني في صلف وبدون أن يفقد شيئاً من حدته إلى الطريق المستقيم الداعي إلى إيتاء الزكاة التي أمر بها اللّه ورسوله فيعكس بذلك الآية ويعصرني بين أنذهالي الجارح ورغبتي التافهة في قتل ذلك الوالد القذر الذي أفلت من خيط نسبي. إني لا أجد في نفسي إلاّ شعوراً بالشمس شعوراً مفاجئاً قاسياً لا يترك في قدحي وطعني إلاّ يأساً قوامه الظل الناعم والشعور بالبرد، رغم حرارة الطقس

وباب ضيق زرق لونه الكلس والصمت. ثم إني كنت أطفو فجأة من ذلك الحلم الفظيع فأنطلق في الشارع راكلاً جميع قطط الحي وقطاته التي كانت تبدو لي هائجة طالبة للسفاد. وأمضي في ذلك إلى حد الشعور بالألم في خصيتي).

ولكني علمت عندما كنت بسجن الأشغال الشاقة أن شيخ قبيلتنا لم يكن راضياً عن الأعضاء كل الرضى فكان ينتقدهم لا عن سياستهم القمعية ولكن يعيب عليهم استعمال تلك الصيغ وتلك اللغة الثورية المزيفة رغم أنهم كانوا قد طمأنوه عدة مرات بأن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد طريقة تكتيكية لا بدَّ منها لشد انتباه الرعاع فلا يترك لهم متسعاً من الوقت للتفكير وكان الوالد يحلم بقيام دولة دينية تكون مقاليد الحكم فيها بيد رجال الدين. وكان يتذمر من الإباحية السائدة بالمدينة ومن تعاظم البغاء بها تعاظماً مفجعاً. فهل كان يدعو إلى منع شرب الخمر والكحول وإغلاق دور البغاء وحمل المواطنين وقد تطهروا من النجاسة الأجنبية على إقامة صلواتهم بحضور شاهد وجبر النساء على التزوج في سن التاسعة اقتداء بزوجة الرسول؟ لو فعل ما استغربت ذلك منه أكثر من اللازم فقد عرفته زميتاً متعصباً مخلصاً: لقد كان يريد حقاً إنشاء الشعب على الخوف من اللّه وذلك لأنه لئن كانت النخبة تعرف كيف تنظم سلوكها حتى وسط الدعارة فإن الجماهير من جهتها عاجزة عن ذلك. وكانت هذه الفكرة ملازمة لذهنه كالوسواس لا تفارقه وكان له عليها أنصار متحمسون

تحمساً كبيراً، ومنهم ذلك الأحدب المنتفخ بائع الشموع. ولكن العصابة كانت في الوقت نفسه تحذر حدوث مثل تلك المؤامرة الدينية. فكانت تتنازل لهم عن امتيازات عريضة من ذلك مثلاً أنها كانت تشيد المساجد على يد مهندس معماري اشتهر بكراهيته للدين ورجاله إلاَّ أنه قد بلغ به الشغف بالأقواس والحنايا حداً قبل معه أن يشيد بيوتاً للّه بدافع حب الجمال الفني في حين أن البشر كانوا في أمس الحاجة إلى مساكن ولكن ترى من كان يتذمر من ذلك؟ لا أحد بل أكثر الشعب كان يبارك أعمال العصابة ويثني على خطتها الدينية وعلى ورعها الفياض. فقد كان الزعيم الأكبر يظهر في مظهر الزاهد الحقيقي. وكان ما رآه من خطر انزلاق البلاد نحو اعتناق أيديولوجية مستوردة هو الشيء الوحيد الذي أخرجه من تلك التأملات الماورائية الطويلة التي اغرق فيها غداة الاستقلال الوطني على قمة جبل من جبال البلاد لا يعرفه أحد لأسباب أمنية لأن الزعيم الأكبر لم ينقطع ـ رغم المهام التي كانت تفرض عليه البقاء بمقر الحكومة ـ عن الذهاب إلى ذلك الجبل والإقامة فيه فترات قصيرة ينتقل إلى هناك على متن طائرة عمودية مرقشة باللون الأخضر يقودها طيار فرنسي الجنسية متضلع في علم الطيران قد اعتنق الإسلام. وكانت البلاد تلهج بذكر إسلامه وكانت الصحف لا تترك فرصة تمر دون أن تتحدث عن ذلك الطيار الخارق للعادة الذي عزز اعتناقه للإسلام، في قلوب جميع المؤمنين إيمانهم الراسخ بأن

المخرج الوحيد من المشاكل الاقتصادية يكمن في التفرغ لعبادة اللّه تفرغاً كاملاً.

كانت سيلين تلهث وتقول إنني أهذي هذياناً وإن حالتي أصبحت أسوأ مما كانت عليه. ولم يسبق لها أن كلمتني بمثل تلك الصراحة وقد استغربت ذلك منها، فطفقت أتوعد - وقد دخلني الهلع - بالإغراق في الهذيان وبالموت هناك على الفور وذلك بأن أحبس في دماغي المريض جميع الأفكار الموسوسة التي تعلمت كيف أوضحها بصورة سطحية مؤقتة، إلى أن تختنق خلاياي العصبية اختناقاً كاملاً وإلى أن يشل مهادي البصري في دماغي شللاً نهائياً. فكانت تسرع بإحضار أحد الأطباء فكان عوض أن يوبخني ويعظني يصافحني ويشجعني على ثورتي باعتبارها الطريق الوحيدة المؤدية إلى شفائي. وكان يصل به الأمر إلى أن يوحي إليَّ بأن أتخلص من عشيقتي الفرنسية وكانت هي لا تفقه من القضية شيئاً فتقرر أن جميع الناس في ذلك المستشفى مجانين. فقد كانت تثير أعصاب رفاقي فكانوا عوضاً عن أن يقذفوها بالسكاكين - على غرار ما كانوا يفعلونه لو كانت الحالة عادية - يلفظون في وجهها أقوالاً وشواهد ثورية لأنهم كانوا يعلمون علم اليقين أنني كنت رغم الظواهر متعلقاً بها شديد التعلق.

وكانت تظل هادئة ثابتة وتوفق لشدة ما كانت تنظر إليهم إلى أن تجعلهم يشفقون على نفوسهم بالذات فكانوا

يضلون سواء السبيل ويتيهون فيغورون في أقصى أقاصي كيانهم بحثاً عن بعض الطمأنينة القصوى أو عن ضرب من ضروب الجنون الضرورية لموقف اللامبالاة الذي كانوا يريدون أن يقفوه تجاه سيلين. وكانت هي أشد بأساً منهم وقد خارت عزيمتها من جراء ذلك الوابل من المصائب الذي انصب عليها، فلم يكن لها بالبلاد إلاَّ علاقات زائفة استحالت إلى علاقات عابرة منذ أن عرفتني. وكانت تعرف كذلك أن لا مخرج لها من تلك الورطة إلاَّ في الانصراف والاستيطان من جديد في مجتمع يتدفق فيه معجون الأسنان أمواجاً. ولكن لما كانت تكره غسل أسنانها كرهاً شديداً فإن ذلك الحل لم يكن يناسبها بالدرجة التي قدرتها. كانت لا تريد الانصراف ولكنها كانت كذلك لا تستطيع البقاء.

وكنت أطلق على هذه الورطة عدداً كبيراً من عبارات الهزء والسخرية اللاذعة على أنه لم يكن لذلك أي مفعول في الواقع! إلاَّ أنه كان يدعم اعتقادي بأن سيلين لم تعد تدللني كما كانت تفعل من قبل. بيد أن الحياة بالمستشفى كانت تستنفذ كثيراً من وقتي فكنت سرعان ما أنسى مشاكلي مع تلك المرأة الأجنبية حتى أتفرغ وأنكب على النظر في مسائل كانت أهم في نظري: مثل سر اختفاء بنات وردان والحشرات الأخرى كالعقارب ومثل دور الممرضات الشابات المؤذي ومثل التنظيم السياسي لتلك الجماهير المتخلفة ذهنياً. وكان هناك بالخصوص مشكل كان يلازمني

أكثر فأكثر كالوسواس وذلك منذ أن زارتني ليلى أختي اليهودية من أبي إذ أدهشتني هيئتها المتكلفة طوال مقابلتنا فقد وددت لو علمت أكثر مما كنت أعلم بشأن ما جرى بيننا عندما أقامت هي تلك الإقامة القصيرة بدار يما. فقد تظاهرت بالاستغراب وزعمت أنها لا علم لها بحدوث أي شيء شاذ بيننا سوى أنني قد أعطيتها عنوان «هيماتلوس» الذي كان إذ ذاك مقيماً بإسرائيل. ترى هل أوحيت لليلى بذلك العنوان فعلاً؟ لقد كانت جازمة بذلك قطعاً. فتوسلت إليها ألا تقول عن ذلك شيئاً من شأنه أن يبلغ مسامع «الأعضاء السريين» فيتعللون به ليهجموا عليَّ في ضراوة ويسلموني للشعب يصب عليَّ خزيه ولعنته، إذ لا يمكنه أن يغفر لي مثل تلك الإهانة. وفعلاً فإن جميع الناس كانوا واعين بإفلاس البلاد إفلاساً يرثى له ويبحثون عن الخلاص من تلك الورطة بإبداء شيء من العداوة المكبوتة حتى إن سكان المدينة أصبحوا لذلك حانقين كمن علقت به الأدران والأقذار.

وكانت ليلى لا تفهم انفعالي فكنت أتهمها بالمشاركة في ذلك الجهاز القمعي الهائل الذي أقامته السلطة الحاكمة لإرهاب جميع من كانوا على شاكلتي والذين قد يتجاسرون على قلب نظام الأمور. ولكنها، باتت، تضحك من نزعتي وميلي إلى إعادة تأويل جميع الأمور من جراء قوة مفرطة في ذاكرتي كانت تخيفها على حد قولها. ترى هل كان في قولها ذلك تلميح إلى نسيانها الحاد لعملية الزنا بالمحرمات

التي كادت تقذف بنا خارج الأمة الغيورة على امتيازاتها وعلى محرماتها والتي لم تعدل البتة عن رجم من كان يطيب له ارتكاب السوء والفحشاء من رجال ونساء؟ كانت تشعر بالخوف وهي تصغي إليَّ لأنها كانت تعرف أنني كنت على علم بمحاولات الانتحار العديدة التي قامت بها، فقد كانت عند كل محاولة تجرح أوردة معصمها. وقد كان في ميل هذه المرأة إلى الحرية ما من شأنه أن يهيج مطالب جميع الذكور العدوانية وقد صمموا على معاقبة كل محاولة تصدر عن النساء في سبيل تحررهم، بدون شفقة ولا رحمة. وغدا ذلك التحرر أمراً منسياً وموضوعاً للسخرية والاستهزاء إذ ظلت جميع البلاد متشبثة بتلك المكرمة الوحيدة التي لم يكن أحد يتجاسر على إعادة النظر فيها: ألا وهي حشد النساء في زرائب كالمواشي وتربيتهن كما يربى دود القز ثم تركهن يمتن في ذلك الكفن الأبيض الذي كان يكفنونهن فيه منذ خروجهن من سن الطفولة. وكانت أختي من أبي تزعم أنها تعرف من الأمر ما فيه كفاية لها: فقد كانت جميع نساء البلاد بصدد تنظيم صفوفهن في الخفاء، ويستعدون للقيام بمسيرة عملاقة قبلتها قصر الحكومة، غايتهن الأولى من حركتهن أن يضرطن ضراطاً يختنق له الزعيم الأكبر إلى أن يلقى حتفه. وكن قرأن لكل شيء حسابه. ففي صورة ما إذا ظهر أن لروح الرئيس من القوة والثبات ما يمكنها من الرجوع إلى البلاد ثانية فإنهن قد هيأن خطة طويلة المدى لتخليص جميع المنطقة من تلك الكارثة الطبيعية المكدرة المعرقلة لمساعيهن. وكان رفاقي المرضى، وقد أعلمتهم بذلك السر شخصياً، يصفقون فرحاً

وقد ابتهجوا بقرب الانفجار المقبل. لقد كانوا سعداء بهذا الإجماع حولنا وحول جميع من كانوا يمهدون السبيل لظهور عالم جديد تتخذ فيه القرارات بغلق جميع مستشفيات الأمراض العقلية وبإرجاع جميع المرضى إلى ذويهم وقد كانوا حتى ذلك الحين منقطعين عن الواقع، وكان الانفعال يبلغ أحياناً أقصاه عندما يرد في بعض اللوائح التي صودق عليها بالإجماع أن وجود السجون في صلب حكم المستقبل أمر يتنافى مع طبيعته القائمة على الحرية والشعبية، وأنه يجب أن تغلق جميع السجون وأن تحول إلى مدارس ليلية لتعليم البطالين الذين قد يوجودن بفعل معجزة من المعجزات الخارقة للعادة، وذلك رغم الجهود المنظمة التي بذلها النظام الحاكم ورغم ثقته فيما كان يرصده من طاقات بشرية. لقد صرنا لا نحيا بل صرنا نرقص من الصباح إلى المساء. وبدأت الممرضات يأخذننا مأخذ الجد وأصبحن قلقات بشأن مستقبلهن في صلب مجتمع ينعدم فيه المرضى بعقولهم المحتاجون إلى علاجهن فكن بالتالي يلتحقن فوراً بصفوف الرجعية وصفوف «العصابة» المعادينِ لكل تغيير في الأوضاع. ترى مما كنا نتذمر؟ ألم تختفِ بنات وردان وبقية الحشرات والدويبات؟ ألم يكن جيشنا أقوى جيش بالمغرب العربي! ألم نكن أعضاء ذوي نفوذ وسلطة في منظمة الأمم المتحدة؟ ألم يرتفع ثمن النساء المخطوبات من آبائهن فارتفعت بالتالي القيمة الجوهرية للمرأة؟ وكانت هذه الحجج الصادرة عن أولئك الممرضات عميلات النظام المتعفن المتلاشي لا تخلو من إثارة البلبلة والحيرة في نفوسنا. لقد كان ينقصنا الذكاء الكافي لدحض مثل تلك

الاعتراضات دحضاً مدعماً بالحجج بيد أننا كنا نستعيض عن الذكاء بحماسنا الفياض. فكان الأمر يبلغ بنا إلى حد التصريح بعبارات ملؤها التهديد باغتصابهن، هن عدواتنا في الطبقية، فكن يضحكن من ذلك إلى أن تغرورق أعينهن بالدموع ويرجعننا فجأة إلى وضعنا الحقير وضع رجال مصابين في عقولهم وعاجزين مؤقتاً عن القيام بأية عملية جنسية. ترى كيف التوصل، إلى اغتصاب أولئك المهرات، اللائي كن يتبخترن متبرجات بين أسرتنا تبختراً متزايداً، ويتداعبن بأن يلامسن سررهن أمامنا وقد خررنا وتهنا في بحر لا حد له من التأملات، محاولين ـ للحفاظ على ماء وجهنا ـ أن نتلقف بعض أشلاء الكوابيس أو إذا أعوزنا ذلك بعض بدايات الرؤى؟ ولكن لا شيء من ذلك كان ينفع. لقد كنا حقيقة مجنونين تمام الجنون وكان هذياننا على قدر عظيم من التفكك والاضطراب. لقد كانت الدبابات أشد فعالية من تمحكات المساجين السياسيين الذين كانوا ينقلونهم على الدوام من سجن الأشغال بينما كانت الجماهير في الخارج مبتهجة لعلمها بأننا كنا في وضع لا يمكننا من إيذاء أي كان، فكانوا يقاتلون جيرانهم بسبب بضعة أمتار من الصحراء ويرسلون وحدات من المتطوعين إلى بلد من بلاد القارة الإفريقية وذلك لإقامة البرهان على رجولتهم وعلى أن اللّه على كل شيء قدير.

لقد استيقظت في عالم كنت لا أعرف فيه أي مكان يحتل رأسي من جسمي، وكنت أحتاج إلى تلمس بدني طويلاً ملؤه الحيطة والاعتناء لأهتدي بعد فترة من الزمن

طويلة ثقيلة الوطأة إلى العثور على وجودي ابتداء من رأسي الذي كنت اهزهزه كل صباح بعنف متزايد كما لو كنت أريد التخلص من وجع حلّ بعنقي. وكانت النوبات العصبية ليلاً والعلاج بالصدمات الكهربائية نهاراً. كان الأعضاء السريون يأتون أحياناً لزيارتنا وللإطلاع على تطورنا السياسي وإرهابنا بتهديدنا بالموت. وكان لنا دائماً إمكانية الركون إلى التظاهر بالجنون التام وكان من شأن ذلك أن يحرجهم ويضايقهم، فكان الأمر يؤول بهم في النهاية إلى الانصراف وقد امتلأت نفوسهم شكاً وتخوفاً وذهب الظن بهم إلى أن بعضنا قد بلغ بعد مراتب الأولياء الصالحين (وكان ذلك يتعلق بأشدنا إصابة)، وخافوا أن يكون لذلك البعض منا بعض القوى المؤذية التي من شأنها أن تجلب لهم الموت أو أن تغرس فيهم بعض الأمراض المؤذية المؤلمة التي قد تشدهم بقية حياتهم إلى سرير بائس قذر بإحدى المستشفيات، فكانوا يباعدون بين الزيارة والزيارة فلا نراهم خلال فترات طويلة من الزمن كان الأمل يعود فيها إلى نفوسنا. لقد كان المستشفى ـ السجن غاصاً على الدوام فأضحى جلادونا لا يهتدون إلى القيام بعملهم كما ينبغي. كانوا يحلمون بصدور قانون لا يرسل بمقتضاه إلى السجون وإلى مستشفيات الأمراض العقلية إلاَّ أنصار النظام وهم أقلية قليلة جداً يمكن لهؤلاء الجلادين أن يعتنوا بأفرادها اعتناء أحسن بكثير من اعتنائهم بتلك الجماعة من

الوحوش التي لا تحصى ولا تعد، والتي كانت قادرة على جلب جميع المصائب وتنظيم جميع المؤامرات. ولكنهم كانوا في اعتباراتهم تلك لا يقرؤون حساباً لعزمنا الراسخ على مقاومة مثل تلك المشاريع المضرة بأهدافنا الأساسية: ألا وهي تعفن النظام في صلب بلاد البربر المتفتحة على البحر وعلى الآثار الرومانية والمشرومة بشروم وخلجان واسعة كان انبهارنا لا ينفك يتعاظم فيها ونحن نبحث عن نشقات من الهواء نستنشقها بشره ونهم وقد أخرجنا رؤوسنا من المغطس الذي مرَّ به إخواننا قبلنا، فلم يتركوا به أثراً لكيانهم المعذب سوى شيء من القيء النخامي غير الشفاف كنا نبحث فيه عن علامة ورموز تمكننا من تحسين طريقة الاتصال بهم من خلال سعير الصدمات الكهربائية (أو جهنم الكترودات التعذيب الدهماء)، ومن البحث وسط ضعفنا وخوفنا عن يقين قد يكونون تركوه هناك، يقين سيكون بمثابة الكارثة في نفوس معذبينا، وبمثابة زهرة الغائط تفوح رائحتها النتنة في خياشيم الأعضاء السريين. وكان تطيرنا المفرط يضايقهم ويزعجهم وكانوا لا يريدون القضاء علينا بالقتل بل كانوا يبتغون أن يخرجوا من أجسادنا تلك الجرثومة المنغرسة في عقولنا المتشنجة، المضطربة، لا بسبب الآلام، ولكن بسبب تلك العلامات الملعونة التي كانت أشد تعبيراً من أي ألم من الآلام. علينا أن نتجنب التلاشي خلال دلالة الأشياء وأن نتعلق بمطلبنا الحيوي وقد

تجرد من كل مبرد قد يفقده عصمته ويجعله عرضة للمطاعن وأن نستمد قوانا من حقن الدم (جميع الدم!) الذي كان يسيل على وجوهنا المرضوضة الممزقة بمفعول اللطمات باليد والركالات بالأرجل التي كانت وجهتها لنا تلك الجماعة من أوغاد الشرطة الذين خرجوا هم أنفسهم منذ زمن قصير من المحتشدات والسجون والفيلات التابعة للسلطة الاستعمارية. فما إن تحرروا من القمع والعنف حتى اندفعوا مثل الصواريخ فغاروا في أشلاء حطام أجسامنا المشوهة شر تشويه وسط ضحكات السخرية الصادرة من أفواه أولئك الأوباش؛ وكانوا يتلذذون من وضعنا البائس فتبلغ بهم اللذة درجة لا يتمالكون معها ـ وهم يجيشون جيشاناً سادياً ـ عن ملامسة أعضائهم الجنسية من خلال قماش سراويلهم وقد انفعلت التذاذاً بخوفنا من الضربات والتمزيقات، ذلك الخوف المرتبط بطفولتنا الخفاقة في صلب القبيلة وفي صلب جموع الدراري ووسط الأواني ووسط الدم (دم الأضاحي ودم النساء الحائضات). ولم يكن المستشفى إلاّ تعلة الغاية منها إخفاء مرارة سجن الأشغال الشاقة وقسوته عن يما، ولم يكن الجنون المتكلف إلاّ موقفاً دفاعياً ضد الجلادين الذين كان يرعبهم صمتنا المطلق متى أزمعوا على استنطاقنا عن تفاصيل نشاطنا السري ضد «عصابة» تجار المجوهرات وكبار الملاكين العقاريين. تلك العصابة التي كانت مشغولة

بالإثراء بدون حياء ولا خجل وبقمع كل من تحدثه نفسه بمنعها عن الإيذاء والضرر قمعاً وحشياً.

وفي الواقع فإن خيبة «العصابة» كانت واضحة لا غبار عليها ولكنهم كانوا يعيبون علينا أننا أكدنا القول على تلك الحقيقة التي كان من الواجب أن نخفيها بل أن نسكت عنها. إلاَّ أن الشائعات كانت في تعاظم وتفاقم بالبوادي التي كان الفقر والحاجة والجوع فيها في ازدياد، وبالمدن حيث شرع الناس في تنظيم صفوفهم وذلك بعد إفلاس القادة وقد تذبذبوا بين مصالحهم المالية الخاصة وبين ضرب من الحنين إلى الإصلاح صاروا لا يدرون كيف يتخلصون منه، ترى هل سأستمر طويلاً في الضرب بين المستشفى وسجن الأشغال الشاقة جيئة وذهاباً؟ لم أكن أدري الجواب الآن وقد انتهى الأمر بسيلين إلى التخلص من خوفها عليَّ وإلى الرجوع إلى فرنسا بلادها تاركة إياي في بلبلة فكرية لم يسمع بمثلها قط. ومنذ قطيعتي مع تلك العشيقة صار يتفق لي أكثر فأكثر أن أطفق في مناجاة نفسي بصوت مرتفع وأنا بزنزانتي فأحدث بتلك الصورة وبدون قصد كوابيس تتخلل نوم حراسي. وكنت في السجن عندما علمت بخبر موت أمي التي لم أرها منذ أن ألقي القبض عليَّ والتي بقيت مدة طويلة تجر مرضاً مزمناً عند أحد أعمامها. وبالسجن أيضاً بلغني خبر زواج أبي للمرة الثالثة، أعلمتني بذلك زبيدة وهي تتوسل إليَّ بأن أنقطع عن

تعاطي السياسة (ترى هل كانت مشاركة في المؤامرة هي الأخرى؟).

الليل أظلم قاتم في مطبقي ولكن الصاغة يتكاثرون في المدينة، ينظمون أنفسهم طوابير من الميليشيا للدفاع عن محتويات واجهات محلاتهم المهددة، تهددها شراسة شعب البطالين الدائمة (وعددهم يزداد بمائتي ألف شخص كل سنة حسب إحصائيات «العصابة» نفسها!) فقد كانوا بالمرصاد يتحينون أدنى فتور في الحراسة لا لسرقة كل شيء بل لتدمير كل شيء وتخريبه. إن الليل الأظلم قاتم بمطبقي. غداً ستبلغ مسمعي أنشودة المساجين (ومنهم الشاعر عمر) يطلقونها من صحن السجن ساعة جولتهم اليومية بها. أما أنا فما زلت معزولاً عن بقية المساجين إلى حدّ الآن (وقد ظللت كذلك منذ عدة سنوات). السلام عليَّ، فقد حلَّ الليل، وخيم السكون حول هذياني الجنوني، الأبدي، وأما رفاقي في المطبقات والزنزانات الأخرى فإنهم يعرفون أنني لست محكوماً عليَّ بالهذيان والجنون أبد الدهر ولهذا فعليَّ أن أستمر في الصمود وقتاً ما...

كتب أخرى للمؤلف

من أجل إغلاق نوافذ الحلم، 1981، (شعر).
ألف وعام من الحنين، 1981، (رواية).
الرِّعن، 1984، (رواية).
يوميات فلسطينية، (يوميات).
طبوغرافية مثالية لاعتداء موصوف، 1983، (رواية).
الإراثة، 1983، (رواية).
الحلزون العنيد، 1984، (رواية).
ضربة جزاء، 1985، (رواية).
التفكك، (رواية).
المرث، 1984، (رواية).
لقاح، 1983، (شعر).
يوميات امرأة آرق، 1985، (رواية).
معركة الزقاق، 1986، (رواية).
فوضى الأشياء، 1990، (رواية).
حقد الـ FIS، (مراسلات).
تيميمون، 1994، (رواية).
رسائل من الجزائر (بيان).
الشرق في الفن التشكيلي، (دراسة).
واقعة اغتيال ياماها بعد فوز الـ CRB، (رواية).
الانبهار، (رواية).

- صدرت هذه الكتب جميعها في طبعة جديدة عن المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار (**ANEP**) عام 2003.

Achevé d'imprimer
Par l'Imprimerie Moderne des Arts Graphiques



Alger

رشيد بوجدرة

شاب جزائري يحكي لصديقته الأجنبية الوقائع المذهلة لقصة حياته ، حيث كان الإنكار الذي عاشته أمه أهم ما ميزها.

إن هذه الرواية تعري لنا المجتمع التقليدي أين يشكل الجنس الجامح و الخرافة و النفاق النسيج الروائي - بكتابة رائعة - لطفولة محطمة.

Maquette Badia Maïdat

N° ISBN 9961-756-06-1
N° Dépôt légal: 822-2002

تم التحميل من موقع مكتبة هنا كتبي

للمزيد من الكتب والمؤلفات

زوروا موقعنا



